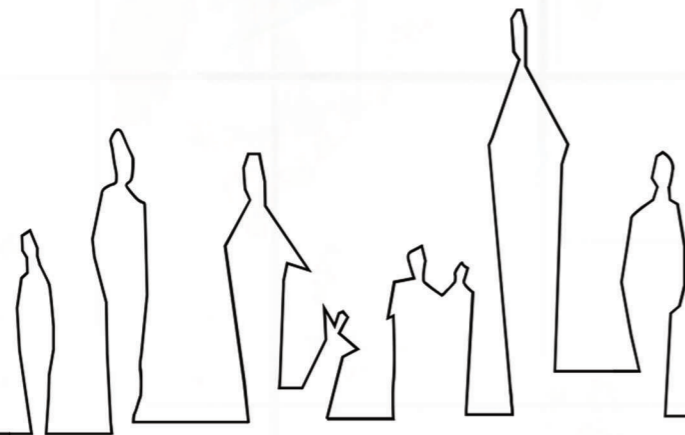


# مجلة القدس للبحوث الأكاديمية

## نسخة العلوم الإنسانية والاجتماعية

مجلة علمية محكمة تصدرها جامعة القدس،  
الجامعة العربية في القدس، فلسطين

المجلد 1 العدد2، أيار 2023



# Al-Quds Journal for Academic Research

## Humanities and Social Sciences

Vol.1, Issue 2, May 2023



#### Address

Inquiries and questions could be addressed to the Deanship of Scientific Research, Al-Quds University, P.O.Box 20002, Main Campus, Abu Dis, Jerusalem, Palestine  
Tel: +972-2-2791293  
Fax: +972-2-2791293  
Email: research@admin.alquds.edu

#### Imprint

Al-Quds Journal for Academic Research is published by Al-Quds University, the Arab university in Jerusalem, Palestine. The Journal is open access and available at the following website:  
<https://aquja.alquds.edu/index.php/arts>  
Journal email: aqujor@alquds.edu

**Al-Quds Journal for Academic Research**  
A peer reviewed journal that seeks to publish original research in various fields of social sciences and humanities, including arts and media, economics and education in order to keep Palestinian community with up-to-date research conducted by Palestinian academics and researchers worldwide.

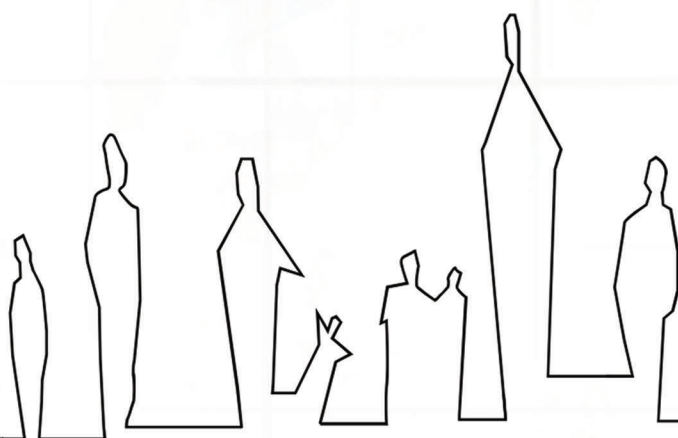


# مجلة القدس للبحوث الأكاديمية

## نسخة العلوم الإنسانية والاجتماعية

مجلة علمية محكمة تصدرها جامعة القدس،  
الجامعة العربية في القدس، فلسطين

المجلد 1 العدد2، أيار 2023



رئيس التحرير

الإشراف العام

**مها السمان**  
هندسة معمارية، تخطيط وسياسات حضرية  
جامعة القدس، فلسطين  
msamman@staff.alquds.edu

**إلهام الخطيب**  
عميد البحث العلمي  
جامعة القدس، فلسطين  
ekateeb@staff.alquds.edu

مجلس التحرير

من خارج فلسطين

**أميرة دسوقي علي**  
اللغات والترجمة  
أكاديمية السادات للعلوم الإدارية،  
مصر

**غادة عقيل**  
العلوم السياسية  
جامعة ألبرتا، كندا

**فتحي احميدة**  
العلوم التربوية  
الجامعة الهاشمية، الأردن

**كاميليا كوسومو**  
دراسات حضرية وعمارة  
جامعة تيلرز، ماليزيا

**كريستوفر هاركر**  
الجغرافية البشرية  
كلية لندن الجامعية،  
المملكة المتحدة

من فلسطين

**آمنة بدران**  
العلوم السياسية  
جامعة القدس، فلسطين

**إياد الحلاق**  
علم النفس  
جامعة القدس، فلسطين

**بعاد الخالص**  
العلوم التربوية - رياض أطفال  
جامعة القدس، فلسطين

**رشيد الجيوسي**  
عميد التعلم الرقمي  
جامعة القدس، فلسطين

**صلاح الهودلية**  
علم الآثار  
جامعة القدس، فلسطين

**عبد الناصر نور**  
الإقتصاد والعلوم الإجتماعية  
جامعة النجاح، فلسطين

**عفيف زيدان**  
العلوم التربوية  
جامعة القدس، فلسطين

المجلس الإستشاري للمجلة

عماد أبو كشك / رئيس

الأعضاء:

إبراهيم كيالي

إدريس تيتي

أسعد رملوي

رفيق قرمان

سعيد زيداني

عامر مرعي

عماد البرغوثي

غسان سرحان

فدوى اللبدي

محمود جعفري

مصطفى أبو صوي

معتصم حمدان

معتز قطب

هاني عابدين

الطاقم المساعد

**أحمد حديدون**  
المساعد الإداري

**حسن أبو لطيفة**  
تطوير المواقع الإلكترونية

**ليلى الحروب**  
التصميم الجرافيكي

المشاركون في هذا العدد

**ملاك أبو عيش**

هبة عط

ياسمين أغبر

جامعة النجاح الوطنية، فلسطين

**ياسين البجداني**

جامعة محمد الأول بوجدة، جهة الشرق،

المملكة المغربية

**ستناي شامي**

المجلس العربي للعلوم

الاجتماعية، لبنان

**شادية طوقان**

خبير دولي في الحفاظ

على التراث المعماري

**معين الكوع**

جامعة القدس، فلسطين

**ابراهيم مهديوي**

جامعة ابن طفيل، المملكة المغربية

**راسم خمائسي**

مركز التخطيط والدراسات، الداخل

الفلسطيني

**رامز عاشور**

جامعة غزة، فلسطين

مجلة علمية محكمة تصدرها جامعة القدس - الجامعة العربية في القدس، فلسطين

المجلد 1 العدد: 2

أيار 2023





## كلمة رئيس التحرير

يطيب لي أن أرحب بالقراء الأعزاء في العدد الثاني من مجلة القدس للبحوث الأكاديمية- نسخة العلوم الإنسانية والاجتماعية، والتي نطمح من خلالها إلى تأسيس مساحة لنشر الأبحاث المحكمة للباحثين المختصين، وقد استضاف هذا العدد باحثين وخبراء محليين ودوليين من دول مختلفة، حيث أننا نسعى لتعزيز وتطوير اكتساب وتبادل المعرفة بين الأوساط العلمية المختلفة.

بداية، أود أن أشكر الأستاذ الدكتور عماد أبو كشك رئيس جامعة القدس، والأستاذ الدكتور معتصم حمدان نائب الرئيس للشؤون الأكاديمية والدكتور إلهام الخطيب عميد البحث العلمي على الثقة التي منحوني إياها برئاسة تحرير مجلة القدس للبحوث الأكاديمية- نسخة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلة الرسمية لجامعة القدس والصادرة عن عمادة البحث العلمي، كما أشكر هيئة مجلس التحرير وكل من يساهم في هذه المجلة آمله أن نوفق بتقديم ما هو جديد ويسعى إلى إنتاج معرفي أصيل ويليق بجامعة القدس.

إن التطورات التكنولوجية المتسارعة على المستوى العالمي تؤكد على ضرورة تعزيز دور الإنسان في الإنتاج المعرفي الأصيل والمساهمة في إعمار الأرض لصالح البشرية، فلا يوجد حدود لتطور الفكر الإنساني وربط العلوم المختلفة ببعضها البعض من خلال تعددية التخصصات وبناءً على منهجيات فكرية وعلمية مختلفة. خاصةً بعد تطور برامج الذكاء الاصطناعي المختلفة وتحذير مصمميها من تهديد دور الإنسان في التفكير والإنتاج العلمي والمعرفي، وما ينعكس على ذلك من تأثير على ديناميكيات المجتمعات والحياة اليومية والمجتمعية.

يأتي التطور المعرفي في كثير من الأحيان من رحم المعاناة والقيود المختلفة المفروضة على الأفراد والشعوب، فكثيراً من الإسهامات المعرفية أنتجت علماء وأدباء وخبراء قدموا للإنسانية فكراً ومعرفة من خلال عقول نابغة واجهت التحديات على شتى أنواعها. وفي ظل التطورات المتسارعة في العالم العربي والإسلامي فإن البحث العلمي هو أحد المجالات المهمة لاستمرارية إنتاج العلوم المختلفة وحل المشكلات، وأداة مهمّة لمعرفة حقائق الطبيعة والخلق والحياة المجتمعية، إضافة إلى صقل شخصية وفكر الباحث من خلال إتاحة الفرصة للاطلاع على منهجيات فكرية وعلمية مختلفة ضمن إطار مهني ومسؤول معرفياً وأخلاقياً.

إنّ البحث العلمي والنشر المحكّم يخضع لعملية مستمرة من المراجعة والتطوير والتدقيق للوصول إلى المستوى الذي يليق بإنتاج الفكر المعرفي، وتطبيق أساسيات مناهج وأخلاقيات البحث العلمي. وهذا يعتمد على مجهود بحثي كبير من قبل الباحث/ة أو الفرق البحثية. فكل الشكر والتقدير لكل من ساهم بالمشاركة بإنتاجه/الفكري والبحثي في هذا العدد، من باحثين/ات من الجامعات المحلية والدولية حيث يقدم هذا العدد، مقالات لباحثين/ات بتخصصات وتجارب ومجالات متعددة. كما نعتذر لمن لم نستطع نشر مقالاتهم على أن نلناكم في أعداد قادمة وأعمال جديدة.

لا يسعنا أيضاً إلا أن نشكر جميع المحكّمين/ات من جامعة القدس وبيروت وجامعة فلسطين التقنية - خضوري والخليل والجامعات الأردنية واللبنانية والسعودية والخليجية والخبراء العاملين بمؤسسات مختلفة الذين ساهموا في تقييم وإضافة ملاحظات ذات أهمية لتكثيف هذه البحوث وإقرارها مما ساهم في زيادة المستوى المعرفي المكتسب. ولا ننسى كل من دعم وساهم في إنتاج هذا العدد من مجلس التحرير والطاقم المساعد وبالأخص المهندسة ليلى الحروب والأستاذ أحمد حديدون والأستاذ حسن أبو لطيفة والمهندسة براء عبيات والأستاذ أبيّ أبو سعدة لما بذلوه من جهود مباركة.

يحتوي هذا العدد على أبحاث متنوعة، تشمل جوانب سياسية واجتماعية واقتصادية وحضريّة وتخطيطية ولغوية. ويبدأ بمقال افتتاحي مهم للأستاذة الدكتورة ستناي شامي، المدير العام للمجلس العربي للعلوم الاجتماعية، حول واقع وحال العلوم الاجتماعية والإنسانية في الوطن العربي بما في ذلك من تحديات وإمكانيات للتطوير. ويتبعه مقال الدكتورة شادية طوقان، الخبير الدولي في الحفاظ على التراث العمراني وإحياء المدن والمواقع التاريخية، والذي يتناول قضية المشهد التاريخي الحضريّ في مدينة القدس بسياق نظري مقارناتي مع أمثلة لمدن تاريخية أخرى. ويأتي المقال الافتتاحي الثالث للباحث المغربي ياسين البجدايني المتخصص بمنهجية «سيرة الحياة» كجزء من البحث السوسولوجي والتدخل الاجتماعي.

أما المقالات البحثية فتتناول أيضاً مجالات مختلفة وبمستويات نظرية وعملية، من مواضيع سياسية تتطرق للاستيطان الاستعماري والممارسات الإسرائيلية وأثرها على التخطيط الحضري والتهويد، والمقاومة الفلسطينية بأشكالها المتنوعة وبالأخص التكنولوجية، إلى عقود التجارة الدولية الإلكترونية وسبل فض المنازعات بين الأطراف المشاركة فيها، وتختتم بمقال متعدد التخصصات يتناول علاقة اللغة والعمارة بما فيها من قضايا إنسانية وثقافية وتاريخية وسياسية مختلفة.

نأمل أن يلقي هذا العدد مكانه ضمن قراءات المختصين والمهتمين في القضايا الاجتماعية والإنسانية، وأن يكون قد ساهم أيضاً في التعبير عن الحال الفلسطيني داخل فلسطين وخارجها في الميّمات وفي الشتات وفي الفضاء السبيرياني، ونقل الصورة والحدث، حيث القدس ليست قضية الشيخ جراح فقط بل قفلسطين أجمع، ببرها وبحرها، بسماؤها وأرضها، بصفتها وبقطاع العزة والصمود، والتي جميعها ما زالت تقدم وتضحى بالغالي والنفيس، وتقدم الشهداء والأسرى والجرحى في سبيل الدفاع عن الحق في أرض الحق. حفظ الله غزة من هول ما سلّط عليها من جبروت المحتل، حفظ الله القدس ونابلس وجنين وكل المدن الفلسطينية والقرى والمخيمات وأهلها وشبابها وأطفالها وأسراها، ورحم الله شهداءنا الأبرار وتقبّلهم في عليين، وأنزل السلام والسكينة على وطننا أجمع.

نختتم مشاركتنا هذه بالتأكيد على أن مجلة القدس للبحوث الأكاديمية- نسخة العلوم الإنسانية والاجتماعية تستقبل الأبحاث العلمية المختصة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية المختلفة باللغتين العربية والإنكليزية على مدار السنة من فلسطين ومن مختلف البلدان. نشجع المساهمات من الباحثين الناشئين وطلبة الدراسات العليا والعاملين بالقطاعات المختلفة، لما في ذلك من إغناء في إنتاج البحث العلمي. وتخضع الأبحاث لعملية تكثيف وتطوير وتدقيق من قبل مختصين في مجال الموضوع قبل نشره في العدد، وتعتمد أيضاً سياسة الوصول المفتوح، آمليين أن نقدم ما هو جديد لرفعة العلم والعلماء وإنتاج المعرفة النافعة للأفراد والمجتمعات والقضايا العادلة.

### د. مها السمّان

رئيس التحرير

# واقع إنتاج المعرفة وتحدياته في العلوم الاجتماعية والإنسانية في المنطقة العربية

ستناي شامي

مقالات افتتاحية

يكتسب دور العلوم الاجتماعية في المنطقة العربية أهمية مبررة، وتبرز الحاجة إليها في ظلّ ديناميات متسارعة تتمثل في تحركات وتغييرات وتحولات تنسحب على مختلف المجتمعات والمجالات. إلا أنّ هذا الدور يصطدم بواقع النقص في عدد المنظمات والمؤسسات التي تدعم العلوم الاجتماعية في المنطقة، فضلاً عن ضآلة الموارد في الجامعات والمؤسسات البحثية الرسمية.

يقدم هذا المقال لمحة إقليمية عامة عن المنطقة العربية من ناحية النظام المؤسسي والتحديات التي تواجه إنتاج المعرفة بشكل عام. ويتم التركيز على العلوم الاجتماعية والإنسانية التي تعرّضت للتهميش على امتداد العقود الثلاثة الماضية في السياسات التعليمية في المنطقة، رغم أهميتها في بناء المجتمعات بشكل عام وتنشئة الشباب لتمكّنهم من عيش حياة منتجة وذات معنى على الصعيد المحلي والوطني والعالمي.

## تحديات العلوم الاجتماعية في المنطقة العربية

أدت الانتفاضات والتحولات التي شهدتها مجتمعات المنطقة العربية خلال العقد الماضي إلى إظهار جوانب الضعف في الأطر المفاهيمية والأبحاث الميدانية في العلوم الاجتماعية في المنطقة. ويمكن إرجاع جوانب الضعف تلك إلى جملة أسباب أهمها:

أ) تعاني الجامعات في أغلب الأحيان نقصاً في الموارد؛ وغالباً ما تُحرّم العلوم الاجتماعية والإنسانية من الموارد اللازمة سواء لغرض التعليم أم البحث.

ب) تُبلور المنظمات غير الحكومية أجنحة جديدة للأبحاث والربط بين البحث والتنمية وبناء السياسات؛ ولكن تلك الجهود مشرذمة ولا تؤدي إلى تراكم أو نشر كافٍ للأبحاث الناتجة عنها.

ج) يعمل أساتذة العلوم الاجتماعية وغيرهم من الباحثين/ات عادةً فوق طاقتهم/ن في تدريس أعداد كبيرة من الطلاب والطالبات، لذا يصبحون غير قادرين/ات على متابعة اهتماماتهم/ن البحثية بشكل منتظم.

ستناي شامي هي المدير العام للمجلس العربي للعلوم الاجتماعية، لبنان.  
للمراسلة - البريد الإلكتروني [shami@theacss.org](mailto:shami@theacss.org).

تنويه: تشكر المؤلفة زميلاتها في المجلس العربي للعلوم الاجتماعية إلياس قطار ورامي عفيش على مساهماتهما القيّمة في البحث والتحليل المقدمين في هذا المقال.

حقوق النشر ٢٠٢٣، جميع البيانات الواردة في هذا المقال محمية ويجب أخذ إذن الاستخدام عن طريق جامعة القدس، ([www.alquds.edu](http://www.alquds.edu)).



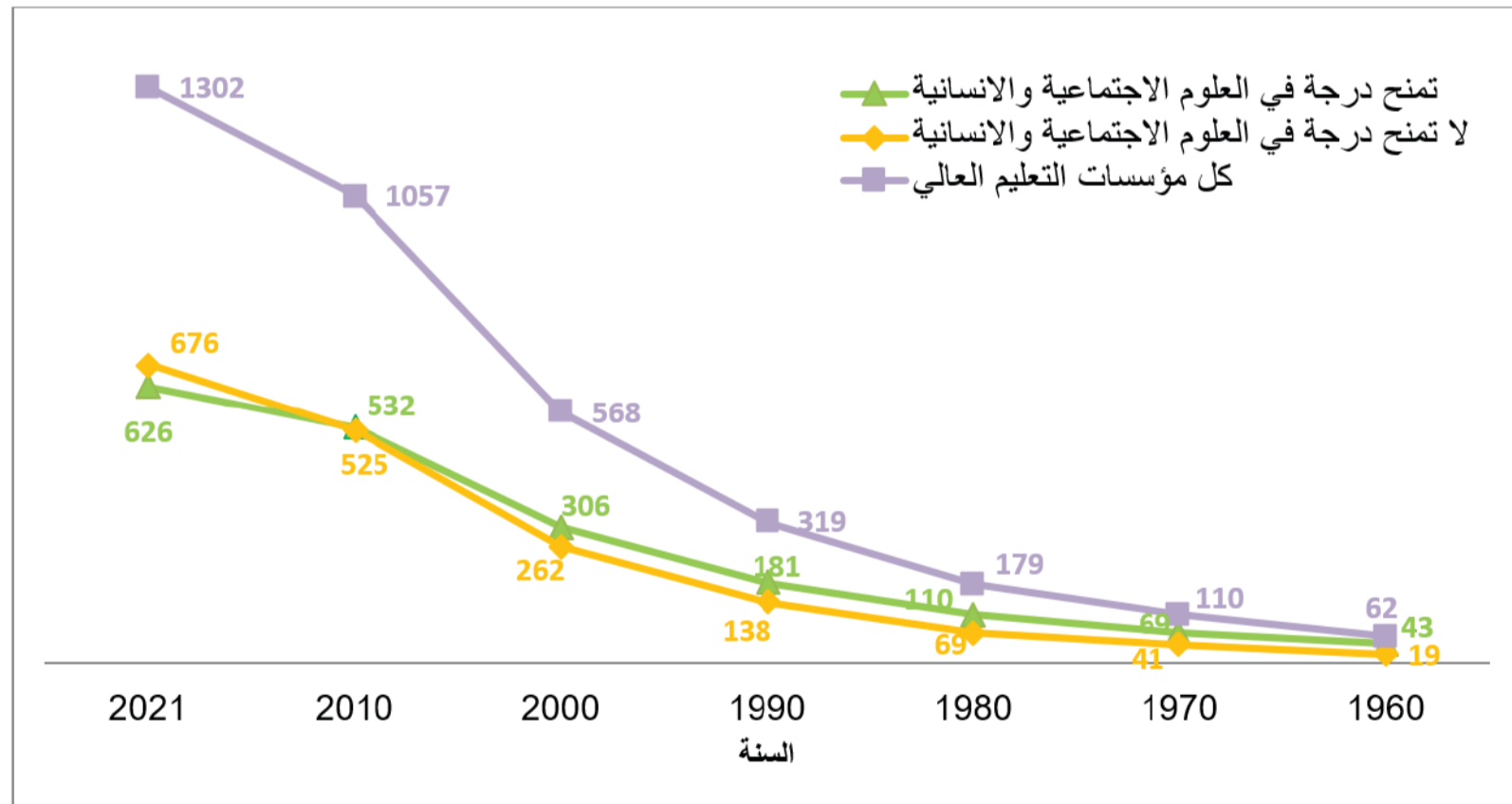
وتنشأ تلك التحديات من العوامل الآتية:

وكما في الأنشطة كذلك في المنشورات، تحتفظ فلسطين بمكانة بارزة من خلال مشاركة مؤلفين/ات فلسطينيين/ات، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: سلسلة أوراق العمل المحكّمة، وكتاب «المقاومة الجندرية» الذي احتضنت أعداده أكثر من مقالة لمؤلفات فلسطينيات بمساعدة مرشدة من فلسطين. كما تشكل فلسطين في تقارير المرصد العربي للعلوم الاجتماعية محطّ دراسة كميّة ونوعيّة (يمكن مراجعة التقارير الأول والثاني والثالث للاستزادة). ويضاف إلى كل ما سبق أنّ المجلس يعمل على نشر مجلّد محكّم قريبًا بعنوان: «الهندسة الاجتماعية للمستعمرة: فلسطين نموذجًا» أنتجت نقطة التواصل في فلسطين وشاركت في تأليفه مجموعة من الباحثين والباحثات الفلسطينين/ات.

### مشروع المرصد: معاينة البحوث وإدارة البيانات

منذ العام ٢٠١٣، يواظب المجلس من خلال مشروع المرصد العربي للعلوم الاجتماعية التابع له على مسح مشهد العلوم الاجتماعية في الجامعات، والمجلات، والجمعيات المهنية، والبنى التحتية الأخرى لإنتاج المعرفة. ويعمل المرصد على جمع بيانات كميّة ونوعيّة وتحليلها وتعميمها. وبالإضافة إلى تطوير وبناء قواعد البيانات، يُنتج المرصد تقارير عن حالة العلوم الاجتماعية في المنطقة. كما نجح في تطوير أول «داتافرس» عربي، ويعقد دورات تدريبية على إدارة البيانات ومشاركتها.

تُظهر قاعدة بيانات المرصد أنّ المنطقة العربية شهدت نموًا هائلًا في الجامعات منذ التسعينيات، وكانت لهذا النمو آثار مهمة (بامية، ٢٠١٥). تُبيّن أحدث البيانات أنّ عدد الجامعات تضاعف بمعدّل أربع مرات خلال ثلاثين عامًا من ٣١٩ جامعة في العام ١٩٩٠ إلى ١٣٧٧ في العام ٢٠٢١ (انظري الشكل ١). يؤسّر ذلك إلى زيادة استثمار الدولة في التعليم العالي ولكنّه أيضًا نتيجة الانفتاح على الجامعات الخاصة (بما في ذلك الجامعات الربحية). وبينما يتزايد عدد الجامعات، نرصد أيضًا فجوة متزايدة بين الجامعات التي تقدّم درجات علمية في برامج العلوم الاجتماعية والإنسانية وتلك التي لا توفرها. ففي العام ١٩٨٠ منحت ٦٣ في المئة من الجامعات درجات علمية في العلوم الاجتماعية والإنسانية، ثمّ انخفضت النسبة إلى ٥٠ في المئة بحلول العام ١٩٩٩ وبعدها إلى ٤٤ في المئة من الجامعات التي تم إنشاؤها بعد العام ٢٠٠٠. يشير ذلك إلى أنّ معظم الجامعات الجديدة موجهة نحو العلوم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات، وكذلك الشؤون المالية والإدارة. في تلك الجامعات، نادرًا ما يتم تقديم مساقات اختيارية في العلوم الاجتماعية والإنسانية.



الشكل 1. العدد التراكمي لمؤسسات التعليم العالي التي تقدم برامج للحصول على درجات علمية في العلوم الاجتماعية والإنسانية في المنطقة العربية بناءً على تاريخ التأسيس (المجموع = 1377 - تاريخ التأسيس متوفر لـ 1302 جامعة من أصل 1377) (قاعدة بيانات المرصد العربي للعلوم الاجتماعية، 2021).

عند معاينة توزّع الجامعات التي تمنح درجات في العلوم الاجتماعية والإنسانية بحسب الدولة والجامعات العامة مقابل الجامعات الخاصة، نرى مشهدًا متنوعًا يعكس سياسات مختلفة. يسيطر القطاع العام إلى حدّ كبير في الجزائر وليبيا والمملكة العربية السعودية وتونس وفلسطين، مع وجود جامعات حكوميّة فقط في الجزائر. وفي حين تبلغ نسبة مؤسسات القطاع العام ٣٣ في المئة أو أقلّ في لبنان والصومال ومعظم دول الخليج، فإنّ البلدان الأخرى تشهد توزّعًا متساويًا بين المؤسسات العامة والخاصة (انظري الشكل ٢).

أ) إنّ مساحة التفكير المستقلّ والنقدي في العديد من الدول العربية محدودة. كما أنّ تأثير البحوث على النقاش العام والسياسات ضئيل. ويعود ذلك إلى ندرة قنوات التواصل بين الباحثين/ات وصانعي/ات السياسات، فضلًا عن قلّة المنظمات مثل مراكز الدراسات ومراكز البحوث التي من شأنها الاطلاع على الأبحاث القائمة وتحليل مدى ملاءمتها لصنع السياسات الفعّالة.

ب) إنّ العلوم الاجتماعية في المنطقة مرتبطة بشكل ضعيف بإنتاج العلوم الاجتماعية العالمي، وهي لا تتحدّى بشكل فعّال النماذج المهيمنة الغربية، ولا تبني تحالفات كافية وقوية بين دول الجنوب.

ج) إنّ أجدات البحث نادرًا ما تنبع من نتائج البحوث التجريبية أو الاعتبارات النظرية، بل من الضرورات السياسية/التنموية و/أو الأجدات المستوردة ومصادر التمويل. بالتالي، قد يميل الباحثون/ات إلى الانتقال من موضوع إلى آخر بشكل سريع، ما يؤدّي إلى عدم تراكم المعارف أو الخبرات بشكل كافٍ.

ه) محدودية قدرة الباحثين/ات على الوصول إلى البيانات (من جميع الأنواع).

انطلاقًا من هذا الواقع، وركونًا إلى أهميّة النهوض بالعلوم الاجتماعية ودعمها ونشرها وتعميمها في المنطقة، تأسّس المجلس العربي للعلوم الاجتماعية وطوّر مهمّته ضمن هذا السياق. ونرى في السنوات العشر إلى الخمس عشرة الماضية نموّ عدديّ من المؤسسات في المنطقة، تتناول أنواعًا مختلفة من إنتاج المعرفة وتحاول المساهمة في فهم أفضل للحاضر وتطوير رؤى بديلة للمستقبل. يُعدّ المجلس العربي للعلوم الاجتماعية جزءًا من بيئة هذا النظام الجديد والمتنامي للمؤسسات، إذ في اثنتي عشرة سنة من عمره نجح في تكريس مكانة كأحد أبرز مصادر إنتاج المعرفة الجديدة ذات الصلة بالعلوم الاجتماعية في المنطقة العربيّة، ونشرها وتعميمها.<sup>١</sup>

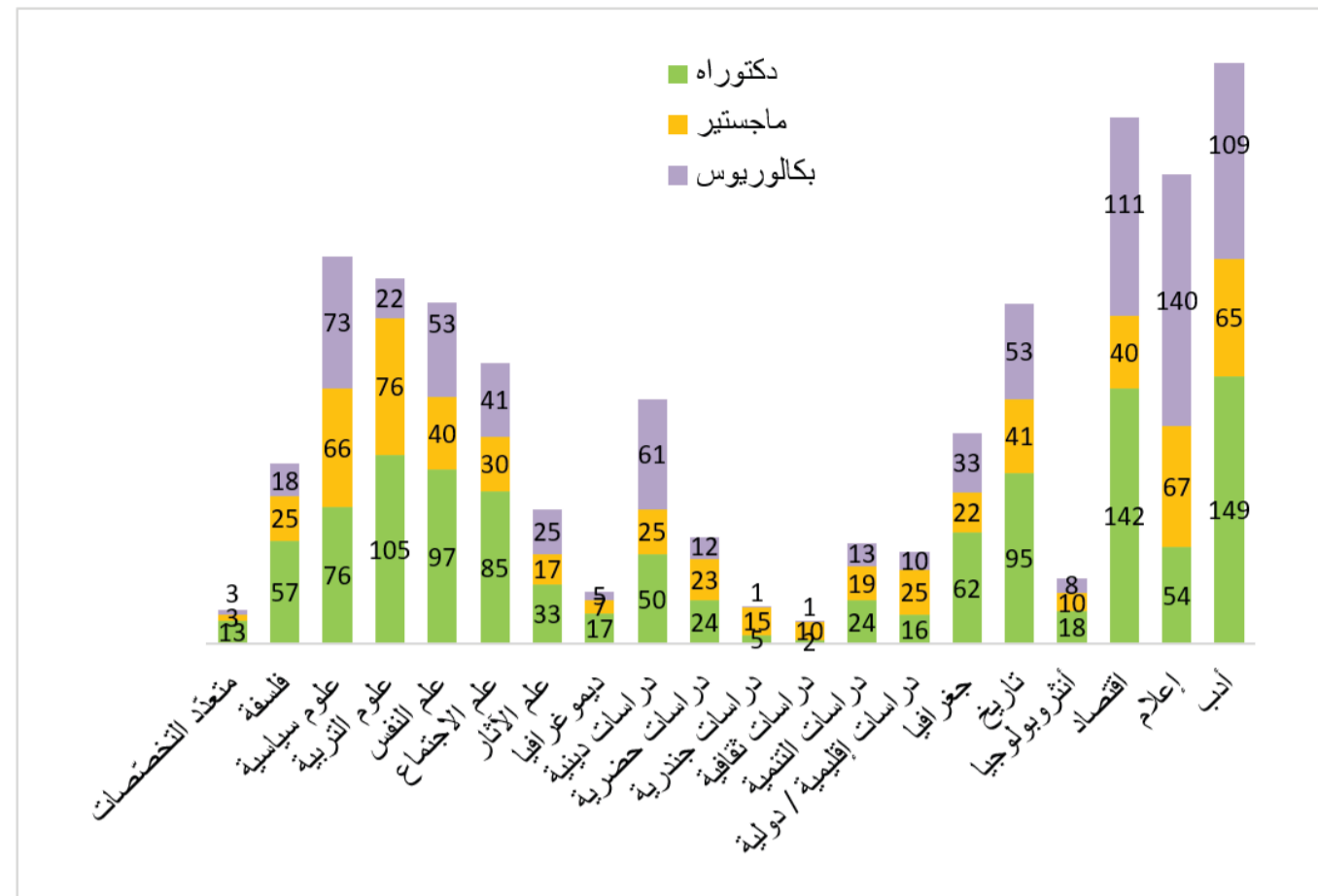
### المجلس وفلسطين: علاقة مستمرة منذ التأسيس

ترتبط المجلس العربي للعلوم الاجتماعية بفلسطين علاقة عميقة عمرها من عمر المجلس نفسه. فقد ضمتّ اللجنة التوجيهية والاجتماعات التحضيرية عددًا من علماء العلوم الاجتماعية الفلسطينيين/ات. وبعد تأسيسه رسميًا، كان هناك بشكل متواصل عضو فلسطيني أو أكثر في مجلس الأمناء.

في العام ٢٠١٥، قرر مجلس الأمناء إنشاء أول نقطة تواصل للمجلس في فلسطين (ثمّ تلتها نقطة تواصل أخرى في الجزائر عام ٢٠١٧). ويعود سبب هذا القرار إلى الظروف الخاصّة والصعوبات التي واجهها الباحثون/ات الفلسطينيون/ات وما زالوا يواجهونها بفعل الاحتلال والقيود المفروضة على التنقّل وفرص البحث والتعليم بشكل عام. تتمثّل مهمّة النقطة في فتح مساحة للبحث والتفكير للباحثين/ات الفلسطينيين/ات خصوصًا الباحثين/ات الناشئين/ات، فضلًا عن الحرص على نقل اهتمامات وهواجس مجتمع الباحثين/ات الفلسطينيين/ات إلى مجلس الأمناء.

أمّا على صعيد برامج المجلس، فيسجّل الحاصلون/ات على منح وزمالات من فلسطين حضورًا مستمرًا. وحتّى بداية العام ٢٠٢٣، بلغ عددهم ٨٣ ممنوحًا/ة وزميلًا/ة موزعين/ات على مختلف البرامج. كما يشارك في أنشطة مجموعات العمل عددًا من الطلاب/الطالبات الفلسطينيين/ات. أمّا أحدث البرامج التي أطلقها المجلس فهو برنامج زمالات الجيل الجديد بالشراكة مع عددٍ من الجامعات، أربع منها في فلسطين وهي: جامعة بيرزيت (الجامعة الشريكة الرئيسيّة)، وجامعة النجاح الوطنية، وجامعة القدس (أبو ديس)، وجامعة بيت لحم (جامعات مشاركة)، وذلك بالتعاون مع منسق مسؤول للبرنامج في جامعة بيرزيت. ويضمّ البرنامج ٣٨ طالبًا وطالبة من الجامعات المذكورة، نظّموا أكثر من ٤٥ نشاطًا وسياصلون تنظيم الأنشطة بوتيرة شهرية. ويضاف إلى ما سبق حلقات النقاش التي ينظمها المجلس والتي يتحدّث فيها محاضرون/ات فلسطينيون/ات بارزون/ات من مختلف مجالات العلوم الاجتماعية والإنسانية. ولا يمكن إغفال أنّ سلسلة المحاضرات السنوية، التي يكرّم المجلس من خلالها علماء/عالمات علوم اجتماعية بارزين/ات من المنطقة العربيّة، كانت قد استهلّت بتكريم المؤرّخ الفلسطيني حنا بطاطو وامتدّت لأربع سنوات.

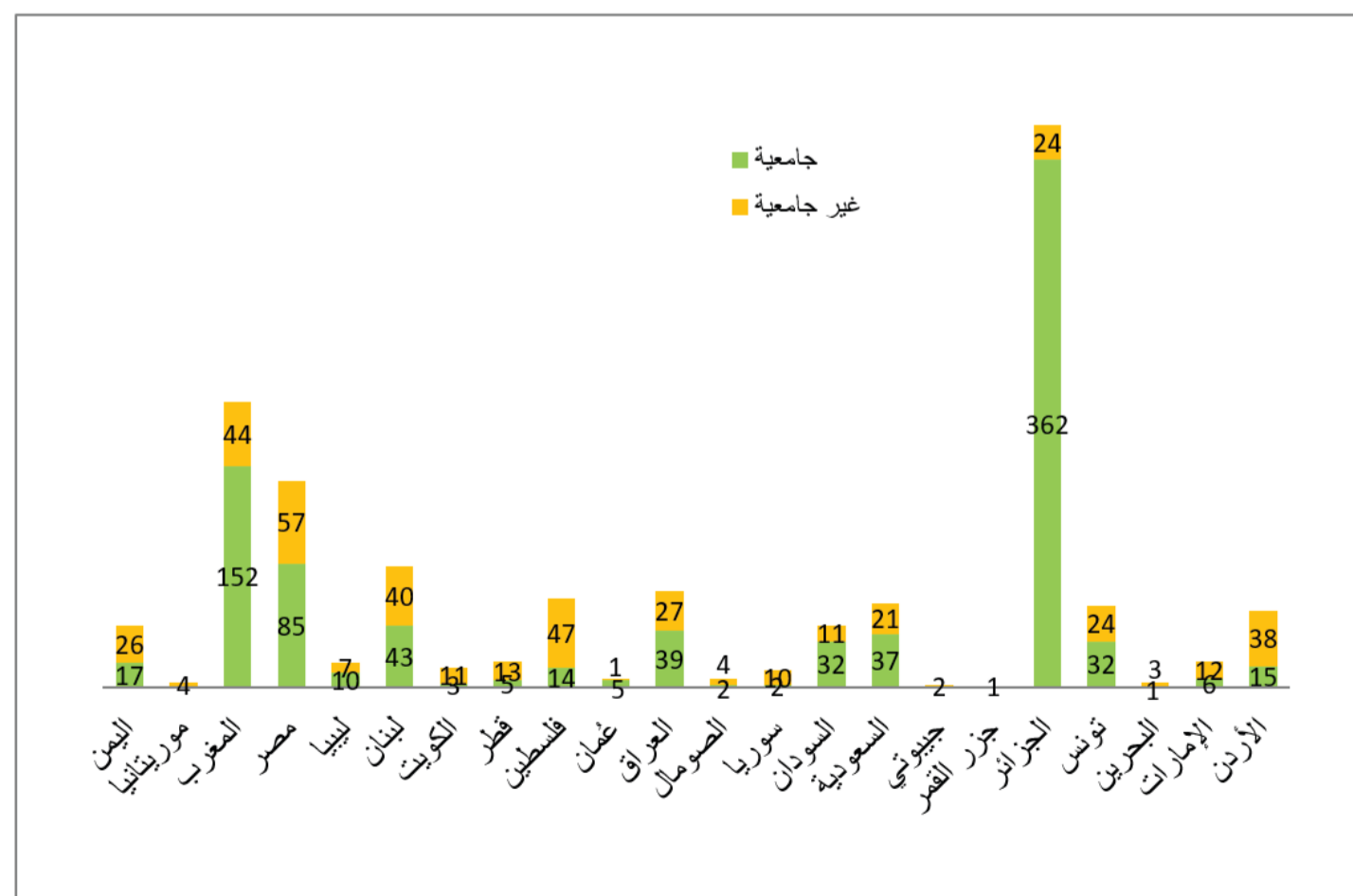
١ لمزيد من الاطلاع على دور المجلس وبرامجه ومشروعاته ومنشوراته يمكن زيارة موقعه الإلكتروني: www.theacss.org



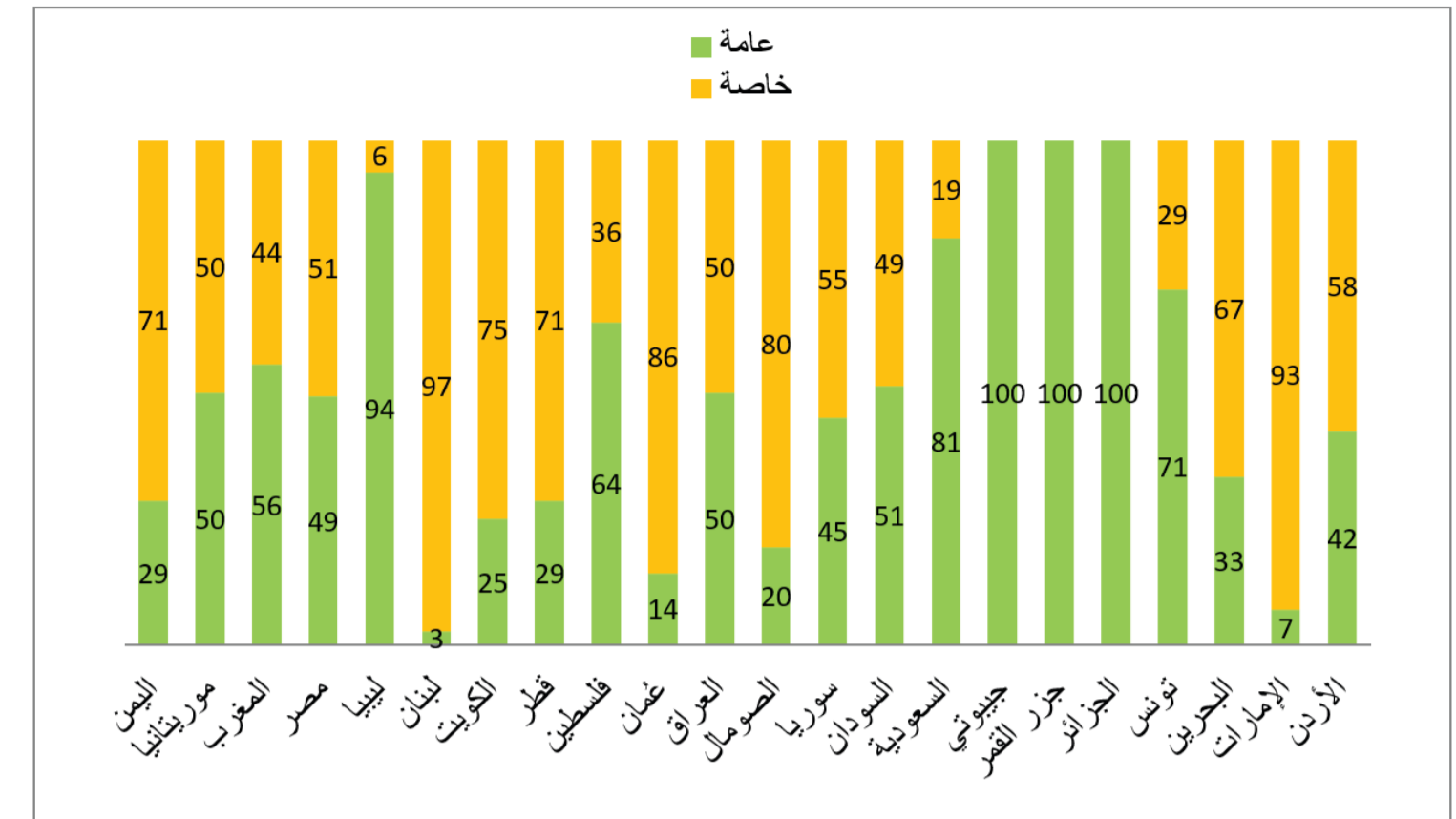
الشكل 4. عدد مؤسسات التعليم العالي في المنطقة العربية التي تقدم برامج للحصول على درجات علمية في العلوم الاجتماعية/الإنسانية بحسب المجال والمستوى الأعلى (تم استبعاد المؤسسات التي لا يمكن تحديد أعلى مستوى لها في مجال معين من هذا المخطط) (قاعدة بيانات المرصد العربي للعلوم الاجتماعية، 2021).

بالإضافة إلى الأقسام الجامعية والتدريس، تستلزم إعادة إنتاج الحقل والتخصصات مؤسسات مَلخقة مهمة، أبرزها مراكز البحث والدوريات والجمعيات المهنية. تُمكن هذه الهياكل الباحثين/ات من الاجتماع، والانخراط في البحث التشاركي، ونشر النتائج للجمهور المتخصص والعام.

في ما يتعلق بمراكز البحث، نجد أنّ الجزائر والمغرب ومصر ولبنان والعراق تحتضن حاليًا نحو ثلثي مراكز أبحاث العلوم الاجتماعية والإنسانية في المنطقة (انظر/ي الشكل 5)، ثلثها عبارة عن مراكز بحث تابعة للجامعات وتتركز في الجزائر والمغرب ومصر (٥٠ في المئة)، في حين تحتلّ مصر وفلسطين والمغرب صدارة البلدان التي تحتضن مراكز بحث غير تابعة للجامعات (تشكّل معًا نسبة ٣٥ في المئة).

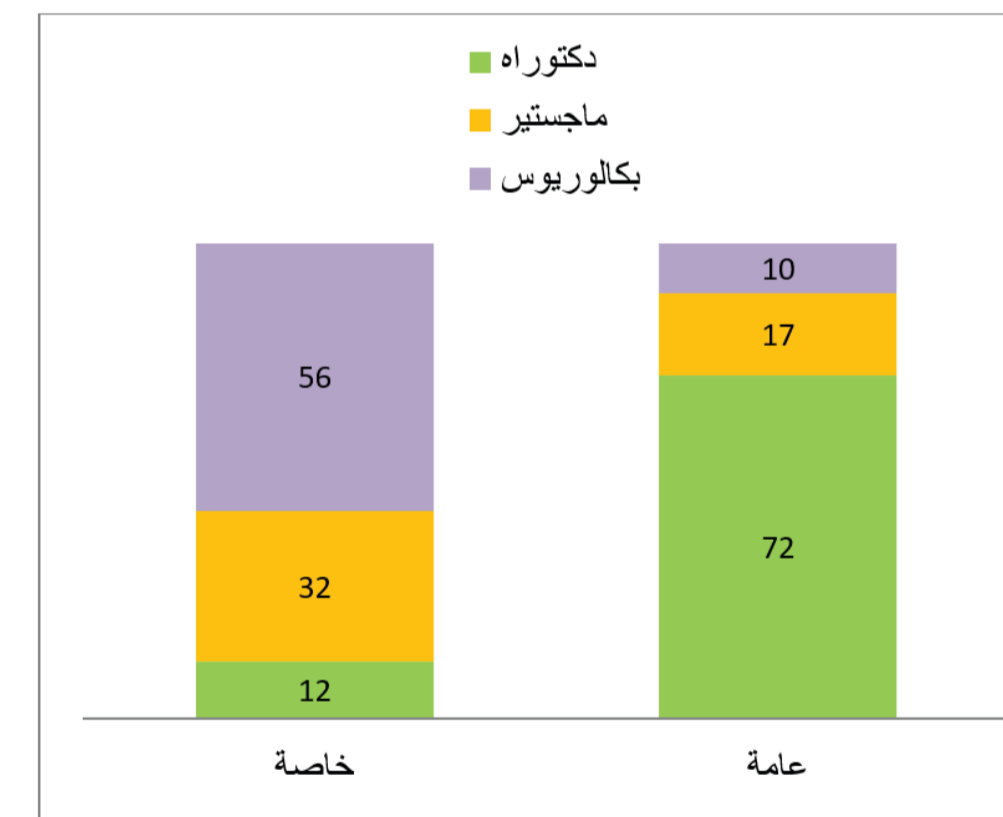


الشكل 5. عدد مراكز البحث العاملة في العلوم الاجتماعية/الإنسانية في المنطقة العربية بحسب الدولة والارتباط (قاعدة بيانات المرصد العربي للعلوم الاجتماعية، 2021).



الشكل 2. التوزع العام/الخاص لمؤسسات التعليم العالي في المنطقة العربية التي تقدم برامج للحصول على درجات في العلوم الاجتماعية/الإنسانية بحسب الدولة (%) (قاعدة بيانات المرصد العربي للعلوم الاجتماعية، 2021).

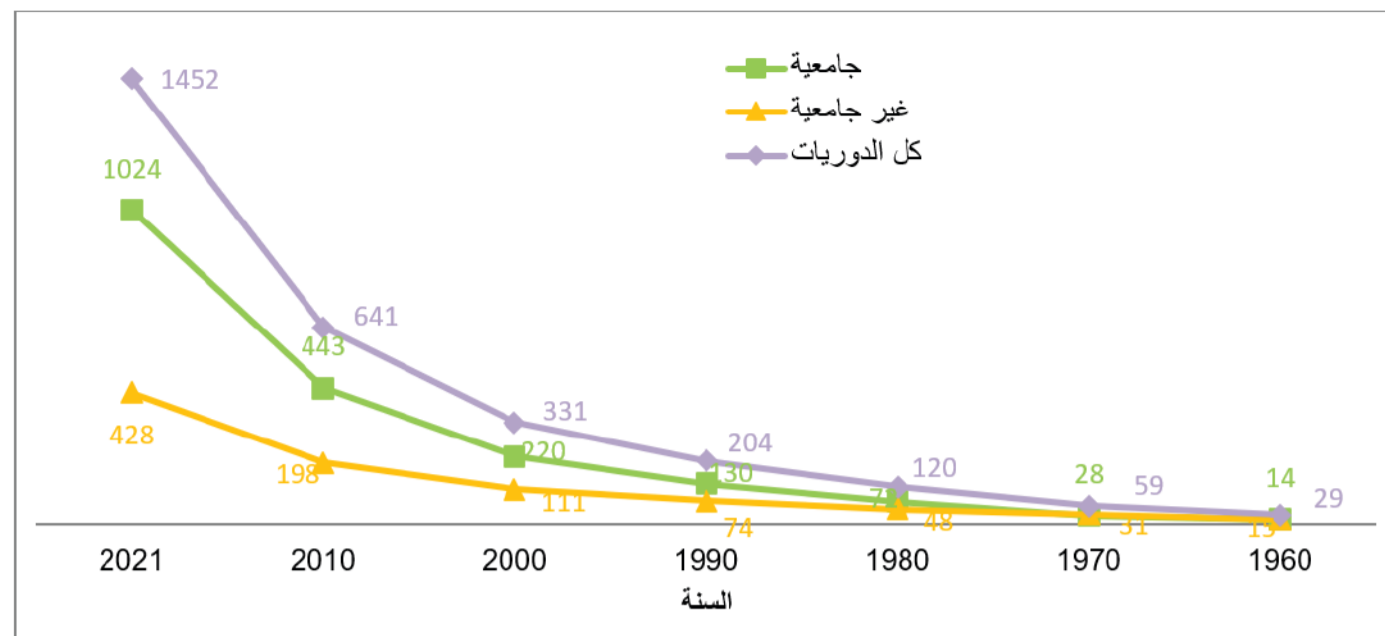
ومن المثير للاهتمام، أنّ الجامعات الحكومية تقدّم درجات علمية متقدمة وبرامج دكتوراه في العلوم الاجتماعية والإنسانية، في حين أنّ معظم الجامعات الخاصة تمنح درجات البكالوريوس أو الماجستير فقط (انظر/ي الشكل 3). هذا الأمر مهم للغاية لأنّ المؤسسات العامة بشكل عام تعاني نقصًا في الموارد وحالة زخم وكثافة، فضلًا عن نقص في مرافق البحث. يعني ذلك أيضًا أنّ معظم الخريجين/ات في العلوم الاجتماعية والإنسانية من الجامعات الخاصة يميلون إلى السعي للحصول على درجة الدكتوراه في الخارج بدلًا من المنطقة.



الشكل 3. المستوى الأعلى المتوقع لدرجات العلوم الاجتماعية/الإنسانية في مؤسسات التعليم العالي العامة والخاصة في المنطقة العربية (%) (قاعدة بيانات المرصد العربي للعلوم الاجتماعية، 2021).

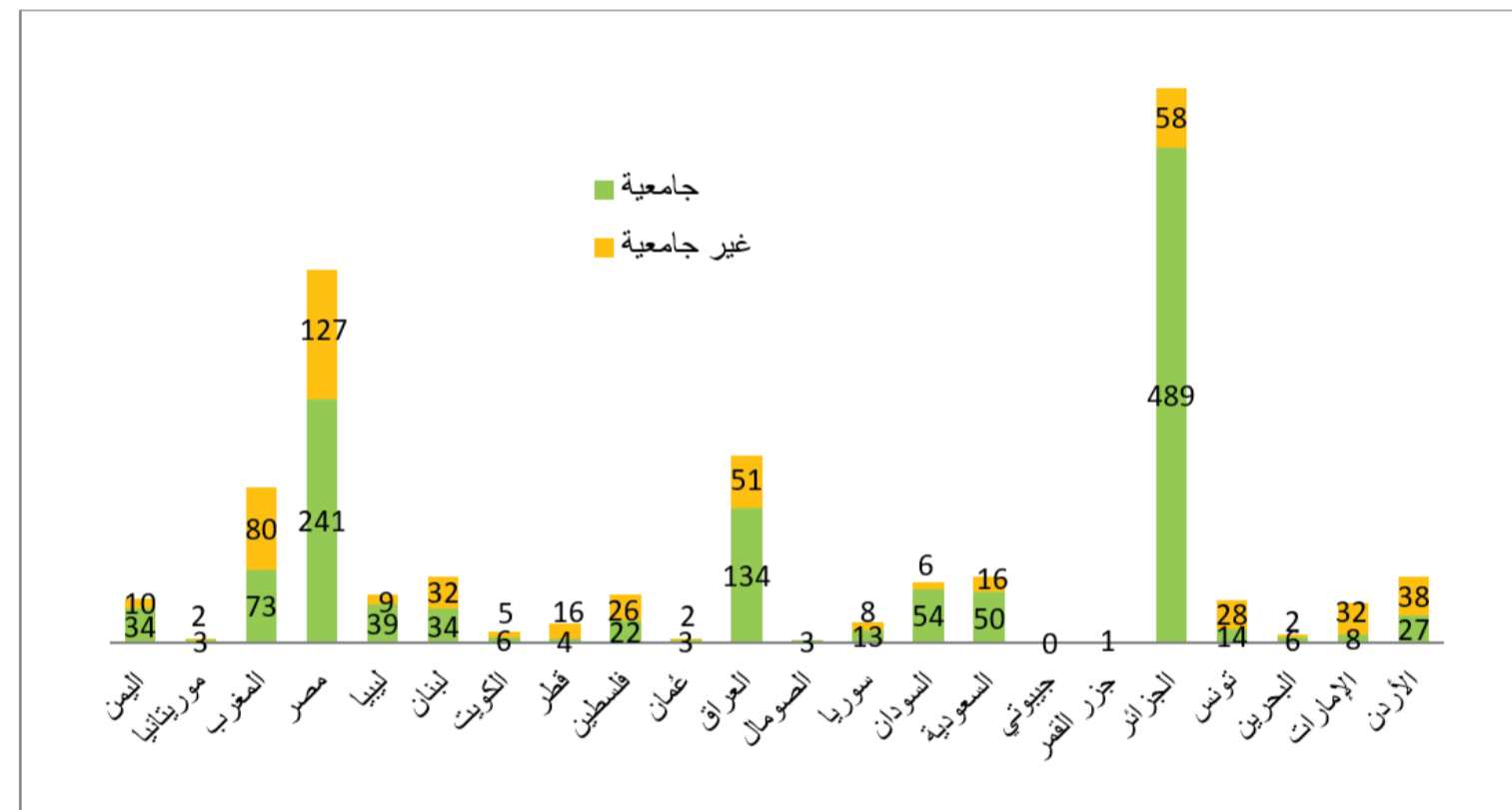
عند النظر إلى التخصصات وتوزعها على الدرجات الممنوحة، نرى أشكالًا مثيرة للاهتمام. حقول العلوم الاجتماعية والإنسانية التي يتم فيها تقديم برامج الدرجات العلمية الأكثر شيوعًا هي الأدب (٢٦ في المئة)، والاقتصاد (٢٣ في المئة)، والدراسات الإعلامية (٢١ في المئة)، تليها العلوم السياسية (١٧ في المئة)، وعلوم التربية والتاريخ (١٦ في المئة لكل منهما)، وعلم النفس (١٥ في المئة)، وعلم الاجتماع (١٣ في المئة). وتبلغ نسبة الفلسفة ٩ في المئة فقط، والدراسات الدينية (باستثناء دراسات الشريعة) ١١ في المئة. بالكاد تظهر الأنثروبولوجيا، والديموغرافيا، ودراسات التنمية، والدراسات الإقليمية/الدولية، ودراسات الجندر، والدراسات الثقافية. ورغم تقديم مستوى معين من الدراسات العليا في جميع المجالات تقريبًا، يختلف المجموع قليلًا بحسب التخصص (انظر/ي الشكل 4).





الشكل 7. العدد التراكمي لدوريات العلوم الاجتماعية/الإنسانية في المنطقة العربية بناءً على تاريخ نشرها للمرة الأولى (المجموع = 1806 - تاريخ النشر للمرة الأولى متوفر لـ1452 دورية من أصل 1806) (قاعدة بيانات المرصد العربي للعلوم الاجتماعية، 2021).

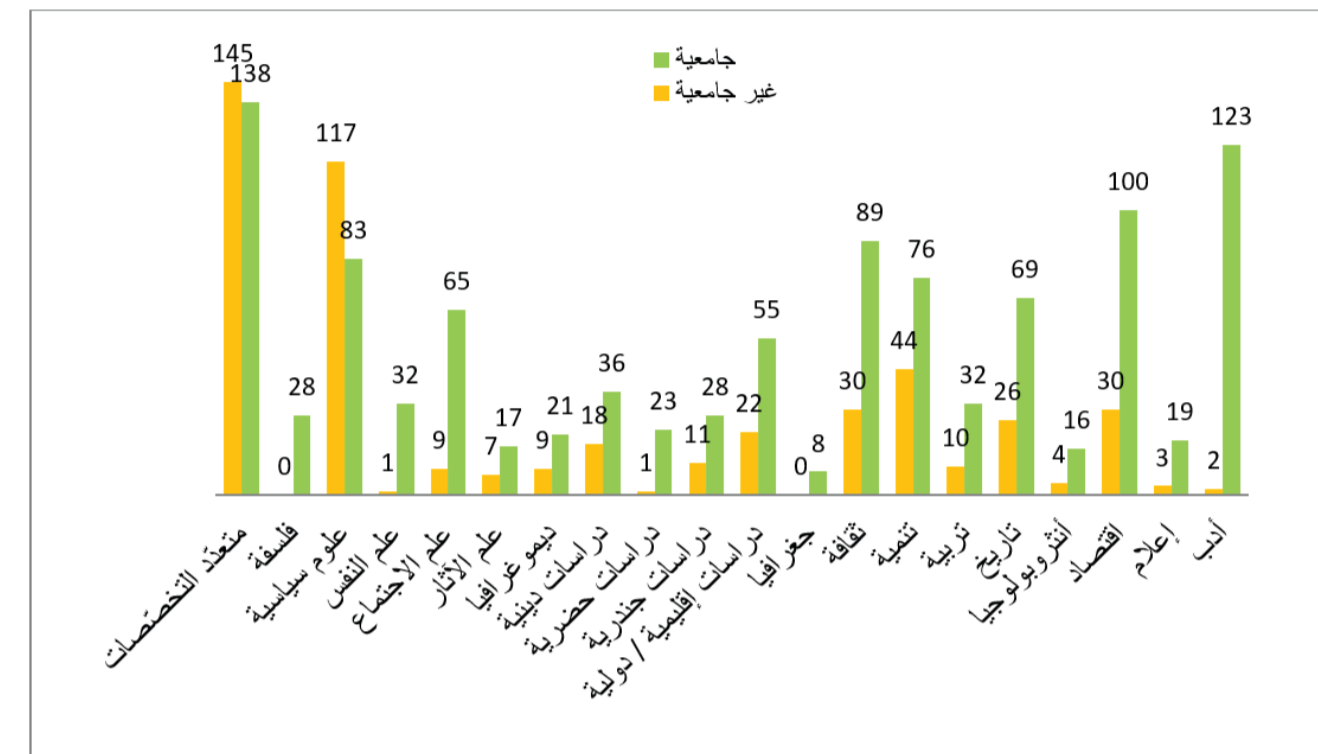
من حيث التوزيع على البلدان، نرى أنّ الجزائر ومصر والعراق والمغرب هي الدول الأكثر إصدارًا لدوريات العلوم الاجتماعية والإنسانية، إذ تنشر نحو 70 في المئة منها (انظر/ي الشكل 8).



الشكل 8. عدد الدوريات في المنطقة العربية التي تنشر في مجالات العلوم الاجتماعية/الإنسانية بحسب بلد مؤسسة النشر (قاعدة بيانات المرصد العربي للعلوم الاجتماعية، 2021).

على صعيد التخصصات والحقول، نجد أنّ العدد الأكبر من الدوريات متعدّد التخصصات، بما في ذلك بعض من تلك التي تغطي تخصصات خارج العلوم الاجتماعية والإنسانية (انظر/ي الشكل 9). هذا أمر مهمّ لأنّ هذه المجالات في الغالب لا تركّز على تطوير أنواع معينة من تعديدية التخصصات أو تحدي حدود التخصصات. معظم هذه المجالات تابعة لجامعات وتعمل كمنافذ ملائمة لمنشورات الأساتذة الذين يسعون إلى الترفيه. لا تتوجّه هذه المجالات إلى جمهور معين أو تأثير نقاشًا واسعًا كما تفعل المجالات الأكثر تخصصًا. أما بالنسبة إلى المجالات المتخصصة، فنرى أعلى الأرقام في مجالات الاقتصاد (17 في المئة)، والأدب (11 في المئة)، والعلوم السياسية (10 في المئة) والتربية (9 في المئة)، وفي ذيل القائمة يأتي التاريخ (5 في المئة).

تمثل مراكز الأبحاث متعدّدة التخصصات 22 في المئة من إجمالي مراكز أبحاث العلوم الاجتماعية والإنسانية في المنطقة العربية. باستثناء هذه العلوم، إنّ المجالات التي تستهدفها مراكز أبحاث العلوم الاجتماعية والإنسانية في الغالب هي العلوم السياسية (16 في المئة) والاقتصاد والأدب (10 في المئة لكل منهما). أمّا مجالات الديموغرافيا، والفلسفة، وعلم الآثار، والإعلام، والأنثروبولوجيا، والجغرافيا فتسجّل حضورًا ضعيفًا (أقلّ من 2 في المئة لكل منها). باستثناء مراكز أبحاث العلوم السياسية وتلك التي تتسم بطابع متعدد التخصصات، يتجاوز عدد مراكز البحث التابعة للجامعات إلى حدّ كبير عدد مراكز البحث غير التابعة للجامعات في جميع المجالات (من الثلاثين في الدراسات التنموية والدينية إلى أكثر من 95 في المئة علم النفس والأدب والفلسفة والجغرافيا) (انظر/ي الشكل 6).



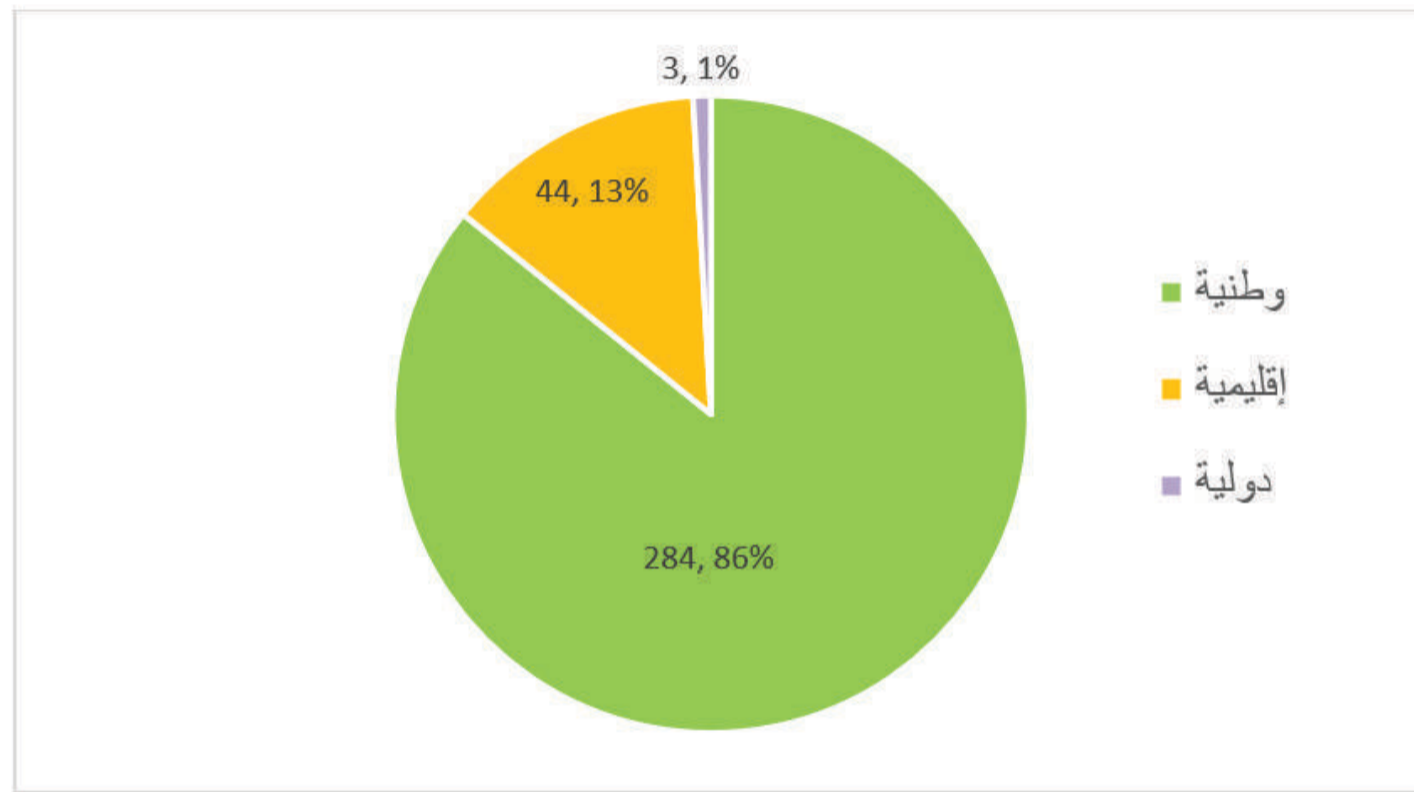
الشكل 6. عدد مراكز أبحاث العلوم الاجتماعية/الإنسانية في المنطقة العربية بحسب المجال والارتباط (قاعدة بيانات المرصد العربي للعلوم الاجتماعية، 2021).

يختلف توزّع مجالات الاهتمام اختلافًا كبيرًا بين مراكز البحث التابعة للجامعات ومراكز البحث غير التابعة للجامعات. بالمقارنة مع مراكز البحث التابعة للجامعات، تميل مراكز البحث غير التابعة للجامعات إلى أن تكون متعددة التخصصات (٣٤ في المئة مقابل ١٦ في المئة) أو للتركيز على العلوم السياسية (٢٧ في المئة مقابل ١٠ في المئة)، ومعظمها على حساب الأدب (صفر في المئة مقابل ١٤ في المئة)، والاقتصاد (٧ في المئة مقابل ١٢ في المئة) وعلم الاجتماع (٢ في المئة مقابل ٨ في المئة)، فيما تحتلّ هذه المجالات الأخيرة مكانةً أكبر في مراكز البحث التابعة للجامعات. ومن الجدير ذكره أيضًا أنّ الأدب وعلم النفس والفلسفة والجغرافيا غائبة تقريبًا أو كليًا في مراكز البحث غير التابعة للجامعات. يعكس هذا المشهد عوامل مهمّة في تشكيل إنتاج المعرفة، والتي تشمل مصادر التمويل والتوافر والحساسيات المحيطة ببعض موضوعات البحث (على سبيل المثال، البحث في السياسة والرأي العام).

في ما يتعلق بالدوريات، نرى زيادة هائلة في أعدادها في العقود الأخيرة، حيث كان العام ١٩٩٠ لحظة فاصلة (انظر/ي الشكل 7). غالبية الدوريات موجودة حاليًا في الجامعات، وهو أمرٌ مثير للاهتمام إذ تاريخيًا، ارتبط العديد من دوريات العلوم الاجتماعية والإنسانية المهمة والمؤثرة بمراكز بحثية خارج الجامعات (على سبيل المثال، العديد من المجالات التي يصدرها أو يربها مركز دراسات الوحدة العربية ومقرّه بيروت، ومعهد الدراسات الفلسطينية)، وكثيرٌ منها له انتماءات سياسية وتوجّهات أيديولوجية واضحة. قبل العام ١٩٨٠، كان ربع الدوريات فقط تابعًا للجامعات مقارنةً بثلاثة أرباع في الوقت الحاضر. كما أنّ مجلات سابقة عديدة لا تزال موجودة، على الرغم من أنها أصبحت تمثّل نسبةً أقل من الدوريات المتاحة في المنطقة.



الشكل 11. عدد الجمعيات المهنية في مجال العلوم الاجتماعية/الإنسانية في المنطقة العربية بحسب البلد (قاعدة بيانات المرصد العربي للعلوم الاجتماعية، 2021).



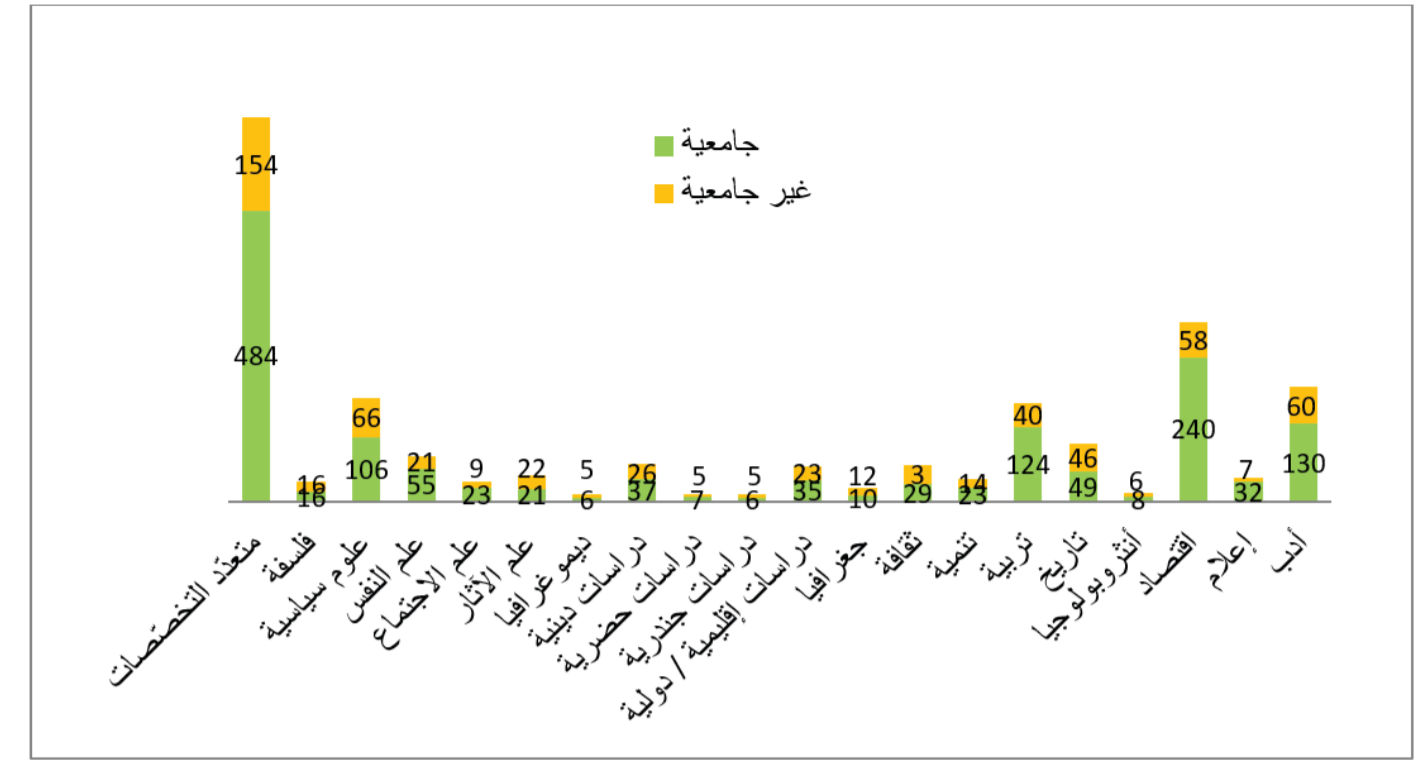
الشكل 12. المجتمعات المهنية/العلمية في العلوم الاجتماعية/الإنسانية في المنطقة العربية بحسب النطاق الجغرافي (العدد٪؛ كما يتضح من اسم المجتمع المهني).

### نحو مستقبل أفضل

تُظهر هذه المعلومات حول البنى التحتية لإنتاج المعرفة في العلوم الاجتماعية والإنسانية في المنطقة العربية قيود هذه المجالات واحتياجاتها. في هذا السياق، تحتاج المساعي من أجل مستقبل أفضل إلى تبني مقاربات مبتكرة وجديدة لإنتاج المعرفة. في ما يأتي بعض الاستراتيجيات الممكنة للمستقبل:

1- التطرق إلى تراتبيات إنتاج المعرفة - شركات جديدة:

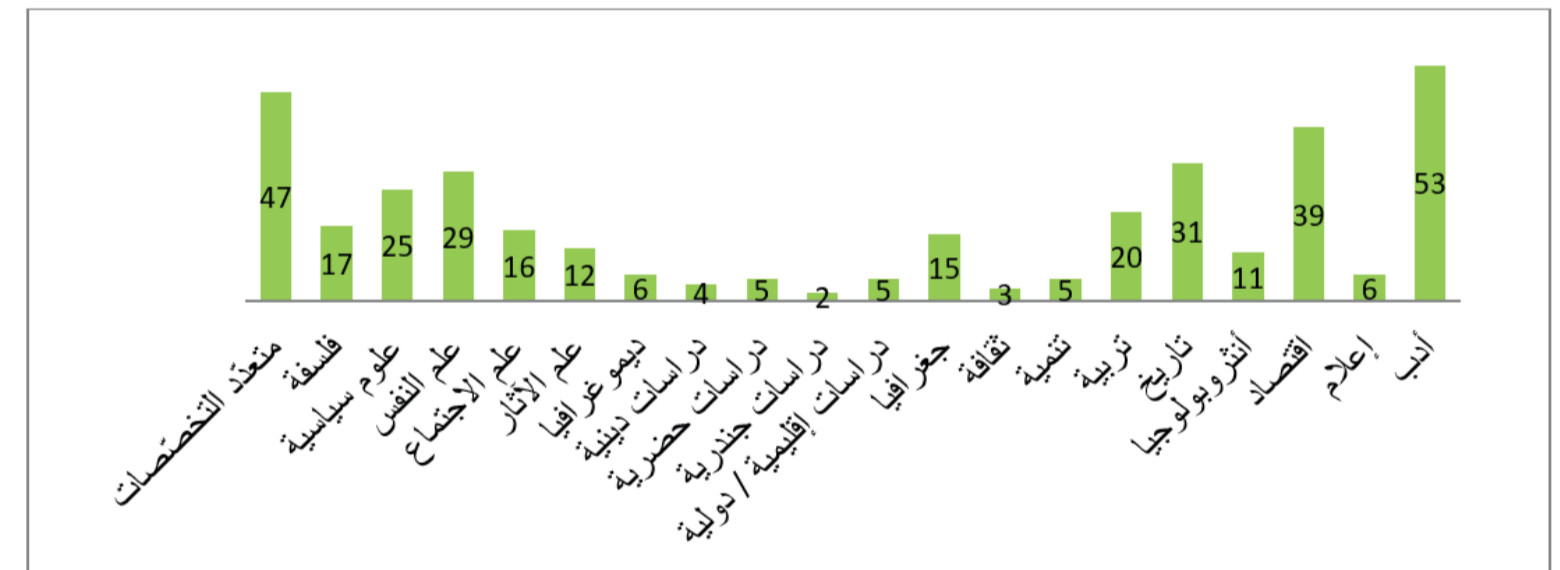
كما هي الحال في أي نظام إنتاج، يُنظّم إنتاج المعرفة بحسب التراتبيات وأوجه التفاوت. وتكون هذه الأخيرة عالمية ووطنية على حد سواء؛ من هنا، فإنّ بعض المؤسسات والأفراد أكثر حظوةً من غيرهم لجهة القدرة على النفاذ إلى الموارد ونشر النتائج والقدرة على التأثير على مسار التغيير. لذا، تدعو الحاجة إلى تحديد أولوية تتمثل في تغيير هذه التراتبيات وإعداد بيئة مؤاتية لإرساء نظام قائم على الجدارة يعمل على تمكين الباحثين/ات النشيطين/ات والمبتكرين/ات في عملهم/نّ. بالإضافة إلى ذلك، يتعيّن إقامة شركات جديدة تتيح إنتاج البحوث ذات الجودة ونشرها وتكون قائمة على الاحترام المتبادل والحوار. ويشتمل ذلك على عقد شركات بين مختلف الجامعات ومؤسسات إنتاج المعرفة وكذلك بين هذه الأخيرة والمؤسسات المعنية بالسياسات والمجتمع المدني.



الشكل 9. عدد دوريات العلوم الاجتماعية/الإنسانية في المنطقة العربية بحسب الحقل (قاعدة بيانات المرصد العربي للعلوم الاجتماعية، 2021).

وتجدر الإشارة إلى أنه كما هي الحال مع نشر الكتب، فإنّ توزيع الدوريات غير موثوق به للغاية في المنطقة العربية، ومعظم المجلات ليس لها حضور إلكتروني. لذا، قد لا يكون تأثير هذه المنشورات على تداول المعرفة والتدريس والنقاش العلمي والمناقشات بالأهمية نفسها التي توحى بها البيانات. في المقابل تكتسب المجلات الإلكترونية والمدونات والمواقع الإلكترونية التي تصل إلى جمهور أوسع أهمية كبرى، خاصة منذ العام ٢٠١٠ تقريباً.

في ما يخصّ الجمعيات، يظهر أنّ الأدب هو الحقل الذي يحتضن أكبر نسبة من الجمعيات المهنية في العلوم الاجتماعية والإنسانية في المنطقة العربية (١٦ في المئة)، ومجال متعدد التخصصات (١٥ في المئة)، يليه الاقتصاد (١٢ في المئة)، والتاريخ وعلم النفس (٩ في المئة لكل منهما)، والعلوم السياسية (٨ في المئة) (انظري الشكل ١٠). تضمّ مصر أكبر عدد من جمعيات العلوم الاجتماعية والإنسانية، تليها المغرب والعراق والأردن وتونس. هذه البلدان الخمسة تمثل ٥٠ في المئة من مجمل الجمعيات المهنية في العلوم الاجتماعية والإنسانية في المنطقة (انظري الشكل ١١).



الشكل 10. عدد الجمعيات المهنية في مجال العلوم الاجتماعية/الإنسانية في المنطقة العربية بحسب الحقل (قاعدة بيانات المرصد العربي للعلوم الاجتماعية، 2021).

جمعيات عديدة، رغم وجودها رسمياً، تُحتضّر. ونادراً ما تجمع أعضائها في المؤتمرات، ويرجع ذلك في الغالب إلى نقص الموارد. بالإضافة إلى ذلك، هناك عدد قليل جداً من الجمعيات الإقليمية أو حتى الإقليمية الفرعية، وبالتالي نادراً ما تجمع الناس معاً عبر البلدان (انظري الشكل ١٢).

## المشهد التاريخي الحضري في القدس - زخم تراث وتنوع حضارة

شادية طوقان

### مقدمة

تسعى هذه الورقة إلى عرض وتحليل لنشأة المدينة في التاريخ اعتماداً على تعريفات المدينة وشرح محتوياتها ومقوماتها والتي تؤدي إلى تشخيص وتحليل المدينة وكيفية تطورها وأسباب ديمومتها على مدى التاريخ، وتتطرق للتوجهات الحديثة للمؤسسات الدولية والإقليمية لكيفية التعامل مع المراكز التاريخية بشكل أكثر واقعية وشمولية مما كان سابقاً، والإقرار بأهمية دورها كمحرك للاقتصاد والتنمية. وتلخص التوصيات التي صدرت من الدوائر المختصة في منظمة اليونسكو (والتي تم اعتمادها في عام ٢٠١١) للنظر إلى المدن التاريخية، والتعامل معها، بصفتها «مشهد للتراث الحضري» بعناصره المختلفة الأكثر شمولية وإلى دوره في التنمية المجتمعية والاقتصادية، وانعكاس هذا التوجه على التخطيط والإحياء في المدن التاريخية في المنطقة بشكل عام وفي فلسطين بشكل خاص.

تقدم الورقة البلدة القديمة في القدس كنموذج مثالي للمدينة التاريخية بتنوع وزخم تراثها وحيويتها ومكانتها ومساهمتها الاقتصادية والاجتماعية في حياة سكانها، بدءاً بالتطور التاريخي في البلدة القديمة في القدس ومكانتها على مدى العصور كمدينة حية، وأهميتها الدينية والثقافية، ودورها الاقتصادي والاجتماعي في حياة الأجيال التي تعاقبت عليها، وتوصي بضرورة التزام المهنيين المعنيين باتخاذ الخطوات اللازمة للحفاظ على تراثها العمراني المميز حسب المعايير الدولية للصون والحفاظ والتخطيط، ولإحيائها بناء على التوجهات الجديدة لليونسكو كمشهد تراث حضري بحيث تسلط الضوء على تكامل عناصر تراثها المادي وغير المادي ودورها التنموي المستمر في حياة أهلها.

### تشخيص وتحليل ماهية المدينة التاريخية

عند محاولة فهم وتحليل المدينة وكيف تعمل وما يكونها وما يبقها حية، من المفيد بداية، استرجاع نص من محاولة المؤرخ المعروف لويس ممفورد في كتابه «المدينة في التاريخ» لتعريف المدينة: «ماهي المدينة؟ كيف تكونت وما هي المهمة التي تسعى لتطويرها وما هي الوظائف التي تؤديها؟ وما هي المهمات التي تسعى لتحقيقها؟ قبل تحليل مكونات أي مدينة، من الضروري فهم دورها من خلال الوعاء الذي يحتوي مكوناتها ووظائفها.» ويضيف أن «على المدينة أن تجذب الناس والمؤسسات بالوظائف التي توفر لها الحياة لكي يحتويها ذلك الوعاء» (Lewis Mumford, City in History 1961).

د. شادية طوقان هي الخبير الدولي في الحفاظ على التراث العمراني وإحياء المدن والمواقع التاريخية.  
للمراسلة - البريد الإلكتروني: shadiatq@gmail.com

حقوق النشر ٢٠٢٣، جميع البيانات الواردة في هذا المقال محمية ويجب أخذ إذن الاستخدام عن طريق جامعة القدس، (www.alquds.edu).

٢- بلورة النظريات من الشارع - روابط معرفية جديدة:

تعدّ الحركات الاجتماعية جزءاً لا يتجزأ من تاريخ المجتمعات الحديث، وقد أظهر العقد المنصرم أنّ المنطقة العربية ليست استثناءً في هذا المجال. ويجب إقامة روابط معرفية جديدة بحيث يتعلّم الباحثون/ات من الناشطين/ات والعكس صحيح وذلك بغية فهم محرّكات التعبئة الاجتماعية والحركات الاحتجاجية.

٣- تعزيز دور علماء الشتات - تداولات وتعاونات جديدة:

تحتاج المنطقة العربية إلى التعويل على جميع المواهب المتاحة، ويشمل ذلك آلاف علماء العلوم الاجتماعية والباحثين/ات المقيمين/ات خارج المنطقة. وفي عصر التداول العالمي، يجب النظر في إمكانية توفير الظروف المؤاتية لتبادل المعارف والتعاون العابر للحدود.

٤- رسم ملامح جيل جديد من العلماء - سلسلة متكاملة من الدعم والتدريب:

من الأهمية بمكان ما الاستثمار في إعداد جيل جديد من الباحثين/ات الحاصلين/ات على التدريب الجيد والقادرين/ات على سبر أغوار اتجاهات جديدة وآفاق جديدة. يفترض ذلك التركيز على إنتاج المعرفة وإعادة إنتاجها من خلال التعليم والتدريب والإرشاد.

في الخلاصة، إنّ تقييم إنتاجية الباحثين/ات وجودة البحث على أساس عدد المنشورات في المجلات المهرسة (باللغة الإنجليزية بشكل أساسي) فقط، يزيد من عزلة الجامعة عن المجتمع ويقلص التعاون بين مختلف الفاعلين/ات في مجال المعرفة. لذا، تدعو الحاجة إلى إعادة التفكير في دور الجامعة كمؤسسة اجتماعية في تعزيز التفكير النقدي وبناء المعرفة، وفي المشاركة الاجتماعية في بناء المعرفة من أجل تعزيز التنمية الاقتصادية والتحوّل الاجتماعي. في هذا الإطار، يكتسي دور العلوم الاجتماعية والإنسانية أهمية خاصة لجهة تحديد أولويات البحث التي تنبثق من هواجس المجتمعات بشكل مباشر. ويفترض ذلك بالطبع إقامة حوار بين المجتمع والجامعة.

### قائمة المراجع

- قاعدة بيانات المرصد العربي للعلوم الاجتماعية (٢٠٢١). رابط قواعد بيانات المجلس: <https://dataverse.theacss.org/dataverse/root>
- بامية، محمّد (٢٠١٥). *العلوم الاجتماعيّة في العالم العربي: أشكال الحضور. التقرير الأول للمرصد العربي للعلوم الاجتماعيّة*. إصدار المجلس العربي للعلوم الاجتماعيّة. رابط التقرير: <http://www.theacss.org/pages/arab-social-science-report-2015>
- حمودي، عبدالله (٢٠١٨). *العلوم الاجتماعية في العالم العربي: مقارنة الإنتاجات الصادرة باللّغة العربيّة* (٢٠١٦-٢٠١٧). التقرير الثاني للمرصد العربي للعلوم الاجتماعيّة. إصدار المجلس العربي للعلوم الاجتماعيّة. رابط التقرير: <http://www.theacss.org/pages/arab-social-science-report-2017>



نشأت المدن أساسا لتوفير الحماية والأمان واحتياجات الحياة للحكّام والمواطنين على حد سواء وذلك بإنشاء المساكن ودور العبادة ومناطق للخدمات الاقتصادية والاجتماعيّة وما يتبعها من مبان. وبمراجعة التركيبة الأصليّة للمدينة العربيّة والاسلاميّة وتخطيطها ومكوّناتها وتطوّرها على مدى العصور نجد أن أغلبها ما زال يحتفظ بنفس المكونات والتركيب والخصائص التي كانت تشكّلها منذ البداية. في حين أن المدن نمت وتطورت بشكل عضوي متدرج. وعلى الرغم مما مر عليها من الحروب والصراعات والكوارث الطبيعية على مدى العصور إلا أن تركيبة المدينة ومكوناتها وملامح تخطيطها بقيت على ما هي إلى درجة كبيرة. ويتجلى ذلك بما خلّفته من التراث الحضري الذي انتقل إلى الأجيال المتتالية كما نجد في العديد من المدن في الوطن العربي مثل المغرب العربي ومصر وبلاد الشام وكذلك في مدن العالم الإسلامي من إيران وتركيا ووسط آسيا. ولا زال هناك تشابها في خصائص ومكونات المدن «التاريخية» في القدس و نابلس ودمشق وحلب وفاس وتونس والقاهرة وصنعاء، وفي مدن مثل أصفهان وإسطنبول وبخارى وسمرقند.

تفاضلت المدن القديمة لما قدمته من إرث عمراني يتصف بتكامل وشمولية ووظائفية يظهر في الانسجام والتمازج الاجتماعي على مدى الحضارات المتعاقبة عليها، قلما نراه في مدن اليوم، والذي ربما قد جاء نتيجة محدودية المساحة المتوفرة. فعند النظر إلى معالم المناطق السكنية في المدينة القديمة نجدها تتميز بمزيج «طبقي» إذ سُيّدت فيها المساكن من قصور ومنازل وأحواش لتوفر احتياجات الطبقات المجتمعيّة المختلفة، يتجاوز فيها مساكن الحكّام والقيادات الدينيّة والسياسيّة مع المساكن التي يقطنها المواطنین بصرف النظر عن القوة أو الثروة أو الوضع الاجتماعي. كما شكل نسيجها العمراني بيئة حضرية متجانسة من مبان ومنشآت وصروح مختلفة الأحجام والأشكال والطرز المعماريّة والجماليّة.

شكّلت تلك التركيبة الأساسيّة، النواة المتكاملة للمدينة والتي استمرت خلال الحقب الزمنية المتلاحقة في حين امتدت وتوسعت لتلبي الاحتياجات المتغيّرة للسكان وحكّامهم ولتواكب التطورات المستجدة. ترّبّ على ذلك تحول في استخدامات المباني مع تبدّل العادات والتقاليد ومتطلّبات الحياة وتطورها بما فيها اختلاف الأوضاع السياسيّة والاقتصاديّة. كما استلزم القيام بتطويع وتجديد جزئي لعدد من المبان والصروح العمرانيّة لتلبي وظائف واحتياجات جديدة أكثر ملاءمة لما يستجد خلال التطور الطبيعي للمدينة. وعلى صعيد التطويع الوظيفي للمباني فقد كان يتم باستخدام الوسائل التقليديّة والمواد المحليّة وتقنيات التنفيذ ذاتها التي اتّبعّت في الأبنية الأصليّة. لذلك لم يكن هناك تخوّف من إحداث أضرار بهيكل المبنى أو زخارفه أو أصالة طرازه المعماري وقد ساعد اتّباع ذلك على الاحتفاظ بالشكل الأصلي للمبنى وحماية الخصائص المعماريّة والتراثيّة للنسيج العمراني واطهارها بالشكل المناسب مما ساهم في صون المدن كوعاء خاص للبناء وللصروح العمرانيّة ووظائفها. وقد ساهمت هذه الديناميّة في التعامل معها كمدن حيّة ومواقع حضريّة لتوفير التنمية المستدامة لها.

تزامن مع التغيرات المادية والوظيفية للمباني والتوسع العمراني حول المدينة التاريخية؛ تغيير التركيبة الاجتماعيّة والديموغرافيّة للسكان إذ انتقل العديد من العائلات والأفراد للعيش في المدينة الحديثة، في حين انتقل إليها سكان جدد من خلفيات اجتماعيّة وقدرات ماديّة مختلفة لا تمكنهم من العناية بمساكنهم والحفاظ عليها. صاحب ذلك إهمال وعدم التزام من الجهات الرسميّة بالعناية بالنسيج العمراني التاريخي لهذه المدن وتطوير خدماتها وتأهيل مساكنها وبنيتها التحتيّة تماشيا مع التغيرات والمتطلبات العصريّة.

نرى اليوم أن هذه المدن وغيرها من المراكز التاريخية تقاوم بما يسمّى «العصرنة» لحماية موروثها الثقافي وللحفاظ على مركزيتها ولحماية نسيجها العمراني التراثي والإنساني المميّز، وفي ذات الوقت تستمر بتوفير ما وفرته منذ نشأتها من مأوى وخدمات اجتماعية وثقافية واقتصادية. وتسعى لتحسين خدماتها وبنيتها التحتية لسكانها ومؤسساتها لتواكب التطور من حولها كما نجد أن التزام وتمسك المواطنين في داخلها وخارجها بمدينتهم واعتزازهم بما يمثل هويتهم وجذورهم يبقى قويا ويستمر التواصل بين فئات المجتمع المختلفة اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا من داخل البلدات القديمة وخارجها بين المركز التاريخي للمدينة وبقية أجزاء المدينة الحديثة كما نرى جليا في المدن الفلسطينيّة كالقدس ونابلس والخليل وبيت لحم ومثيلاتها من المدن التاريخيّة في الوطن العربي والإسلامي.

### التخطيط الحضري بين الإحياء والتنمية في المدن التاريخيّة

أصبح التوجه مؤخّرا لدى المنظمات الدوليّة الإقليميّة والجهات المانحة وبعض الأجهزة الرسميّة الوطنيّة عند إعداد الخطط التطويريّة للمدن الحديثة التي تقع فيها مراكز ومدن تاريخية، إيلاء الاهتمام لتوفير خطط لتنميتها كغيرها من أجزاء المدينة الحديثة، مع أخذ الاعتبارات الخاصة للحفاظ على تراثها التاريخي حسب المعايير الدوليّة للتراث، بحيث تشمل الخطط إحياء مناطقها السكنيّة وترميم مبانيها وصروحها العمرانيّة وتأهيل وتحديث بنيتها التحتيّة. يؤدي تطویر المراكز التاريخيّة إلى قيامها بدورها في التنمية الوطنيّة والمساهمة في دفع العجلة الاقتصاديّة والتطوير الاجتماعي والثقافي، ولتصبح الوعاء الخاص للصروح العمرانيّة والأثريّة المطلوب الحفاظ عليها، إضافة إلى توفير التنمية المستدامة لها ولوظائفها المختلفة كونها مُدنا حيّة ومواقع حضريّة.

نتج عن هذا التوجه، الذي بدأ في تسعينيات القرن الماضي، تدخلات متكاملة وشموليّة لمدن تاريخيّة كبرى في الوطن العربي كان من أهمها تطوير وإحياء مدينة حلب من قبل منظمة التنميّة الألمانيّة GTZ وممّولين عرب، ودعم مدينة فاس في المغرب ومدينة تونس التاريخيتين من قبل منظمات مانحة دوليّة وإقليميّة، ومدن أخرى في المغرب العربي، وكذلك مبادرة اليونيسكو لإنقاذ وإحياء مدينة صنعاء القديمة، وقد اعتمد نجاح هذه التدخلات على مشاركة ودعم الحكومات الوطنيّة. وفي عام ١٩٩٤ قامت مؤسسة التعاون بمبادرة إنشاء برنامج شامل لإحياء وإعمار البلدة القديمة في القدس بدعم من الصندوق العربي للإنماء الاجتماعي والاقتصادي وغيره من الجهات المانحة العربيّة والدوليّة. حرصت التدخلات في هذه المدن التاريخية على التخطيط لها بشكل تنموي تكاملي، يتضمن الحفاظ على نسيجها العمراني التاريخي، ويسعى لتحسين الظروف المعيشيّة للسكان من خلال تطوير القطاع الاقتصادي والاجتماعي واعتبارها جزءا من المدينة الأحدث. أدّى نجاح هذا التوجه إلى بدء تغيير النظرة العامة لأهمية تطویر المدن التاريخيّة والحفاظ على تراثها. وللتوصل لديمومة الخطط التنمويّة اعتمدت هذه الخطط على آفاق تلك المدن وإمكانياتها على المدى الطويل واحتمالات تطويرها كمحرك للاقتصاد الوطني يشمل كل مكوناتها ومصادرها الثقافيّة والسياديّة واحتياجاتها الاقتصاديّة والمجتمعيّة للوصول إلى توجه شمولي ديناميكي مرن يسعى لإعداد سياسة وخطة تنمويّة بهدف إحياء المركز الحضري التاريخي، قبل شملها ودمجها في الخطط التنمويّة الوطنية كجزء من خطة التطوير المتكاملة للمدينة ولتصبح البوصلة التي ترشد المهنيين في إنجازها.

التراث الحضري التاريخي هو المنطقة الحضرية التي يعتبر أنها وجدت نتيجة تراكم طبقات تاريخية من القيم والسمات الثقافية والطبيعية التي تتجاوز مفهوم المركز التاريخي أو المجموعة التاريخية فتشمل البيئة الحضرية العامة ومحيطها الجغرافي (بند ٨ من توصيات اليونيسكو عن المشهد الحضري التاريخي - Recommendations on Historic Urban Landscape (HUL) 2011).

بادرت منظمة اليونيسكو وهيئاتها الاستشاريّة وعدد من المنظمات الدوليّة المعنيّة بالثقافة والتراث الثقافي بكل أشكاله تزامناً مع مطلع الألفيّة الثانية إلى إعادة النظر في مقوّمات وخصائص المواقع الحضريّة التاريخيّة ودورها الاجتماعي والاقتصادي في حياة سكانها والمناطق المحيطة بها، إضافة إلى أهميّتها التراثيّة والتاريخيّة وضرورة التعامل معها بشكل أشمل، وتوسيع نطاق التدخل للاستفادة من دورها الاجتماعي والاقتصادي وتعزيز دورها التنموي.

لقد تم وضع تقييمات لخصائص وأوضاع المراكز التاريخيّة وتحديد التهديدات والمتغيرات من حولها، والمخاطر الداخليّة والخارجيّة التي يتعرض لها نسيجها العمراني وتراثها الحضري (المادي وغير المادي)، تمخض عن العديد من الدراسات والأبحاث والاجتماعات داخل الدوائر المختصة في منظمة اليونيسكو وخاصة مركز التراث العالمي وهيئاتها الاستشارية وخبرائها الدوليين وضع توصيات «للمشهد الحضري التاريخي» تم اعتمادها من المؤتمر العام لمنظمة اليونيسكو بتاريخ ١٠ نوفمبر ٢٠١١. وشملت التوصيات أيضا تعريفات وتوضيحات أخرى منها:

التراث الحضري بما فيه عناصر التراث الماديّة واللاماديّة يشكل مصدر رئيسي لتحسين المعيشة ويرعى التنميّة الاقتصاديّة والارتباط الاجتماعي في البيئة العالميّة المتغيّرة. وحيث أن مستقبل الإنسانيّة يعتمد على فعاليّة التخطيط والإدارة للمصادر وأصبح الحفاظ على التراث استراتيجيّة لتحقيق التوازن بين النمو الحضري ونوعيّة الحياة على أسس مستدامة (اليونيسكو ٢٠١١).

ساعدت تلك التوصيات في تطوير فهم البيئة التاريخية من خلال التعرف على العناصر المختلفة التي تُكون المدن التاريخية والتي تجعلها مشهدا حضاريًا تاريخيًا، وأشارت إلى أن «المشهد الحضري التاريخي هو المنطقة الحضريّة التي نشأت نتيجة قيم وميزات الطبقات الثقافيّة والطبيعيّة التي تمتد بأبعد من فكرة «المركز التاريخي»، أو المجموعة التاريخيّة ليشمل البيئة الحضريّة الموسّعة ومحيطها الجغرافي، كما يشمل الممارسات والقيم الاجتماعيّة والثقافيّة والعمليات الاقتصاديّة والأبعاد غير الماديّة للتراث في علاقتها بالتنوّع وبالهُويّة». لقد باتت هذه التوصيات الأساس لتقييم حالة المدن المسجّلة والمرشّحة للتسجيل على لائحة التراث العالمي.

### بلدة القدس القديمة ومشهدها الحضري

أدرجت البلدة القديمة في القدس وأسوارها على لائحة التراث العالمي لمنظمة اليونسكو منذ عام ١٩٨١ وعلى لائحة التراث العالمي المهدد بالخطر منذ عام ١٩٨٢، والتي تتضمن مواقع التراث الثقافي والطبيعي المميزة في العالم التي حظيت بهذا التسجيل. غير أن ما يميز القدس عن غيرها من المدن والمواقع التراثية المسجلة إقليميا ودوليا (وعدها حتى عام ٢٠٢٢، ١١٥٧، موقعا تشمل ما يزيد عن ٣٠٠ من المدن التاريخية) هو أهميتها البارزة لاتباع كافة الأديان السماوية وفي ثروتها النادرة من التراث الثقافي المعماري التاريخي الديني.

شكّل التراث الثقافي للبلدة القديمة في القدس عبر العديد من الحقب التاريخية إرثا حضاريا غنيا يزخر بالمباني التاريخيّة والصروح المعماريّة وأهم أماكن العبادة والأسواق التقليديّة والخانات والوكالات والمجمّعات السكنية والمساكن المنفردة ذات القباب والساحات التي تزيّن شوارع القدس العتيقة وحاتها مما منحها نسيجا معماريًا مميّزا يجسّد نموذجًا لتراث إنساني حيّ لا يضاهاى.

تناوبت على مدينة القدس منذ نشأتها حضارات متعدّدة نتيجة تطورات طبيعيّة أو غزوات عسكريّة تركت عليها بصماتها الثقافيّة والدينيّة والعلميّة وساهم موقعها الجغرافي المميز على مفترق طرق استراتيجيّة في المنطقة بأن تصبح همزة الوصل الجغرافيّة التي استغلها الغزاة بادّعاءات عقائديّة أو لأهداف استعماريّة للسيطرة عليها وعلى المناطق المحيطة بها. استمرت مدينة القدس في تأدية وظيفتها وتوفير الخدمات لسكانها، كما بقيت أسواقها التجاريّة التقليديّة والخانات والمناطق السكنيّة كما هي منتشرة على جوانب الشوارع الضيّقة والأزقة تقود السكان والزائر إلى أسواقها ومساجدها وكنائسها ودور العبادة فيها. رغم مرور عدة قرون وعقود، ورغم توالي الحروب والغزوات والكوارث الطبيعية التي تعاقبت عليها، إلّا أن القدس وأهلها نجحوا في نفخ غبار الغزاة والنزاعات والزلازل كما صمد نسيجها العمراني المتنوّع والفريد الذي صاغته طبقات من الطرز المعماريّة المختلفة، الذي حرصت على حمايته وصونه ليبقى شاهدا على تاريخها وخصوصيتها وحيويتها وعلى مقاومتها وصمودها في وجه كل من غزاها.

رافق التطور الاقتصادي والتوسع العمراني هجرة العديد من العائلات والسكان للإقامة في المدينة الحديثة، ووفد إليها في نفس الوقت سكان جدد من مدن أخرى للإقامة فيها. كما أدى التغيير السكاني والوظيفي للمباني داخل الأسوار لتغير التركيبة الاجتماعيّة والديموغرافيّة للسكان وإن بقي ارتباط السكان الأصليين بالبلدة القديمة من الناحية الاجتماعيّة والاقتصاديّة قويا، حيث احتفظت البلدة القديمة بمكوّناتها وعناصرها، واستمرت في تقديم الخدمات التي وجدت من أجلها لكافة السكان داخلها وخارجها. واستمر المقدسيون والفلسطينيون بالمشاركة في النشاطات الدينية والثقافية التي تميز «بلدتهم القديمة».

نظرا للأهميّة الوطنيّة والدوليّة التي تتمتع بها البلدة القديمة، ونتيجة للتهديدات التي تواجهها بسبب الأوضاع السياسيّة، قامت عدد من المؤسسات الأهلية والرسمية في القدس منذ مطلع التسعينات بالعديد من المشاريع لترميم المباني والمساكن التاريخية في البلدة القديمة لحماية تراثها العمراني وتحسين ظروف السكان ومساعدة المؤسسات العاملة فيها وتطويرها لتتمكن من الاستمرار في تقديم خدماتها الدينية والاجتماعية والثقافية للمقدسيين بشكل عام وسكان البلدة بشكل خاص. ومن البرامج المميزة كان مبادرة مؤسّسة التعاون في عام ١٩٩٤ بتأسيس برنامج خاص متعدد المكونات والأهداف لإعمار وإحياء البلدة القديمة في القدس للمساهمة في الحفاظ على الموروث الثقافي والعمراني للبلدة القديمة. اعتمد البرنامج على نظرة شموليّة تُرجمت بإعداد خطة تطوير وإحياء لكافة القطاعات فيها من خلال الأبحاث والدراسات لتقييم حالة واحتياجات نسيجها العمراني وأوضاعها الاجتماعيّة والاقتصاديّة.

يسعى البرنامج إلى تحسين الأوضاع المعيشيّة لسكانها من خلال تأهيل المساكن ودعم المؤسّسات التعليمية والثقافية والتدريب، وبناء الطاقات الفنيّة للشباب والعاملين في مجال الحفاظ وتوثيق مبانيها ومنشآتها التاريخيّة، واعتمد فريق البرنامج في تنفيذ عناصره المختلفة على الشراكة مع المؤسسات المحليّة مثل دائرة الأوقاف الإسلاميّة والأديرة والمنظمات الأهليّة المختلفة، وعدد من المؤسّسات الإقليميّة والدوليّة والمراكز الدوليّة المتخصّصة في مجال الحفاظ على التراث. حرص البرنامج أيضا على التواصل مع المجتمع المدني والتوعية المجتمعيّة مما يحقق التوازن بين متطلبات الحفاظ على التراث واحتياجات السكان لتحسين الظروف المعيشيّة والخدماتيّة لهم ولتوفير الاحتياجات التنمويّة للبلدة القديمة والمناطق المحيطة. ويهدف البرنامج من خلال مداخلته المختلفة إلى المساهمة بالتطوير الاقتصادي والاجتماعي للبلدة القديمة كمدينة حية تلعب دورا هاما في تطوير وتنمية القدس والحفاظ على إرثها الإنساني للأجيال القادمة.

### خاتمة

لإحداث تغيير إيجابي في حياة السكان يركز على حماية الموروث العمراني والإرث المادي وغير المادي، برزت الحاجة لتطبيق مخطط شامل، ومرن ومتعدد الأهداف والتوجهات. وكانت شمولية التخطيط أساساً لإحداث توازن بين تلبية احتياجات سكان البلدة وزوارها وحماية خصائصهم الثقافيّة وقيمهم وذاكرتهم الجماعية وبين توفير الصون والحفاظ لتراثها العمراني وعاداتها وتقاليدها وضمّان تطوير مؤسّساتها واقتصادها من أجل تمتيتها المستدامة.

منذ نشأتها كانت القدس ولا زالت واستمرت لآلاف السنين ورغم المصاعب مدينة حيّة غنية بأهلها وتراثها المعماري وزخارفها و«بأقصاها» و«قيامتها» ومساكنها وأسواقها. ومن باب العامود وخان الزيت إلى حاراتها ومتاجرها العديدة تعبق أسواقها برائحة التوابل وتناديك مقاهيها وتجذبك حلوياتها وكعكها المميز وأطباق وأكواب خزفها الفلسطيني المعروف على واجهات محلاتها.

في بلدة القدس القديمة يشترك الساكن والتاجر مع العامل والفنان والمهندس والمهني في صراع للبقاء ولحماية هويتهم وتراثهم، ولكن وإن بدت الصورة اليوم معتمة والطريق صعب وطويل إلا أنه في كل يوم يبزغ الفجر وينتشر الضوء ليمحو الظلام وتبقى جذور المقدسيين أعمق وأقوى مع قصص النجاح والصمود والإصرار التي تطالعنا كل صباح والوفاء المتبادل بينهم وبين أسوار بلدتهم القديمة (طوقان ٢٠٠٢).

القدس قديمة ومتجددة تحمل اسم بلدة قديمة أو مشهد حضاري، سمها ما شئت فهي كانت وتبقى، مركز حياة سكانها ومستخدميها من داخلها ومن حولها ومن أرجاء الوطن كعاصمته الأبدية.



- التعاون (٢٠١١). خطة إحياء البلدة القديمة في نابلس.
- التعاون (٢٠٢٠). خطة إحياء البلدة القديمة في القدس.
- طوفان، شادية (٢٠٠٢). القدس تراث وحياة: خطة إحياء البلدة القديمة. القدس: برنامج إعمار البلدة القديمة في القدس.

- G20 (2021). *G20 Final Declaration, Culture Unites the World*.
- Lynch, K. (1984). *The Good City Form*. USA and UK: The MIT press.
- Mumford, L. (1961). *The City in History: Its origins, Its Transformations, and its prospects*. USA: Harcourt, Brace and world
- UNESCO (2018). *Reshaping Cultural Policies*, (2005 Global Report).
- UNESCO (2011). *Recommendations on Historic Urban Landscape (HUL)*, (التوصية الخاصة بالمناظر الحضريّة التاريخيّة)
- Welfare Association (2003). *Jerusalem Revitalization Plan*, Jerusalem.
- World Bank Group (2019). *Urban Regeneration in Historic City Centres*.
- World Bank/ UNESCO (2018). *Culture Reconstruction and Recovery (CURE)*.

## سيرة الحياة كمنهج: من البحث السوسولوجي إلى التدخل الاجتماعي

ياسين البجدايني

### الملخص

تناولت هذه المقالة استعمالات سيرة الحياة، وقد تم الاقتصار على استعمالين: الأول هو البحث السوسولوجي، والثاني هو التدخل الاجتماعي. فإذا كانت سيرة الحياة أداة لا غنى عنها للبحث السوسولوجي الكيفي، التي تُمكن من جمع المعطيات التي تشكل أساس بناء فهم تأويلي للقضايا والوقائع والمشكلات الاجتماعية المطروحة، فإنها أضحت في الوقت المعاصر أداة للتدخل الاجتماعي، لأنها تمكن من إعادة بناء معنى الحياة لدى المستهدفين، ومساعدتهم على التصالح مع ذواتهم وتاريخهم الشخصي في أفق بناء رؤية جديدة حول الذات والتاريخ والوجود. وعليه يمكن التأكيد، أن سيرة الحياة ليست أداة ووسيلة للأكاديميا والإكلينيكية وحسب، وإنما آلية لتحقيق الاعتراف الاجتماعي بالإنسان، وأنسنته في ظل التحولات العالمية، ولدمقرطة الممارسات المهنية الموجهة للأشخاص في أوضاع صعبة.

**الكلمات المفتاحية:** سيرة الحياة، البحث السوسولوجي، التدخل الاجتماعي، الاعتراف.

## Life Story as a Method: From Sociological Research to Social Intervention

### Abstract:

This article discusses the uses of *life story*, focusing on two applications: the first is sociological research, and the second is social intervention. If *life story* is an indispensable tool for qualitative sociological research, which enables the collection of data that forms the basis for an interpretive understanding of the issues, events, and social problems raised, it has also emerged as a tool for social intervention in contemporary times, as it enables the reconstruction of the meaning of life for the target group and helps them reconcile with their personal history in a new perspective on self, history, and existence. Therefore, it can be confirmed that *life story* is not just a tool and means for the academic and clinic, but rather a mechanism for achieving social recognition of the human being and humanization of him/her in the context of global transformations and democratization of professional practices targeted to persons in difficult situations.

**Keywords:** Life story, Sociological Research, Social Intervention, Recognition.

ياسين البجدايني هو مرشح دكتوراه، مختبر استراتيجيات صناعة الثقافة والاتصال والبحث السوسولوجي، جامعة محمد الأول بوجدة، جهة الشرق، المملكة المغربية.

للمراسلة - البريد الإلكتروني [yassine.elboujadaini@ump.ac.ma](mailto:yassine.elboujadaini@ump.ac.ma)

حقوق النشر ٢٠٢٣، جميع البيانات الواردة في هذا المقال محمية ويجب أخذ إذن الاستخدام عن طريق جامعة القدس، ([www.alquds.edu](http://www.alquds.edu)).



ظهرت سيرة الحياة في ميدان البحث السوسولوجي والتدخل الاجتماعي كمنهجية قائمة بذاتها في نهاية القرن العشرين، وارتبط تصاعد الاهتمام بها واستعمالها في البحث وتقصي الحقائق الاجتماعية بسياق التحولات التي تعرفها العلوم الاجتماعية وبراغماتها من جهة، والتغيرات التي تعرفها المجتمعات المعاصرة الناتجة عن الانتقال إلى حقبة الحداثة وما بعدها من جهة أخرى، التي صارت تعرف ظواهر اجتماعية جديدة ترتبط أساساً بظهور فئات جديدة في وضعية هشاشة اجتماعية ونفسية، تصارع من أجل البقاء وإثبات الذات وإنتزاع الاعتراف بوجودها. فالتحولات التي عرفت المجتمعات المعاصرة كان لها بلا شك وقع كبير على حياة الأفراد ومعيشهم ونظرتهم إلى ذواتهم وروابطهم الاجتماعية، وإلى وجودهم الخاص ونظرتهم إلى الكون بالمعنى الفيبري بشكل عام. الشيء الذي فرض تطوير المناهج الكلاسيكية، الهوليستية تحديداً، من خلال النبش في ما هو ميكرو-سوسولوجي، وبالتالي بدل الانطلاق من البنس والأنساق الكبرى، فرض الواقع المتحول العكس من ذلك، الانطلاق من الذوات نحو البنات.

تندرج سيرة الحياة موضوع هذا المقال في هذا الإطار، والتي تُستعمل اليوم في حقول معرفية متعددة (في الآداب، والتاريخ، وعلم النفس، والفلسفة، والسوسولوجيا...). فبالرغم من أنّها ظهرت في السوسولوجيا العامة كأداة لجمع المعطيات، وتشخيص مجموعة من المشكلات الاجتماعية، فإنها أضحت في الوقت المعاصر أداة للسوسولوجيا الإكلينيكية، الشيء الذي جعل منها منهجية قائمة بذاتها، لها تقنياتها وفعاليتها. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن تطور هذه الأداة في الحقل التدخلية كان بالتوازي مع تطور الفهم العلمي للمشكلات الاجتماعية، والتخلص التدريجي من التفكير الباثولوجي، والسعي نحو وضع أسس تفكير منهجي قائم على الفهم والتأويل والمشاركة الوجدانية، وليس البناء السياسي والأيدولوجي للمشكلات، بقصد شرعنة الممارسات التدخلية التي تتنكر لذاتية الإنسان وفعاليتها وتاريخانيته.

من بين الأسباب الرئيسية التي دفعتنا إلى الاهتمام بهذا الموضوع، نذكر افتقار المكتبات في السياق المغربي والعربي، إلى محاولات لتطوير التراث العلمي المنتج بخصوص هذا المنهج السيري، وتعميق النقاش بخصوص تقنياته على المستويين البحثي والتدخلية. ويمكن تفسير هذا التأخر بعاملين: الأول هو عدم تبلور السيرة الذاتية في الثقافة العربية القديمة «كجنس أدبي مستقل لغياب شرطها الأدبي والسوسولوجي، حيث كان الإنسان العربي المسلم يذوب في الجماعة والأمة، وفي المطلق أو المتعالي الديني، ومن ثم غاب مفهوم الذات الواعية المستقلة، كما ضعف الوعي بمركزية الإنسان الفرد، وبمفهوم الآخر في الجدل الاجتماعي والثقافي، وما برز بالمقابل هو السيرة الغيرية» (فوبار، ٢٠١٥، ص. ١٩٥)، هذا التأخر على المستوى الأدبي كقيل بأن ينبئنا بالتأخر في استخدام المنهج البيوغرافي على المستوى العلمي. والثاني هو الأشكال الجديدة للتبعية للدول الرأسمالية، يتعلق الأمر بالتبعية العلمية والفكرية. فالدراسات المنتجة بفرنسا تأخرت مقارنة مع البلدان الأخرى في الإعتماد على هذا المنهج وتقنياته، ولم يتم الوعي بأهميتها والانطلاق في تطبيقها إلا خلال السبعينيات من القرن العشرين (كيال، ٢٠١٥، ص. ١٧)، نظراً لسيطرة التوجهات الهوليستية في البحث الميداني، والبنوية في الممارسة النظرية، والتقليل من شأن الذاتية وفعالية الفاعلون الاجتماعيون وديناميات الحياة اليومية وتدفعاتها، وهو التأخر الذي انتقل إلى المغرب، الذي عرف انطلاقته في العلوم الإنسانية مع الاستعمار الذي جند مجموعة من المستكشفين والرحالة والباحثون بقصد بناء فهم كلي حول المجتمع المغربي، فهم يمكن الاستناد إليه في التدخل والضبط وتبرير الفعل الاستعماري، وهي التبعية التي تستمر في الوقت الراهن، بواسطة اللغة والنظرية والمنهج، وذلك بالنظر إلى وفرة الإنتاجات العلمية والكتابة من طرف شريحة واسعة من باحثينا باللغات الأجنبية (الفرنسية والإنجليزية والإسبانية تحديداً)، الشيء الذي يساهم في إعادة إنتاج هذه التبعية العلمية، التي انعكست وتنعكس في تأخر اهتمام الباحثون والفاعلون المهنيون ومؤسسات الاستقبال بسيرة الحياة وتقنياتها.

تأسيساً على هذه الاعتبارات والمفارقات، يمكن صياغة إشكالات هذه الورقة في الأسئلة التالية:

كيف يُمكن تحديد وتعريف سيرة الحياة؟ بأي طريقة يمكن التمييز بين استعمالاتها البحثية السوسولوجية من جهة والتدخلية من جهة أخرى؟ وما هي مزايا استخدامها في الممارسات التدخلية بالمجتمعات المعاصرة؟

## (أ) سيرة الحياة والتدخل الاجتماعي: محاولة في التحديد والتعريف

إذا كان هناك شبه إجماع بين الباحثين على أنّ سيرة الحياة هي منهجية لجمع المعطيات، فإنّ الاختلاف بينهم يظهر في طريقة استخدامها، أو بالأحرى في الكيفية التي يمكن العمل بها فكرياً ومنهجياً في مقارنة الحقل الميداني. وقد اختلفت التعاريف المقدمة لهذه الأداة علمياً وتدخلياً، وذلك بالنظر إلى اختلاف المرجعيات العلمية للباحثون ورهاناتهم من وراء استعمالها وتوظيفها في ممارساتهم، علمية كانت أو مهنية.

ففي ميدان المنهجية السوسولوجية والكيفية تحديداً، يتم اعتبار «سيرة الحياة» أداة لجمع المعطيات الميدانية، قصد تحليلها وتفسيرها في أفق بناء براديفمات علمية مفسرة للظواهر المدروسة. وفي هذا الإطار، يؤكد «دانييل بيرتو» Daniel Berteaux على أنّ سيرة الحياة هي شكل خاص للمقابلة، مقابلة سردية، يطلب من خلالها الباحث من مبحوثه سرد أجزاء من تجربته المعيشية (Berteaux, 2005, p. 10). وبهذا، فهو يعتبر سيرة الحياة بمثابة وسيلة لمعرفة الآخر، و هو التعريف الذي يعطيه كذلك كل من «دامازيير» Damazière و«دوبار» Dubar (١٩٩٦)، و«جلبرت» و«بينو» Jolibert et Pineau (١٩٨٩)، و«لوغند» Le Grand (١٩٩٣) وغيرهم و«دوبار» (Annejoyeau et al, 2010, p. 16).

إذا كان التعريف الذي تطرقنا إليه أعلاه دقيق نسبياً، فإنّ هناك تعريفات أخرى واسعة إلى حد ما، وهنا لا يسعنا إلاّ استحضار التعريف الذي قدمه «فريدريك واشو» Frédéric Wacheux الذي يعتبر سيرة الحياة بمثابة «استراتيجية لولوج الواقع». مُضيفاً إلى ذلك، أنها تحليل حكاية فاعل اجتماعي معين مع التركيز بالطبع على الأحداث التي عاشها خلال مسار حياته. مشيراً في هذا الصدد، إلى كون الفاعل يظل حراً في سرد الوقائع والتأويلات التي يعطيها، بعبارة أخرى إنّ الذاتية حاضرة بقوة، ولكن الأهم هو أنها معروفة و معلومة (Wacheux, 1996, p. 127). فبالإضافة إلى كون سيرة الحياة هي وسيلة لولوج الواقع، فإنها كذلك أداة لجمع المعطيات الميدانية كباقي التقنيات، غير أنّ ما يلح عليه «واشو» هو كون سيرة الحياة تختلف بشكل جذري عن المقابلة سواءً المفتوحة أو غير الموجهة (Annejoyeau et al, 2010, p.17).

في مقالها حول السيرة الحياتية، تعرفها الباحثة «مها كيال» بأنها تاريخ حياتي يحكي ذاكرة فرد أو جماعة اجتماعية محددة لها خصوصيتها الثقافية، يعرض هذا التاريخ بطريقة سردية، كما عاشه راويه. هذا الراوي يمتلك الحرية في تشكيل الحقائق التي عاشها وفي تفسيره لها، ويتم نقل هذه الذاكرة، من قبل الراوي نفسه (سيرة ذاتية- Auto-biographie) أو من قبل الباحث (سيرة حياتية biographie) (كيال، ٢٠١٥، ص. ١٥). وقد أكد الباحث «محمد فوبار» بأنّ السيرة هي وصف حياة الذات وسيروراتها في الزمن الاجتماعي (فوبار، ٢٠١٥، ص. ١٩٣). تأسيساً على ما سبق، يمكن اعتبارها مساراً حياتياً للذات الإنسانية، بما يشمل ذلك من منعطفات وتواريخ وأحداث وعلاقات وتفاعلات اجتماعية، وذلك المجموع من الخطابات المبنية حول التجارب المعيشة والأفعال الاجتماعية التي صدرت عن الفاعل، والتي أضفى عليها معاني اجتماعية بالاستناد إلى رؤيته للعالم ومخيلته الاجتماعي والثقافي.

فبالرغم من أن بعض السوسولوجيين والأنثروبولوجيين قد اتخذوا منها موقفاً سلبياً وانتقدوها، من منطلق أنها لن تمكن من صياغة قوانين علمية، ومن لوج الواقع الاجتماعي المبني، إلا أنّ بعضهم تراجعوا على ذلك فيما بعد، وهنا يمكن أن نستحضر «بيير بورديو» Pierre Bourdieu و«كلود ليفي ستراوس» Claude Lévi-Strauss كنماذج، حيث انتقدوا سيرة الحياة، وشككوا في صلاحيتها في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية. في مقاله الموسوم ب «الوهم البيوغرافي» أكد «بيير بورديو» أن سيرة الحياة هي إحدى مفاهيم الحس المشترك، التي اقتحمت حقل المعرفة العلمية: من خلال علماء الإثنولوجيا، وكان ذلك بدون ضجة، ومن خلال علماء الاجتماع في الوقت المعاصر وكان ذلك بصخب كبير (Bourdieu, 1986). أمّا «كلود ليفي ستراوس»، فبالرغم من أنه يعترف بأهمية سيرة الحياة على المستوى المنهجي والتحليلي، وعلى الرغم من كتابته لسيرة رحلاته إلى البرازيل الأوسط المعونة ب«المدارات الحزينة tristes tropiques»، إلا أنه اعتبر مسألة اللجوء إلى هذا المنهج بشكل منتظم لا يسمح بالوصول إلى البنس التي تهم المفكر والمنظر، فالمعيش le vécu بالنسبة إليه لا يعتبر البتة بمثابة مادة علمية (Gonseth & Maillard, 1987).

إذا كانت سيرة الحياة في ميدان المنهجية السوسولوجية مختلفة عن المقابلة، وباقي التقنيات الاخرى، ويشار إليها بمفاهيم متعددة ك«حكاية الحياة» و«المقاربة البيوجرافية» و«تاريخ الحياة» و«سيرة الممارسة» و«السيرة الذاتية» فإن الأمر نفسه ينطبق على سيرة الحياة في ميدان التدخل الاجتماعي، حيث يشار إليها من خلال مفهوم «الرواية العائلية Roman Familial» و«مسار حياة trajectoire de vie» و«المقاربة البيوجرافية L'approche Biographique» و«التدخل السردي L'intervention narrative» كلها مفاهيم تحمل نفس المعنى، ولها نفس الهدف من داخل السوسولوجيا الإكلينيكية، ألا وهو: التمكن من إعادة بناء معنى الحياة، فضلاً عن التمكن من ولوج الواقع كعملية تدييث subjectivation (Francequin, 2008, pp. 159-160).

إنّ التدخل عن طريق سيرة الحياة هو بمثابة منهجية ظهرت خلال نهاية القرن العشرين نظراً لأزمة السير الكبرى (Lyotard, 1979)، ف«فينسنت دو كولجاك» Vincennt de Gaulejac عرف التدخل عن طريق سيرة الحياة بأنه ممارسة تعتمد سيرة الحياة قصد التأثير على الأشخاص والجماعات أو المجتمعات في أمق تغييرها (Gaulejac, 2008, p.14). كما أنه وسيلة لتعزيز وتقوية الرابطة الاجتماعية الهشة في مجتمعات ما بعد الحداثة. فسيرة الحياة كأداة للتدخل تقود إلى الاعتراف بالذات من خلال الذات والغير، وهي لا تستطيع تغيير التاريخ الحياتي للشخص (لأن هذه المسألة مستحيلة)، وإنما تسعى إلى تغيير علاقة الشخص بالتاريخ (Gaulejac, 2008).

تأسيساً على هذه المعطيات، يمكن تعريف سيرة الحياة بوصفها أداة تدخلية، ووسيلة لإعادة الاعتبار للذات والاعتراف بها وتغيير تمثلاتها حول نفسها وتاريخها، إلى جانب جعلها منفتحة على وجودها وعلاقة هذا الأخير مع وجود الآخرين (Lefebvre, 2008). وهذا معناه، أن سيرة الحياة هي أداة تؤهل الفرد لمعرفة طبيعة وجوده داخل الوجود العام، وهذا يبين مدى تأثير الفلسفة الوجودية على رواد هذا التيار المتبني للسير الحياتية كأسلوب للتدخل، تلك الفلسفة التي تعتبر بأن الوجود يسبق الماهية بتعابير «جون بول سارتر»، وليس الوعي هو الذي يحدد الوجود، كما راهنت على ذلك الفلسفة الديكارتية.

بالعودة إلى «دو كولجاك» في هذا السياق، يظهر بأنّ سيرة الحياة تختلف بشكل جذري عن التنمية الذاتية le développement personnel والعلاج thérapie. فإذا كانت هاتين المقاربتين الأخيرتين تركزان على العمل مع الشخص وصراعاته ومعاناته الحالية وإمكاناته أو بالأحرى إيلاء اهتمام خاص لكل ما يتعلق بالهنا والآن، فإنّ سيرة الحياة تسعى إلى اكتشاف تاريخ الحياة وسير الوجود، فهي تبعد الذات ما أمكن مع التركيز على مسارها، والأحداث الماضية القديمة المستمرة في الحاضر (أي البقايا الماضية)، والتي يتوقع أن تستمر في المستقبل. ونعتقد بأن السبب في مختلف هذه التركيزات، هو الانطلاق من كون الإنسان، هو نتيجة للتاريخ الشخصي الذاتي، وهو التاريخ الذي لا ينفصل عن علاقات الإنسان بالآخرين، وعن رؤيته للوجود وللعالَم الذي يعيش فيه.

في نفس هذا السياق يؤكد «أليكس لينيني» Alex Lainé على أنّ سيرة الحياة تختلف عن ما يسمى بتاريخ الحياة histoire de vie، ويتجلى هذا الاختلاف في كون سيرة الحياة هي لحظة في سيرورة إنتاج تاريخ الحياة، معرماً إياها بكونها تعبير مكتوب أو شفوي على الحياة السابقة للراوي (1988, p. 112).

انطلاقاً مما تم التطرق إليه، يمكن القول أنّ سيرة الحياة في إطار حقل «المنهجية السوسولوجية» تعتبر أداة لجمع المعطيات حول الظواهر والمشكلات الاجتماعية وأفعال الفاعلين والمعاني الرمزية التي يصفونها عليها، وهي ديناميكية وفي تطور وتقدم مستمرين. أمّا في حقل السوسولوجيا الإكلينيكية والتدخل الاجتماعي تحديداً، فهي أداة ناجعة للتدخل والعلاج، وقد استعملها مجموعة من الباحثين المرموقين في حقل السوسولوجيا الإكلينية ونخص بالذكر «دوكولجاك»، «رولاند لوفيفير» Roland Lefebvre الذي استخدمها عن طريق الورشات، وأسس أداة من داخل هذه المنهجية سماها ب«ورشة سيرة الحياة» مجرباً إياها مع المدمنين على الكحول، ومثبتاً فعاليتها ونجاحتها وتفوقها على المقاربات العلمية الطبية الاخرى (Lefebvre, 2008)، كما استعملها «لوسي ميرسيي» Lucie Mercier مع الأشخاص المسنين مؤكداً كغيره على فعاليتها (Mercier, 2008). فسيرة الحياة في حقل التدخل الاجتماعي مازالت فتية، و لكنها تعرف تطورات ملفتة للنظر، مما جعل من تقنياتها متعددة (الكتابة، الورشة ...).

## 2) التدخل الاجتماعي عن طريق سيرة الحياة:

نقصد بالتدخل الاجتماعي، مجموعة من الممارسات الإكلينيكية الهادفة إلى تأهيل وإعادة إدماج الفئات الاجتماعية المنحرفة على المعايير الاجتماعية، أو التي تعيش على هامش المجتمع نظراً لأوضاعها الاجتماعية أو للتمثلات السائدة عليها التي تكرر الدونية وتوجه ممارسات الميز والوصم والتهميش والإقصاء. ويشكل في الوقت الراهن حقلاً واسعاً في العلوم الاجتماعية بشكل عام، والسوسولوجيا بشكل خاص، وقد تعددت مقارباته وتقنياته تاريخياً، تبعاً للتحوّلات التي يعرفها العلم والمجتمع. وتشكل سيرة الحياة من أهم أدواته التي ارتبط ظهورها بأزمة السير الكبرى (Lyotard, 1979)، والتي لم تنال حقها الكافي من المدايرة العلمية والتطبيقات العملية العلاجية.

ظهرت سيرة الحياة في حقل السوسولوجيا التدخلية بوصفها أداة، لكنها سرعان ما أصبحت منهجية قائمة بذاتها، ولها مجموعة من التقنيات أبرزها (ورشات الكتابة Tables d'écriture، وورشات سيرة الحياة Les ateliers de récit de vie، ...) فمن خلال هذه التقنيات يتم فهم التاريخ الحياتي للشخص، وهو ما يستدعي بالضرورة حسب «دو كولجاك» فهم المعنى الذي يعطيه الفاعل لتاريخه، قائلاً في هذا السياق: «إن التاريخ ليس له أي معنى، إلا المعنى الذي يعطيه هو لتاريخه»، ذلك أنّ المعنى الذي يعطيه الفرد لتاريخه مخالف تماماً لما يعطيه المتدخل لتاريخه ولوجوده بشكل عام. فإذا كانت الذات عاجزة على تغيير ماضيها، فإن هذا لا يمنع من تعديل وتوجيه مستقبلها، فالإنسان بطبيعته يحب سرد التواريخ، خاصة عندما يكون التاريخ الذي يحكيه يدور حول نفسه (de Gaulejac, 2008).

يمكن أن يعترض البعض على سيرة الحياة، مبرراً اعتراضه ذلك بأنّ الراوي قد لا يسرد للباحث حقيقته الخاصة سواءً بوعي منه أو بدون وعي منه، بمعنى أن سيرة الحياة يمكن أن تكون صحيحة ويمكن أن تكون بعيدة عن الحقيقة المعاشة، وبالتالي السقوط في ما يسميه «بيير بورديو» بالوهم البيوجرافي (Bourdieu, 1986) وهذا هو فخ سيرة الحياة. وفي هذا الإطار يؤكد «فيليب لوجون» Philippe Le Jeune، على أساس أن الراوي ليس هو الذي يقدم حقيقة نفسه، وإنما الذي يقول ما قاله (1998, p. 313)، بمعنى آخر إن المتدخل عن طريق سيرة الحياة ينبغي أن تكون له كفاءة ليكشف من خلالها مدى صحة ما يقوله الراوي، وذلك عن طريق التركيز على الأحداث التي مر منها، وحركاته وملامح وجهه والقصص التي يحب أن يحكي عنها والجوانب التي يتهرب من التفصيل فيها وغيرها.

إن سيرة الحياة الفردية والمؤسسية والجماعية تمكن من إعادة بناء الماضي (جذور الحياة) والحاضر (اللحظة المعيشة والآنية) والمستقبل (مشروع الحياة) في نهج إكلينيكي محترم للذات (Francequin, 2008, pp. 159-160)، أو بعبارة أخرى أنه بفعل السير يخضع الفرد لما يسميه البعض بالعيادة التاريخية، وهذه العيادة هي التي تسمح بإعادة الماضي على ضوء الحاضر من أجل التخطيط للمستقبل (de Gaulejac, 2008, p. 316)، وهذه السيرورة التاريخية هي عنصر أساسي لإنتاج المعنى، لأن الذات هي في محاولة مستمرة لإعطاء معنى لما هي، وما تفعل، و تجربتها، وعلاقتها مع الآخرين (Barus-Michel, 2004, p. 17).

إنّ هذا الاحترام للذوات هو الذي يفرض التركيز على مسألة معنى الوجود، سواءً كان مكتوباً أو شفويّاً، وبهذا فهي بمثابة أداة لتغيير الشخص أو الجماعة أو مجتمع معين، وذلك في حدود سيرورة بناء المعنى التي تتأسس على أربعة ركائز أساسية وهي: العيادة la Clinique، والتاريخ l'Histoire، والمعيش le vécu، والانعكاسية La reflexivité (de Gaulejac, 2008, p. 314).

العيادة: هنا يتحدث «دو كولجاك» على سيرورة بالغة الأهمية تنطلق من إعداد خطاب لتنشيط الذكاء الاجتماعي، وهو ما لا يتأتى إلا من خلال تشخيص الذاتيات الفردية وتعبئتها التي تتم من خلال الإنصات المركز للأفراد/ الذوات، والأكثر من ذلك الإحساس بهم وبمشاعرهم، من أجل حمايتهم من المخاطر، وذلك في خدمة مشروع جماعي، والتأسيس لما يسمى بالذاتية الاجتماعية.



التاريخ: إن التاريخ يعيد التساؤل حول فهم استمرارية العناصر الماضية في الحاضر، و يقيم مسافة بينها وبين الهنا والآن، فالتاريخ الشخصي للذات الإنسانية، يتدخل في مختلف الطرق التي تعتمدها في التفكير والفعل والشعور والتفاعل. وعلى المتدخل أن يؤهل المُستفيد إلى الوعي بالكيفية التي يتدخل بها هذا التاريخ، في أفق حصر تدخلاته في الفعل والتفاعل الاجتماعيين في الحاضر، الذي سيشكل الماضي في المستقبل.

المعيش: قبل الحديث عن أهمية المعيش في التدخل الاجتماعي عن طريق سيرة الحياة، ينبغي أن نشير إلى أنّ المفكرين تجاهلوا لمدة طويلة المعيش اليومي للأفراد، لكن في الوقت المعاصر أصبحت مسألة معرفة التجربة الذاتية وسيلة لمعرفة الإنسانية وحقيقتها. فالمعيش يكشف البعد الوجودي للعلاقات العائلية والاجتماعية والمؤسسية، ولا يتم التركيز على الكيفية التي يعيش بها الفرد حياته وتمثلاته وحسب، وإنما يتم التركيز كذلك على مشاعره وأحاسيسه وإدراكاته. فانفتاح الفرد على معيشه يجعله يكشف الطريقة التي ساهم من خلالها في إنتاج تاريخه، ومع مرور الزمن يمكن له أن يراجع تأويلاته التي بناها خلال مرحلة معينة حول صراعاته والأساليب التي نهجها لمواجهتها.

الانعكاسية: هنا يظهر دور المتدخل الذي ينبغي أن تكون له نظرة شمولية حول مسار الحالة، وينبغي أن يكون قادراً على تأويل المسار الحياتي للأفراد، لكي يفهم مدى انعكاس الوقائع التي مر من خلالها الفرد على حياته.

من خلال تركيز المتدخل على هذه الجوانب الأربعة في تدخله يمكن أن يعيد بناء المعنى، لأن المعنى - هو في كل الحالات - بناء، والتمكن من إعادة بنائه هو الكفيل بتغيير الأفراد والمجتمعات موضوع سيرة الحياة ذات الطبيعة التدخلية الإكلينيكية.

### (3) التدخل عن طريق سيرة الحياة والأشخاص في وضعية هشاشة: المهاجرون كحالة ميدانية

تعرف المجتمعات المعاصرة أوضاع الهشاشة، باختلاف أوجهها وأبعادها ومؤشرات رصدها، إلا أن هناك مجموعة من التعبيرات حول الشعور بها. فالهشاشة في الوقت الحاضر صارت استراتيجية أكثر منها وضعاً ناتجاً عن عوامل وظروف معينة. وفي هذا الصدد أكد الفيلسوف والسوسيولوجي «بيير بورديو» أن الهشاشة ليست نتاج لقدرة اقتصادية أو للتحويلات التي نتجت عما يسمى بالعولمة، وإنما نتاجاً لإرادة سياسية وتمثل قرينة النظام الرأسمالي النيوليبرالي. فعالم الإنتاج سواءً المادي أو الثقافي يجد ذاته مدفوعاً نحو سيرورة للتفكير والهشاشة، بالشكل الذي يجعل من هذه الأخيرة مندرجة ضمن نمط هيمنة من نوع جديد مشيد على تأسيس حال معمرة ودائمة من اللأمن الموضوعي والذاتي سواء بالنسبة للذين تمسهم مباشرة كالعاطلين عن العمل، أو الذين تمسهم بشكل غير مباشر كالمدرسين والصحافيين والطلبة والمستخدمين والعمال الذين يتم إكراههم على الاستغلال المفرط وتقبله (الاستغلال المرن Flexploitation) (Bourdieu, 1998). ونرى أنه بالإضافة إلى كونها استراتيجية وبراغم للفهم (Pierret, 2013)، فإنها شعوراً ووضعية اجتماعية تفاعلية في نفس الوقت، فمن خلال هذا المفهوم لا يمكننا التعبير عن وضعية صعبة مفارقة وحسب، وإنما تجاوز مجموعة من التقسيمات بين الباحثون، خاصة بين الذي ينتصر للفعل والفاعل ومشاعره وتأويلاته، والذي ينتصر للوضع والنسق والظروف الموضوعية.

من خلال مجموعة من الأبحاث التي تم إجرائها أو المشاركة فيها على المستوى المغربي، توقفنا إلى أن الهشاشة تظهر بشكل واضح في الوضعية الاجتماعية للمهاجرين الأفارقة المنحدرين من دول إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى (البجدايني، ٢٠٢١؛ البجدايني، ٢٠١٩) الذين أصبحوا يعيشون أوضاع مفارقة، وذلك بالنظر إلى طبيعة مشاريعهم الهجرية التي تستهدف البلدان الأوروبية، والسياسات الهجرية الأوروبية التي انخرط فيها المغرب، واستراتيجياته في التوافق مع التزاماته الإقليمية والدولية التي تقتضي بلورة برامج وسياسات بقصد تسوية أوضاعهم الإدارية وإدماجهم، وفي سياقات اجتماعية غير مؤهلة لا اقتصادياً ولا ثقافياً لاستقبال المهاجرين بإثنيات مختلفة، بل في سياقات موسومة بهيمنة الثقافة الهجرية. وقد تم الوقوف في الأعمال البحثية المشار إليها إلى أهمية سيرة الحياة في الكشف عن المسارات الهجرية والرهانات الشخصية والأوضاع الاجتماعية والديناميات الهوياتية والتفاعلية، وبالاستتباع بدى أنه من الأهمية بمكان أخذ حكايا حيواتهم بعين الاعتبار في أي سياسة هجرية موجهة إليهم، أو إلى فئات مهاجرة أخرى، تتبنى على المستوى المرجعي المقاربة الإنسانية والحقوقية الكونية، بل إننا نعتبرها أساساً لا يمكن الاستغناء عنه في أي برنامج أو فعل يطمح إلى إدماجهم في المجتمع المغربي.

فمن خلال السرديات الفردية يمكن التوصل إلى بناء سيرة جماعية لجماعة معينة أو لحركة اجتماعية معينة، وهنا تتجلى أهمية تقنية سيرة الحياة، إذ تمكنا من الانتقال بسلاسة، وبطريقة منهجية، من الفردي نحو الجمعي، من الميكرو نحو الماكرو، وفي ذلك ليس انقلاباً على المناهج الكلاسيكية في العلوم الاجتماعية، وإنما تطويراً لها. فعلى المستوى الإفريقي على سبيل المثال، بدى من خلال سير المهاجرون الأفارقة بالمغرب، كيف أن الهجرة الدولية في المجتمعات الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى هي نتيجة علاقات التبعية التي ربطت بين هذه المجتمعات والدول الغربية الرأسمالية، وبأن هذه الأخيرة كانت فاعلاً رئيساً في خلق التحركات الهجرية في بنياتها الاجتماعية، واتخاذها لصيغ أكثر مخاطرة، ولاإنسانية. تتجلى تلك الفاعلية في الاستعمار المباشر، والهجرة العمالية، والسياسات الهجرية الانتقائية، والعلاقات الدولية اللامتكافئة القائمة على الاستغلال والتبعية الاقتصادية وتنمية التخلف بأبعاده المتعددة. الشيء الذي يحلنا على أنه يمكن بناء سيرة جماعية للمجتمعات الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى وتحركاتها الهجرية استناداً إلى السير الحياتية لفاعليها، أعضائها بالدرجة الأولى. تأسيساً على ذلك يمكن، بناء سياسات إنسانية واستراتيجيات تدخلية شاملة لتدبير الأوضاع الهجرية والجماعات المهاجرة سواءً في بلدان الأصل أو العبور أو الاستقبال قوامها سيرة الحياة كمقاربة تدخلية.

الجدير بالذكر في هذا السياق إلى أن المجتمعات الإسلامية في شمال إفريقيا خصوصاً تعرف بروز مجموعة من الجماعات التي يتعين على الدول والتنظيمات المدنية السعي إلى إدماجها في بنياتها الاجتماعية، كالأشخاص في وضعية شارع والأمهات العازبات والأشخاص في وضعية انحراف ... لقد صار من الأهمية بمكان الاعتراف بهذه الفئات كأجزاء من المجتمعات، واعتبار أوضاعها الاجتماعية مشكلة اجتماعية وليس وقائع عابرة، وفي ذلك اعترافاً بالظاهرة وخطوة أولية نحو إيجاد حلول إنسانية وعملية لها. ونرى استناداً إلى ملاحظتنا بأن التدخل عن طريق سيرة الحياة ستكون أداة ناجعة لمختلف مؤسسات الاستقبال، فمن خلالها يشعر الفاعلون بالاعتراف الاجتماعي والمؤسساتي، ويتم تجاوز مختلف مظاهر الوصاية والأبوية وكل ما يُشعر المستهدفين بأنهم موضوع برامج إصلاحية، وبأنهم «منحرفون» على القيم الاجتماعية، فمثل هذه المشاعر تولد دونية اجتماعية وردود أفعال مقاوماتية واندفاعية، تحكم في واقع الحال بالفشل على البرامج المعتمدة بقصد إعادة إدماجهم في الأنسقة الاجتماعية.

## على سبيل الختم

يمكن القول إن منهجية سيرة الحياة ظهرت في المجتمعات الحديثة في ميدان البحث السوسيولوجي من أجل إعادة الاعتبار للذوات الإنسانية والاعتراف بكيونتتها التي فقدتها مع المقاربات البنيوية والهوليسيتية التي حاولت التنكر لذاتية وفاعلية الإنسان من خلال التركيز على البنس اللاشعورية والأنسقة الاجتماعية الكبرى التي تتحكم فيه. ولكنها انتقلت في الفترة المعاصرة إلى السوسيولوجيا الإكلينيكية، بوصفها أداة تدخلية، من خلالها يمكن تحقيق تصالحاً للذات الإنسانية مع تاريخها، ومساعدتها على إعادة تأويله وبناء معاني جديدة له، تمكّنها من تجاوز ما تعتبره مشكلاتها، وتأهيلها لعيش حياة ذات معنى، حياة طيبة بالمعنى الفلسفي.

وعليه يمكن التأكيد إن سيرة الحياة ليست أداة ووسيلة للأكاديميا والإكلينيكية وحسب، وإنما آلية لتحقيق الاعتراف الاجتماعي بالإنسان، الذي صارت وضعيته معقدة في ظل التحولات العالمية المرتبطة بسيادة النظام الرأسمالي النيوليبرالي، والهشاشة، والعولمة المؤمركة... و نعتقد بأن ما قدمناه في هذا المقال لا يتعدى إضاءات أولية، التي يمكن أن تشكل مدخلاً للبحث في هذا الحقل. والذي نتوخى من خلالها التشجيع على فتح هذا الورش، ورش البحث في سيرة الحياة كأداة للتدخل الاجتماعي، ومساعدة الباحثون والممارسون المهنيون على تجربتها وتطويرها تبعاً للسياقات المغاربية والعربية الإسلاميتين، وفي ذلك سعياً للاعتراف بإنسانية الإنسان، وتجديداً للمناهج البحثية والممارسات المهنية، وضمان علميتها ومهنتها، ودمقرطتها وفق مبادئ الحرية و الإنصاف والاعتراف.



- Lainé, A. (1998). *Faire de sa vie une histoire. théories et pratiques de l'histoire de vie en formation*. Paris: Desclée de Brouwer.
- Lefebvre, R. (2008). Dans M. Legrand, V. de Gaulejac, M. Christ, M. de Halleux, A. Lainé, Y. J.-B.
- Lefebvre, . . . A. Trekker, *Un atelier de récit de vie pour personnes en difficulté avec*, pp. 169-193 ERES.
- Lyotard, J.-F. (1979). *La condition postmoderne*. Paris: Éditions de Minuit.
- Mercier, L. (2008). Re-traiter sa vie : pratiques d'interventions biographiques auprès. Dans: Michel Legrand, Vincent de Gaulejac, Myriam Christ, Myriam de Halleux, Alex Lainé, Yohanan Jean-Baptiste Lefebvre, . . . Annemarie Trekker, *Intervenir par le récit*. pp. 213-234. ERES.
- Pierret, R. (2013). «Qu'est-ce que la précarité ?». Socio: la nouvelle revue des sciences sociales, pp. 307-330. *Consulté le*, 10 (26), 2016, sur <https://journals.openedition.org/socio/511>.
- Trekker, A. (2008). «Écrire pour (re)tracer son histoire de vie». Dans M. Legrand, V. de Gaulejac, M. Christ, M. de Halleux, A. Lainé, Y. J.-B. Lefebvre, . . . A. Trekker, *Intervenir par le récit de vie*, pp. 235-260. ERES.

المراجع العربية

- البجدايني, ياسين. (٢٠١٩). *تجربة الهجرة لدى الشباب في وضعية هشاشة اجتماعية وأثرها على إعادة بناء الهوية: حالة الشباب الإفريقي المتحدر من المجتمعات الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى*, (رسالة لنيل الماجستير, غير منشورة). الرباط: كلية علوم التربية - جامعة محمد الخامس بالرباط.
- البجدايني, ياسين. (٢٠٢١). *تجربة الهجرة وأثرها على سيرورة إعادة بناء الهوية الاجتماعية: حالة المهاجرين الأفرقة من دول أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى بالمغرب*. تنسيق: خالد القضاوي, وفؤاد فرحاوي, *الهجرة وتفاعلاتها في عالمنا المعاصر*, ص ص. ١٥٩-١٤١. وجدة: مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
- فوبار, محمد. (يوليو-سبتمبر, ٢٠١٥). *السيرة والسيرة الذاتية كمنهج .. من الأدب إلى علم الاجتماع*. *عالم الفكر*, ٤٤, ص ص. ١٩١-٢٣٨.
- كيال, مها. (٢٠١٥). *السيرة الحياتية منهجية وتقنيات بحثية. الثقافة الشعبية*, ص ص. ١٤-٢٩.

المراجع الأجنبية

- Annejoyeau et al. (2010). *les récit de vie en gestion des ressources humaines: principes, portée, limites, management et avenir*, 4(34), pp. 14-39.
- Barus-Michel, J. (2004). *souffrance: sens et croyance effet thérapeutique*. Toulouse: ères.
- Berteaux, D. (2005). *L'enquete et ses méthodes: le récit de vie*, (éd. ٢ eme édition). Armand Colin.
- Bourdieu, P. (1998). *La précarité est aujourd'hui partout*. Pierre Bourdieu « *Contre-feux: propos pour servir à la résistance contre l'invasion néo-libérale*, pp. 95-101» Paris: Raison d'AGIR.
- Bourdieu, P. (1986, juin). *L'illusion Biographique*. *Actes de la recherche en sciences sociales*, pp. 62-63, pp. 69-72.
- de Gaulejac, V. (2008). *Conclusion. Pour une clinique de l'historicité*. Dans M. Legrand, V. de Gaulejac, M. Christ, M. de Halleux, A. Lainé, Y. J.-B. Lefebvre, . . . A. Trekker, *Intervenir par le récit de vie*, pp. 313-319. ERES.
- F Wacheaux .(1996) .*Méthodes qualitatives et recherche en gestion*, Paris: Economica.
- Francequin, G. (2008, décembre). *Cabinet de lecture*. Enfance & Psy.
- Gaulejac, V. d. (2008). «Introduction. L'histoire de vie a-t-elle un sens ?»,. Dans M. Legrand, V. de Gaulejac, M. Christ, M. de Halleux, A. Lainé, Y. J.-B. Lefebvre, . . . A. Trekker, *Intervenir par le récit de vie*, pp. 13-31. ERES.
- Gonseth, M.-O., & Maillard, N. (1987). *L'approche biographique en ethnologie: point de vue critique: commentaire historique*. Dans *histoire de vie: approche pluridisciplinaire*. Paris: Edition de la maison des sciences de l'homme.
- Jeune, P. L. (1998). *pour l'autobiographie*. Paris: le seuil.

## تطور الفكر والممارسة الكولونيالية الإسرائيلية الهجينة وتطبيقها في التخطيط الحضري

راسم خمايسي

مقالات بحثية

### ملخص

يهدف هذا المقال إلى عرض ونقد جدلية تطور وتحول العلاقة بين الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين وبين التخطيط الحضري. يُفرق المقال بين استخدام الاستعمار للتخطيط الحضري التوجيهي لاستخدامات الأراضي، بما في ذلك تموضع المستوطنات، وبين التخطيط الرسمي الضابط والمحدد لاستخدامات الأراضي، والذي يستخدم كمركب مركزي في مصفوفة الضبط والسيطرة الإسرائيلية على الحيز. هذا التخطيط له سمات وملامح شبيهة ثابتة لتحقيق المشروع الصهيوني. استفاد هذا المشروع من تطور وتحول تجارب نماذج الاستعمار وكوّن حال استعمار هجين مارسه في إنجاز روايته وأيديولوجيته التي تُشكّل بوصله لنشاطه الاستيطاني الاستعماري المتنوع كما يعرضها ويناقشها المقال بإيجاز.

الكلمات المفتاحية: استعمار، تخطيط حضري، هجين، صهيونية، فلسطين، إسرائيل.

## The Evolution of the Israeli Hybrid Colonial Thought and Practice and its Application in Spatial Planning

### Abstract

This article aims to present and criticize the evolution of the relationship between Zionist settler colonialism in Palestine and spatial planning. The article differentiates between the colonial purposed use of spatial planning for land use including the location of settlements, and the official planning which determines and specifies land use. Combined, these are centrally utilized in the Israeli matrix of spatial command and control. This planning holds semi-fixed characteristics toward realizing the Zionist project which has benefitted from the advancement and evolution of colonial examples to form a hybrid colonial situation. This hybrid colonialization has been utilized to realize Zionist narrative and ideology which direct its variety of settler colonial activity, as is illustrated and discussed in the article.

**Keywords:** Colonialism, Dimensional Planning, Hybrid, Zionism, Palestine, Israel.



يبدأ المقال بعرض موجز لإطار معرفي لجدلية الاستعمار والتخطيط الحيزي، ولاحقاً نتناول ماهية التخطيط الحيزي وتوظيفه لإنجاز الاستعمار بشكل عام وللصهيوني بشكل خاص. ثم ننتقل لرصد التحولات في استخدام التخطيط الحيزي لصياغة توزيع وانتشار مستوطنات المشروع الصهيوني في فلسطين خلال مراحلها المختلفة، وبعدها نعرض سمات وملامح عقيدة ومدرسة التخطيط الحيزية التوجيهي والرسمي، وأدوات إنجازه. يتخلل متن المقال عرض نماذج تطبيقية لاستخدام التخطيط الحيزي لإقامة وتثبيت وتطوير الاستعمار الصهيوني الاستيطاني الهجين في فلسطين كجزء من إنجاز قانون القومية، وحصر وأسر الوجود الفلسطيني وإعاقة تنميته في الوطن.

### جدلية الاستعمار والتخطيط الحيزي

يعرف الاستعمار، بشكل عام، على أنه احتلال وسيطرة قوّة أجنبية على أراضي ومقدّرات شعبيّ آخر، حيث تقوم القوى الأجنبية المستعمرة بالسيطرة على مناطق أو أراضي دولة ضعيفة وتهجير شعبها واستغلال مواردها الطبيعية والبشرية، بالإضافة إلى فرض لغة وثقافة الدولة المستعمرة على السكان الأصليين المستعمرين (Morgnrsen, 2011؛ إيميه، ٢٠١٣). لقد استعمرت الدول الأوروبية مناطق متعددة، حيث سيطرت، وهيمنت ونقلت موارد من المناطق المُستعمرة للدول المُستعمرة، وأقامت بها مستوطنات بشرية في أطراف المدن بالإضافة إلى مستعمرات قروية ومزارع (Gregory, 2004). تميز نمط الاستعمار الحديث بوجود دولة أم قوية تشكل مركز وقلب الاستعمار، ترسل أذرعها إلى المناطق المستعمرة الضعيفة (Lloyd, 2012؛ سالم، ٢٠٢٢). هناك أنواع من الاستعمار والتي تُلخص:

١. بالاستعمار الاستيطاني، من خلاله يقوم شعبٌ دولة قوية مستعمرة بالهجرة إلى بلدٍ آخر للاستيطان والعمل فيه، وتطبيق محاولات طرد السكان الأصليين منه مع بقاء المستعمرة تابعة بشكل كامل لحكومة البلد الاستعماري الأم (Ramn, 1993).

٢. الاستعمار الاستغلالي، والذي من خلاله يقوم المستعمر على إرسال أعداد قليلة من المستعمرين إلى البلدان الجديدة وعدم تهجير السكان الأصليين من مناطقهم، بل إجبارهم على العمل لصالح المستعمر في محاولة لاستغلال موارد وخيرات وثروات الأراضي الجديدة ونقلها إلى البلد الأم المستعمرة.

٣. الاستعمار البديل والذي تقوم فيه أحد الدول الاستعمارية بتشجيع مجموعة عرقية أو دينية لاستعمار منطقة تسيطر عليها مجموعة عرقية أخرى.

٤. الاستعمار الداخلي، الذي تقوم بموجبه مجموعة أغلبية داخل الدولة باستغلال قوتها ونفوذها لاحتلال مناطق تابعة لمجموعاتٍ إثنية/ عرقية تشكل أقلية ضعيفة. تطبيق هذا الاستعمار على أصنافه المختلفة، وفي الغالب، لم يكن موجه بموجب تخطيط حيزي ملزم (Zureik, 2016).

سبق الاستعمار الحديث نشوء التخطيط الحيزي المُنظم والمقنون والمعلن. تطور هذا التخطيط مع سيطرة الفكر الدائري العقلاني الذي نشأ بعصر النهضة. كما أن ظهور مشاكل التمدن المتسارع وانتفاخ المدن أصبحت بحاجة للتدخل التخطيطي الحيزي لحل أو إدارة هذه المشاكل وتخفيف أضرارها. كما كشف هذا التمدن عن الحاجة السريعة إلى تدخل الدولة لترشيد استخدامات الأراضي وحل المشاكل الحضرية من خلال وضع سياسات ومخططات إنجازية تتدخل بواسطتها الحكومات المركزية والمحلية. بدء العمل بالتخطيط الحيزي الرسمي الناظم كجزء من السياسات العامة التي تصيغها الدولة للتدخل في عمليات التطور الجارية في محيط معين (منطقة/دولة) لتحقيق أهداف الدولة المركزية في بداية القرن العشرين، خاصة بعد أن سُن أمر تنظيم المدن ١٩٠٩ في بريطانيا، ونقل للمستعمرات التي خضعت لها مثل نيجيريا والهند والباكستان ولاحقاً فلسطين عام ١٩٢١ (عبد الحميد، ٢٠٠٥).

أسس أمر تنظيم المدن هذا تشكيل مؤسسات تخطيط مركزية، تُعد مخططات للمدن والأقاليم، تقرها، تفرضها على المجتمع المحلي وتراقب إنجازها (Mckay et.al, 2017). بموجب فرض أمر/ قانون التخطيط يتم تحديد استخدامات الأراضي في الحيز (المديني والقروي)، ومنع أي بناء أو تطوير حيزي بدون إذن/ رخصة من مؤسسات التنظيم التي تشكل جزء من تطبيق قوة الدولة لتحقيق سياساتها الحيزية للسيطرة على موارد الأرض وما يمكن أو يمنع البناء عليها

توجت الحركة الصهيونية مشروعها بإقرار ما يعرف ب «قانون القومية عام ٢٠١٨» من البرلمان الإسرائيلي، والذي حدد بشكل معلن ماهية رواية وطبيعية دولة إسرائيل العرقية الكولونالية. حيث أعلن القانون بشكل واضح أن مكانة الاستيطان على كونه قيمة وذراع لتحقيق ماهية المشروع الصهيوني في فلسطين والسيطرة على القدس ومحيطها لتكون قلب الشعب اليهودي ودولة إسرائيل الحديثة. هذا ما أكده القانون في بند ٧ حين أقر: «تعتبر الدولة تطوير استيطان يهودي قيمة قومية، وتعمل لأجل تشجيعه ودعم إقامته وتثبيته» (عدالة، قانون أساس- القومية). هذا الاستيطان جاء لإنجاز تعريف ماهية الدولة بإعلانه أن: «دولة إسرائيل هي الدولة القومية للشعب اليهودي، وفيها يقوم بممارسة حقه الطبيعي والثقافي والديني والتاريخي لتقرير المصير»، هذه الدولة أقيمت بمكان يسعى لتحقيق ادعاء يربط بين ماضي توراتي تلمودي مع مستقبل حدثي (ساند، ٢٠١١). بهذا الشأن أعلن القانون في البند ١ (أ) وكجزء من المبادئ الأساسية أن: «أرض إسرائيل هي الوطن التاريخي للشعب اليهودي، وفيها قامت دولة إسرائيل».

وكجزء من توثيق الارتباط بين الذات اليهودي، والرواية التوراتية التلمودية والمكان/ فلسطين وقلبها القدس حين حدد القانون بالبند ٣ أن: «عاصمة الدولة: القدس الكاملة والموحدة هي عاصمة إسرائيل». كقانون أساس لم يحدد حدود المكان مثل؛ أرض إسرائيل، دولة إسرائيل والقدس الكاملة والموحدة؛ هذه المسميات بقيت دون تعريف محدد مغلق، بل تركت لحال تحدده الظرفية المتغيرة، والمتحولة والمتعلقة بتوفر موارد قوة الحركة الصهيونية وذراعها دولة إسرائيل وقدرتها على السيطرة التراكمية المتحركة على المكان/ الأرض. لإحكام السيطرة على المكان، استخدمت دولة إسرائيل إرث تاريخي ديني، أعادت إحيائه وصياغته وإدارته من قبل مؤسسات ناظمة وموجهة قبل قيام الدولة الإسرائيلية الحديثة والذي حدد وأوضح معالمها قانون القومية ٢٠١٨، واستثمرت الدولة العرقية اليهودية الحديثة هذا الإرث وقوتها لتثبيت السيطرة على المكان ودحر السكان المحليين الأصليين، الفلسطينيين، منه باستخدام مصفوفة ضبط ذكية، تحتوي على مركبات وأدوات خشنة وناعمة (خمايسي، ٢٠١٨، ١٨). هذه المصفوفة ما زالت متحركة ومُطوّعة لخدمة تحقيق الأهداف التي لخصها قانون القومية.

يدعي هذا المقال أن الحركة الصهيونية طوعت نماذج الاستعمار التقليدية والحديثة لأجل تحقيق روايتها ومشروعها. عملية التطوير المتغير التراكمي صيغت متأثرة من عوامل ذاتية (الحركة الصهيونية) وعوامل داخلية (فلسطين) وعوامل خارجية (دول وقوي عالمية) (Veracini, 2010). بموجب عملية التطوير المتحركة شكلت مشروع استعماري استيطاني هجين (Homi, 1994) يزاوج ويكامل بين نماذج الاستعمار لطرح خاصية له. وإن تحقيق هذا الاستعمار الهجين اعتمد مصفوفة ضبط، سيطرة ورقابه. أحد مركبات هذه المصفوفة هو التخطيط الحيزي (الحضري والقروي والإقليمي) التوجيهي والرسمي المقنون. جُند وسُخر هذا التخطيط من حيث الأهداف والمنهيات والأدوات والتطبيقات لتحقيق مشروع الدولة العبرية الصهيونية بواسطة استعمار استيطاني هجين. كما أن التخطيط الحيزي يُستخدّم لخلق صورة منشودة لمستقبل مرغوب ومطلوب يصمم مشهد الاستيطان الصهيوني المستقبلي، حيث يصبح حقيقة في الوعي واللغة والخطاب الصهيوني، ينقله من الرواية للحقيقة ومن المؤقت للثابت، ويصبح مطلب صهيوني يبنى عليه المشروع الصهيوني الذي شكل بداية ذراع استعماري لدول وقوى خارجية وتحول إلى دولة أم عرقية استعمارية هجينة تمارس استعمار داخلي استغلالي في مناطق احتلت عام ١٩٦٧، ولا يوجد إقرار دولي وأممى بأنها جزء من إسرائيل الدولة.

تهدف هذه المقالة إلى إلقاء الضوء على تطور وتحول المشروع الصهيوني الاستعماري وتشكيله لنموذج استعماري هجين، مسخرا التخطيط الحيزي ومشكلا معه تآزر وجدلية.

لأجل ذلك يعرض المقال ماهية خصوصية شكل ومضمون التخطيط الحيزي، الموجه والمقنون، المُوَظف لتحقيق الأهداف الجغرافية والديموقراطية والديموقراطية الإثنية/ العرقية للسيطرة على المكان وتحقيق الأهداف الاستعمارية الصهيونية في فلسطين من خلال تناول بإيجاز بعض النماذج التخطيطية الممارسة والمطبقة. يعتمد المقال على استعراض ونقد الأدبيات والخطط المنشورة بشأن ماهية التخطيط الحيزي الصهيوني الإسرائيلي، وكيفية تطبيقها الإحلالي، واسقاطات هذا التطبيق على العرب الفلسطينيين. كما أننا نستخدم منهجية «الباحث كلاعب» على اعتبار أن كاتب المقال هو مخطط مدن ومشارك في إعداد مخططات مقاومة بديلة لتلك المعدة من مؤسسات الدولة لمواجهة الفكر والممارسة الاستيطانية.



شكل ١: جدلية العلاقة بين الرواية والعقيدة الدينية التوراتية التلمودية وبين التخطيط الحضري الموجه والرسمي كجزء من سمات خصوصية المشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيوني في فلسطين

### تحولات الممارسة الكولونيالية الصهيونية

تُظهر دراسة تطور حال الاستعمار الصهيوني في فلسطين أنه متحول ومتأقلم ويتناسب مع الحال الذي صاغها وأنتجها في فلسطين لكي يحقق الرواية والعقيدة الدينية المصاغة والمرتبطة بالمكان، مستخدمة القوة لتحقيق أهدافها ومنتزة لفرص أو صناعة لها لتكون جزء من استعمار أوروبي بديل. يمكن أن نقسم تطبيق المشروع الاستعماري الصهيوني إلى ثلاثة مراحل رئيسية: ١. قبل قيام إسرائيل عام ١٩٤٨، والذي يمكن تقسيمه لفترتين رئيسيتين: ١. «الاستيطان الخيري» قبل عام ١٩١٧. ٢. الاستيطان القومي الجيوسياسي الموجه بموجب تخطيط توجيهي ورسمي بين ١٩١٧-١٩٤٨. ب. بعد قيام إسرائيل وحتى ١٩٦٧. ج. بعد ١٩٦٧ حتى اليوم. ويمكن تقسيم المرحلة الثانية والثالثة إلى مراحل ثانوية كما سنتناولها بإيجاز لاحقا مركزين على جدلية العلاقة بين الاستعمار والتخطيط الحضري.

### سمات مرحلة التأسيس، الاستعمار الخيري البديل المتميز

بدأ هذا الاستعمار الصهيوني كجزء من الاستعمار الأوروبي ذا الطابع الديني (المسيحاني) المستحدث منذ أواسط القرن التاسع عشر، ومشكلا ذراعا له. هذا الاستعمار انطلق بعد حملة نابليون على فلسطين، وطبق من خلال امتلاك الأرض وإقامة مستعمرات من قبل التمبلريم «جماعة الهيكلين». فرغم فشل حملة نابليون إلا أن الأطماع الأوروبية بأرض فلسطين لم تهدأ، ففي عام ١٨٥٣، ومع انتهاء حرب القرم، برزت في أوروبا «حركة الأتقياء» التي تنبأت بسقوط الدولة العثمانية، وبدأت تُحضّر للعودة إلى «الأرض المقدسة»، ومن بين «الأتقياء»، ظهرت جماعة اختارت لنفسها اسم «جماعة الهيكلين - بالألمانية - Tempelgesellschaft». وهي تسمية من وحي «فرسان الهيكل» الذين ظهروا مع وصول الحملات الصليبية إلى بلاد الشام قبل حوالي ١٠٠٠ عام. وفي عام ١٨٦١، اجتمع ٦٤ رجلاً من رجال الدين في ألمانيا وقرروا تأسيس لجنة «الهيكل الألماني» "Deutscher Tempel"، ليرأس دافيد هارديج لجنة بناء الهيكل في القدس. يُمكن تلخيص نوايا هؤلاء من خلال «خطاب أحد» لزعيمهم هارديج وجهه لزعماء أوروبا جاء فيه: «إن ظروف شعبنا أقتنعنا بأن الوقت قد حان لبناء هيكل الرب في الأرض المقدسة؛ فأقوال الأنبياء في العهدين القديم والجديد تعتبر بناء الهيكل الوسيلة الوحيدة لسعادة الشعوب والأفراد على حد سواء» (عاصي، ٢٠١٦). قام الهيكلين بتطبيق فكرهم بإقامة مستعمرات سبقت الاستعمار الصهيوني بموجب تخطيط حيزي توجيهي حدثي ناظم، وشكلت إichاء له كنموذج إقامة الحي الألماني في حيفا (مستعمرة الهيكلين)، وسارونا في يافا. هذا الاستعمار سبق إقامة مستعمرات يهودية صهيونية مثل بيتح تكفا، ريشون لتسيون ودغانيا. هذه المستعمرات الصهيونية استفادت وطبقت دوافع ولغة، وأدوات هندسة وتنظيم الحيز والمجتمع الذي طبقة الهيكلين في مستعمراتهم، حيث أصبح الاستعمار الصهيوني لاحقا ذراعا للاستعمار الأوروبي في فلسطين ومطبعا رسائله ومُتماهيا ومتوافقا مع أهدافه وموظفا لها في هذه المرحلة.

بالمقابل، وبالموازاة مع جهود جماعة الهيكلين، وبالتنافس معها، نظم الصهيونيون أنفسهم، ودُعِموا من الدول الأوروبية، خاصة بريطانيا، وداعمون صهيونيون مثل روتشلد ، وأقاموا مستعمرات صهيونية قروية جديدة في البداية بما في ذلك على ضفاف بحيرة طبريا (مستعمرة كنيرت ودغانيا)، وفي الأراضي التي تمكنت الحركة الصهيونية

(Khamaisi, 1997). تستخدم عملية إصدار رخصة بناء وإقرار مخططات هيكلية من قبل مؤسسات التخطيط المُشكلة من الدولة، والتي هي جزء من مؤسساتها الإدارية العاملة لتحقيق سياساتها وتوفير مصالحها. بعد تشكيل مؤسسات التخطيط وفرض عملية إقرار المخططات، أصبح التخطيط الحضري الرسمي أداة طيعة بيد الدولة للسيطرة على الحيز وبسط قدرتها وهيمنتها على توزيع الموارد وللسماع أو لمنع البناء والتطوير في مكان معين أو لفئة سكانية محددة. هكذا أصبح للتخطيط الحضري واليزي قوة تستخدمه الدولة من أجل حفظ المصلحة والأمن العام، حسب ما يحدد من قبل الدولة المركزية، وأن هدفه ترشيد استخدام الموارد لمنفعة السكان، على اعتبار ان قاعدة المصلحة العامة فوق وأهم من المصلحة الخاصة، وأن المنفعة الخاصة تتضمن في المنفعة العامة. بموجب هذه القاعدة استخدمت الدول الاستعمارية سلطتها وأذرعها المُنشأ من الدولة المركزية والمحلية، التخطيط الحيزي لتحقيق أهدافها.

استخدم الاستعمار الاستيطاني التخطيط الحيزي التوجيهي الذي صيغ قبل التخطيط الرسمي الناظم، للوصول والسيطرة على مصادر الثروات في المستعمرات. بموجب خطط توجيهية عامة، قام المستعمر بنشر نشاطه الاستعماري، ولاحقا ثبته بواسطة إقرار تخطيط رسمي مقونن. جدلية العلاقة بين الاستعمار والتخطيط التوجيهي المترجم لأهدافه، وتحويله إلى مخططات حيزية رسمية استمرت، وهي موجودة حتى الآن في كثير من الدول حتى في مرحلة ما بعد الاستعمار التقليدي. تعد المخططات التوجيهية الحيزية والتي تترجم أهداف الدولة الاستعمارية، استراتيجياتها ورغباتها في توزيع أو تركيز الموارد والسكان، بما في ذلك شبكة الاستيطان البشري المدني والقروي وشبكات المواصلات الخادمة والمغذية لها. هذه المخططات التوجيهية والتي عبرت عن رؤى وأفكار، وطموحات ومصالح تترجم في بعض الأحيان إلى مخططات حيزية رسمية ملزمة ومحددة لاستخدامات الأراضي، وفي حالات أخرى تستخدم الدولة المركزية المخططات التوجيهية كبوصلة عمل الدولة لتحقيق روايتها وأهدافها وسياساتها. بموجب هذا المنهج سلكت الحركة الصهيونية لتحقيق مشروعها في فلسطين والذي شمل إقامة المستوطنات للسيطرة على الأرض، والذي شمل امتلاك وإدارة وتخطيط المكان (خمايسي، ٢٠١٩).

### خاصية استعمار المشروع الصهيوني

أنشأت الحركة الصهيونية مشروع حدثي يعتمد على رواية وعقيدة دينية مرتبطة بمكان، وأعدت صياغة هذا المشروع وأنتجته مهندسا ومهجنا ليتناسب مع مفاهيم الدولة الحديثة، ذات المنشأ المفاهيمي الأوروبي الاستعماري الحدثي. وعي رائدو الحركة الصهيونية الظرفية التي نشأوا بها وصاغوا رؤية وأهداف تحاول أن توازن بين التناقضات في المصالح بين القوى الاستعمارية الأوروبية بالأساس، وبناء علاقات معها، تم توظيفها لخدمة إنجاز مشروعها الكولونيالي الاستيطاني لإحياء الرواية والعقيدة الدينية (خمايسي، ٢٠٢٢). هذا المشروع مبررا أخلاقيا بحق تاريخي مكتسب، منشأ لواقع ديموغرافي وجغرافي يعتمد على التفضيل الاثنوي الديني القومي للمواطنة في فلسطين. لإنجاز هذا المشروع وافقت وتجانست الحركة الصهيونية بين لغتها وسلوكها وبين المشروع الأوروبي الحدثي، خاصة وأن رواد الحركة الصهيونية ومنتجبي فكرها وسلوكها نشأوا وتشكلوا في حاضنة الفكر والممارسة الأوروبية، رغم التنوع والاختلاف فيما بينها شكلا ومضمونا (ساند، ٢٠١٠). هذا الفكر الحدثي كما أنشأنا أنتج التخطيط الحيزي المقونن كجزء من مفاهيم الإدارة العامة لترشيد إدارة الموارد وعقلنتها ضمن منطق يحقق أهداف الدولة والمجتمع الحدثي.

استثمرت الحركة الصهيونية، أوروبية المنشأ، وضع تطوير فكر مستقبلي منشود لحل مشكله عرقية/إثنية حالية والتي تتلخص ب«المسألة اليهودية»، وحاجة هذه المجموعة لترجمة روايتها المبنية على عقيدة دينية لإقامة وطن قومي تحكمه دوله عرقية/إثنية. هذه الرواية مبنية على الانتماء لماضوية توراتية تلمودية كوعاء جامع لتثبيت حالة أخلاقية جماعية، لبناء دوله عرقية/إثنية مستقبلية باستخدام قوة الدولة الحديثة للسيطرة على الموارد خاصة الأرض/ الحيز في ظل توافق مصالح بين دول أوروبية استعمارية وبين الحركة الصهيونية وتناقضها العميق مع الدولة العثمانية والحضارة العربية الإسلامية السائدة في فلسطين. هكذا تمكنت الحركة الصهيونية استغلال حالة الاستعمار الأوروبي، بما في ذلك العداء مع الدولة العثمانية وضعفها لصياغه مشروع مهجن يربط بين الرواية والعقيدة الدينية التوراتية والحدثية الأوروبية لإنجاز استعمار صهيوني له خصوصية ظرفية في فلسطين. هذا الاستعمار وظف التخطيط التوجيهي الحيزي، وصاغه كمشروع جيوسياسي مدعوم من الاستعمار الأوروبي البديل. ولاحقا استخدم التخطيط الحيزي الرسمي لإحكام سيطرته وهيمنته على المكان، فلسطين (انظر شكل ١).



السيطرة عليها وامتلاكها. مبادئ تخطيطية توجيهية صاغت سمات ومواقع المستعمرات الصهيونية وتتلخص في إقامة مستعمرات زراعية تعاونية، بجانب موارد مياه، وتوفير مساحات زراعية كافية، تجنب الصدام المباشر مع السكان المحليين الفلسطينيين الأصليين وتوفير إكمانية الدفاع والحماية وإقامة أحياء صهيونية في أطراف المدن القائمة مثل يافا، بالموازاة مع تعزيز الاستيطان اليهودي القائم مثل القدس، وإقامة مستعمرات كمراكز تربية لصياغة الهوية الجمعية الصهيونية كنوات للتوسع. كما تم تطبيق الرغبة بإظهار الإنجازات الاستيطانية الصهيونية لكي تبني عليها بشكل تراكمي، وتستقطب دعم مالي وسياسي وديموغرافي لتوسيعها وإقامة مستعمرات إضافية. لذا استثمر رواد الصهيونية حال اليهود في دول المصدر مثل روسيا لتشجيع هجرتهم واستقطابهم إلى فلسطين من خلال استيطان أيديولوجي لبناء الوجود العرقي وقيام كيان المشروع الصهيوني بموجب تخطيط توجيهي ركزته الوكالة اليهودية وأحياء صهيون وروتشلد وآخرون. وضمن رغبة الصهيونية في السيطرة على الأرض فضلت في عقيدتها القرية على المدينة ودعت للسكن والعمل الزراعي كجزء من إنتاج اليهودي الجديد (كونفرتي، ٢٠٠٩؛ راخمن، ١٩٧٧).

دفع تلاقي المصالح بين الحركة الصهيونية وبين الاستعمار الأوروبي إلى دعم الاستعمار الصهيوني الوافد البديل إلى فلسطين، حيث كان جزء منه، رغم بعض الخصوصية والتميز والذي تمثل بكونها حركة ذات سمات عقائدية ورواية دينية يتوافق معها غالبية المجتمع والقادة الأوروبيين. ولكن الرغبة بالسيطرة وامتلاك الموارد، ولاحقا تكوين إطار جيوسياسي يستعيد سيطرته على القدس وفلسطين هو الهدف. تحقيق هذا الهدف يتم بالسيطرة على المكان من خلال امتلاك الأرض، واستقطاب سكان ذو انتماء ديني، عقائدي وإثني/ عرقي بعد تشكيلهم كجماعة مصلحة مثل «أحياء صهيون-حويبي تسيون». هذا النشاط المجتمعي العقائدي نظم من خلال مؤسسات فاعلة تقوم بتنظيم عملية الكولونيالية الاستعمارية الصهيونية والتي ترجمت بتشكيل الصندوق القومي اليهودي عام ١٩٠١ لجمع الأموال وشراء الأراضي في فلسطين، ولاحقا الوكالة اليهودية لأجل إسرائيل كذراع تنفيذي للحركة الصهيونية لتشجيع الهجرة اليهودية واستيطانها في فلسطين.

رغم تحول الاستعمار من الاستيطان التمبريري للاستيطان الصهيوني في فلسطين، إلا أن كليهما اعتمدا الدوافع الدينية لتحقيق استعمارهم في «الأرض المقدسة» فلسطين «لشعب الله المختار» معتمدين على تطبيق وعود توراتية ومسيحانية لبناء الهيكل. هذا الاستعمار اعتمد نموذج وجود دولة الأم التي ترسل مواطنيها للاستعمار في أراضي مستعمرة بحيث يتم سلب موارد من الأراضي المُستعمرة لدول الأم المُستعمرة. أما في حال الاستعمار الصهيوني في فلسطين فإن الدول المُستعمرة شكلت غلاف داعم للمستعمر الصهيوني لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، تطبيقا لوعده بلفور ١٩١٧. بموجب هذا الوعد التزمت الدولة المستعمرة؛ بريطانيا، بحماية ودعم الاستيطان الصهيوني في فلسطين، وذلك من خلال وضع يدها كدولة منتدبة على فلسطين. تحت ظل هذا الانتداب وسعت وعززت الحركة الصهيونية استيطانها القروي والمديني الحديث، بالموازاة مع تعميق الاستيطان الديني الأرتوذوكسي في القدس خاصة. هكذا فإن خاصية الاستعمار الصهيوني في فلسطين بالمقارنة مع الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا او استعمار بريطانيا في الهند أو الباكستان، شملت شكل، دوافع وطبيعة العلاقة بين دولة الأم المُستعمرة ومستعمراتها وأصبح استعمار بديل له (Aminzade, 2013).

كما تقدم، انطلق الاستعمار الصهيوني من رواية وعقيدة دينية توراتية تسعى لإعادة إحياء ذاتها وتجدها في وطن قومي/ عرقي جديد. هذه الرواية كانت وما زالت مُكوّن للدافع الأخلاقي للمشروع الصهيوني وأدوات سيطرته على الأرض/ المكان فلسطين. لتحقيق هذه الرواية برمجت الحركة الصهيونية إعادة تشكيل ذاتها متأقلمة مع ظروف موضوعية ذاتية وخارجية، محلية وعالمية ومطوعة وموظفة هذه الظروف من أجل تحقيق مشروعها الاستعماري، مستغلة خصوصية العقيدة التوراتية التلمودية لاستئناف حضورها في فلسطين من خلال إقامة دولة قومية يهودية حديثة. كجزء من عملية التطويق والتوظيف المتحرك، قامت قيادات الحركة الصهيونية باستثمار دول الأم الاستعمارية ذات التقليد الكولونيالي الحديث، خاصة بريطانيا، لإنجاز مشروع الحركة الصهيونية في فلسطين.

كما قلنا، فإن قيادة الحركة الصهيونية كانت أوروبية المنشأ وكانت جزء من مشروع أوروبا الحديث، تحدثت لغته واندمجت به، رغم خصوصية الانتماء الديني اليهودي على تياراته المختلفة. كما أن دول أوروبا الرئيسة استغلت حال ضعف الدولة العثمانية لتجزئتها وإضعافها وحتى القضاء عليها، كما حدث بعد الحرب العالمية الأولى، وقامت بتقسيم انتدابها على منطقة الهلال الخصيب والجزيرة العربية بين انتداب فرنسي وبريطاني. في هذه الظرفية وجد قيادة

الحركة الصهيونية فرصة استثمار تمكين وتوسيع الاستيطان اليهودي الصهيوني في ظل الانتداب البريطاني على فلسطين، بعد أن فشلوا بإقناع الدولة العثمانية منحهم حق الاستيطان العرقي المنظم، المعلن والموجه والمدعوم. أما الانتداب البريطاني فقد منحهم هذه المظلة نتيجة تلاقي مصالح ومنافع بين الدول الأوروبية والحركة الصهيونية والتي تتمثل بوضع حل للمسألة اليهودية وتشكيل دولة يهودية تتمكن من السيطرة على مدينة القدس، على اعتبار أن القدس هي مهبط قلوب المؤمنين بالديانات الموحدة الثلاث؛ اليهودية والمسيحية والإسلامية، وكل واحدة من طوائف هذه الديانات تسعى للحضور والسيطرة على القدس كجزء من السيطرة على الموارد الروحية والرمزية. بين هذه الديانات والطوائف يوجد صراع مجذر لتغليب روايتها التي تستخدم كعنصر مركزي في امتلاك القوة الناعمة والخشنة للسيطرة على القدس وفلسطين.

بعض ملامح خاصية المشروع الكولونيالي الصهيوني كان منح الأفضلية للاستيطان الزراعي القروي المنظم والمخطط حيزيا، إداريا واقتصاديا. فرغم أن اليهود الصهاينة سكنوا المدن في دول المصدر وشغلوا وظائف خدمتية، ولكن بعد هجرتهم لفلسطين بموجب موجات هجرة موجهة متتابة اختاروا في البداية، وعلى الغالب، إقامة مستوطنات مخططة قروية زراعية مستقاة ومستوحاة من التجربة الروسية والألمانية. جزء من هذا الاستيطان الزراعي الصهيوني كان بهدف تعميق قيّم الإنتاج الذاتي والتشارك المجتمعي والارتباط بالأرض بعد امتلاكها واستصلاحها والسيطرة على المكان من خلال زرع مستوطنة، لتشكل ود/عامود حولها يتم استملاك أراضي لإقامة مستوطنات قروية زراعية إضافية محاطة بسياج وبها برج مراقبة، لتشكل مجمل هذه المستوطنات عنقود - بلوك Block - مسيطر على حيز يمكن الدفاع عنه وعن ذاته. هذا النمط الاستيطاني الوافد كان غريب عن النموذج القروي الفلسطيني الأصلي العضوي. هذا الاستيطان الصهيوني الوافد خلق شبكة استيطان قروي ومديني مزدوجة وثنائية في نفس الحيز واحدة عربية فلسطينية أصلانية تطورت بشكل عضوي تكاملي وتوافقي متصالحة مع الحيز/ المكان، مقابل شبكة مستعمرات قروية أنشأت بموجب تخطيط حديثي منسوخ ومنقول من البيئة الأوربية إلى فلسطين. هذا الاستيطان خلق غربة بينه وبين البيئة المُنشأ بها، كما هو حال الأحياء أو البلدات التي أنشأت في الدول المستعمرة.

كما أن من ملامح الاستيطان الصهيوني هو تشكيله لمشروع إقامة دولة، أي لم يتعامل مع ذاته كمؤقت، بل هو جزء مُشكّل ومُكْمِل لمركباته، يسعى إلى تثبيت ذاته وتمكينه ليبنى عليه التوسع والتحول من حالة الأطراف لتشكيل مركز للشعب اليهودي. هذا التثبيت في التوسع انطلق من إقامة أنوية قروية موزعة في الأطراف بجانب مصادر مياه وتوفير أراضي قابلة للزراعة العصرية أو يمكن استصلاحها لهذه الغاية. حول هذه الأنوية يمكن إقامة أنوية قروية زراعية لتشكل معا عنقود استيطاني يمتد على مساحات بها تواصل إقليمي. هذا العنقود الاستيطاني يشكل حلقة من سلسلة عناقيد وكتل استيطانية تهدف تكوين امتداد إقليمي يمكن الانفصال والدفاع عنه من ناحية، ومن ناحية ثانية تشكيل مركب أساس في عزل وتقطيع شبكة القرى والمدن الفلسطينية العضوية القائمة لإضعافها. هذه الاستراتيجية الاستيطانية الصهيونية غير معلنة في البداية، وطبقت بموجب نظام التجربة والخطأ واستثمار الفرص، وأصبحت منهج تخطيطي حيزي معلن متبع بإقامة وتكثيف الاستيطان الصهيوني قبل إقامة دولة إسرائيل، وبعد إقامتها كما سنوضح لاحقا.

استطاع الاستيطان الصهيوني تجنب الصدام مع السكان المحليين في المراحل الأولى لإنجاز وإنجاح مشروعه على مراحل. مرحلة التسلل الأولى كانت منطلقة من كسب عطف ذوي العلاقة الحاضرين في فلسطين وشراء أراضي بشكل عيني نقطي حيث تسنح الفرصة لإقامة مستوطنة الود/العامود ولاحقا توسيعها لتشمل العنقود. كما أنهم سوقوا فكرهم وشرعنت مشروعهم تحت شعار بأنهم جاءوا «إلى أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» (مصالحة، ١٩٩٧). بشأن شراء الأراضي، وظفت الحركة الصهيونية نظام الأراضي القائم في فلسطين، بما في ذلك شراء الأراضي من اقطاعيين غير محليين لإقامة مستوطنات او استخدام هذه الأراضي للزراعة وتشغيل المستوطنين بها وتوسيع مشروعهم الاستيطاني. بالموازاة مع إقامة وإشغال الاستيطان الزراعي، أقيمت أحياء في المدن مثل حي «يمين موشه» جنوب مقبرة مأمّن الله في القدس بمبادرة الصهيوني مونتيوري، كذلك إقامة حي المتدينين الحريديم «مته شعاريم» وحي يهودي «احوزت بايت» شمال شرق يافا ليشكل نواة انطلاق وتوسع تل ابيت.

يمكن أن نلخص أن التخطيط الحيزي في ظل الانتداب البريطاني منح الحركة الصهيونية مساحة كبيرة لتطبيق مشروعها الاستيطاني الاستعماري بمستويين. الأول، استخدام قوة بريطانيا كدولة أم مستعمرة طبقت قوانين ونظم حيزية تتعلق بتسوية الأراضي والتخطيط الحيزي الرسمي ومكنت الاستعمار الاستيطاني الصهيوني من شراء الأرض وامتلاكها، وإقامة مستعمرات عرقية مخططة دون ضبط تخطيط رسمي، وبذلك شكل الاستعمار الصهيوني نموذج تطبيقي لاستعمار بديل للاستعمار البريطاني. الثاني، تطبيق استعمار داخلي من قبل الحركة الصهيونية نفسها والتي تعمل لاستقطاب مهاجرين بشكل انتقائي وحسب الانتماء العرقي وتوطينهم بموجب استراتيجية حيزية تمكنها من تكوين كيان جيوسياسي مستقل، وإقامة مؤسسات إدارية، خدماتية وسياسية كفروع لمؤسسات صهيونية أسست وبقيت تعمل في دول أوروبية، وأقامت لها مندوبيات وفروع لها في فلسطين لصيانة واستدامة المشروع الصهيوني، لتشكل مؤسسات عاملة على طريق إقامة الدولة الصهيونية.

### تحول الاستعمار الصهيوني من البديل إلى دولة أم

قرر الانتداب البريطاني إنهاء ولايته وخروجه من فلسطين في منتصف ١٩٤٨، بعد أن أسس لإنجاز مشروع إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ومنحه الأدوات لتحقيق ذلك، من خلال السيطرة على الأرض، جذب وحضور ديموغرافي عرقي، تشكيل شبكة استيطان مديني وقروي تمتلك موارد وتشكيل مؤسسات رسمية لإدارة الدولة بعد تدريبها كجزء من مؤسسات الانتداب الرسمية وتشكيل مؤسسات ظل عرقية تقدم خدماتها لليهود الصهاينة. بعد خروج الانتداب وقيام دولة إسرائيل مستقلة عن بريطانيا، وأصبحت تمتلك قوة الدولة لهندسة الحيز، بقيت الدول الاستعمارية الغربية تدعمها بشكل مباشر وغير مباشر. امتلاك هذه القوة شملت مصادرة الأراضي من أصحابها الذين بقوا في وطنهم، وفرضت عليهم المواطنة الإسرائيلية؛ كذلك السيطرة على الأراضي التي كانت بملك الفلسطينيين الذين تم تهجيرهم وإجراء عملية تطهير حيزي ومديني لقراهم ومدنهم. كما أن الدولة الجديدة سيطرت على مخزون الأراضي التي خضعت لسيطرة الدولة العثمانية والانتداب البريطاني. هذه الأراضي أضيفت على الأراضي التي كانت تحت سيطرة الحركة الصهيونية قبل قيام الدولة. كما أنه خلال حرب ١٩٤٨ تم احتلال مساحات إضافية من منطقة الدولة العربية المقترحة حسب قرار التقسيم، وشملت منطقة الجليل، المثلث النقب والقدس (خمايسي، ١٣ . ٢). هكذا أصبحت الدولة الإسرائيلية تسيطر على ٧٢٪ من مساحة فلسطين، وتتصرف دون معيق بحوالي ٩٣٪ من الأراضي بها، معظمها كانت فارغة من الاستيطان الصهيوني، وذلك بعد طرد وخروج سكانها الفلسطينيين الأصليين منها خلال النكبة.

بالمقابل وبالموازاة مع عملية السيطرة على الحيز والأرض، عملت الحركة الصهيونية ومؤسسات الدولة الحديثة لاستقطاب هجرة يهودية وافدة إليها. هذه الهجرة اليهودية المرغوبة غلفت ضمن رواية قيّمية تشجع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، كما أن الحركة الصهيونية قامت بفعاليات تدفع هجرة يهودية إليها من الدول الأوروبية والدول العربية. بعد خمس سنوات من إقامة الدولة تضاعف عدد سكانها، وذلك لأن دولة إسرائيل تحولت لدولة أم تستقطب وتستوعب هجرة يهودية إليها وتوزعها وتستخدمها لإنجاز استعمار داخلي وإحلال محل شبكة الاستيطان البشري الفلسطينية. شمل هذا الاستعمار الداخلي إعادة صياغة وهندسة الحيز (Weizman, 2007) بموجب مخططات حيزية توجيهية تهدف لحفظ حدود الدولة الحديثة، وتحقيق أهداف جيوسياسية ومنع إمكانية عودة مهاجرين فلسطينيين إلى مدنهم وقراهم، وتأمين السيطرة اليهودية على الأرض، واستيعاب وتوطين مهاجرين يهود محل العرب الفلسطينيين، وتعزيز وتمكين الاستيطان اليهودي في الأطراف لإشغال واستعمار مناطق بها أقلية يهودية، وحصر توسع البلدات العربية التي بقيت في حدود إسرائيل بعد احتلالها خلال حرب ١٩٤٨، وتقطيع شبكة البلدات العربية الفلسطينية التي بقيت في منطقة الجليل، والمثلث والنقب وتأمين ميزان ديموغرافي لصالح اليهود بهذه المناطق لمنع إمكانية عودتها إلى الدولة العربية إذا ما تم التوافق على إنجاز قرار التقسيم ١٨١ (حسون، ١٢ . ٢).

لتأمين إنجاز الأهداف المذكورة أعدت الدولة مخططات قطرية حيزية توجيهية ومقنونة، كان أولها مخطط فيزيائي لإسرائيل عام ١٩٥٠. هذا المخطط التوجيهي وضع الأسس لمشروع الاستعمار الداخلي من خلال توزيع السكان اليهود وإعادة رسم الخارطة السكانية وشبكة الاستيطان القروية والمدينية اليهودية (جبارين، ١٢ . ٢). هذا المخطط لم يقر رسميا من مؤسسات التخطيط، بل تم تبنيه كمخطط توجيهي وبموجبه قامت الحكومات الإسرائيلية بمبادرات لإنجاز مشاريع قطرية وإقليمية تؤمن سيطرتها على الأرض. تبع هذا المخطط إعداد مخططات حيزية قطرية لتوزيع السكان اليهود لمناطق الأطراف وإقامة مدن تطوير وسطية تخدم الأقاليم القروية وتثبيت عقيدة التخطيط الحيزي الإسرائيلي (خمايسي، ١٩ . ٢).

مع فرض الانتداب البريطاني على فلسطين وصدور وعد بلفور انطلق المشروع الكولونيالي الصهيوني نحو مرحلة جديدة لتحقيق رؤية مشروع هرتسل الذي لخصه في كتابه «الأرض القديمة الجديدة» (Altneuland) بواسطة إنتاج وعي جمعي يهودي صهيوني مهندس لإنتاج دولة عرقية يهودية في فلسطين، مستثمرة الانتداب البريطاني كغلاف سامح وممكن، لترجمة المشروع على الأرض من خلال إقامة مستعمرات زراعية متموضعة بموجب مخططات توجيهية مستقاة من فكر ومنهجية أوروبية كما هو شأن المخطط الصهيوني أرتور روبين، ويوسف فايس وآخرون، وموجه لعملية استملاك الأراضي والسيطرة عليها (رايخن، ١٩٧٧). سكن هذه المستعمرات المهاجرين الصهاينة والتي أقيمت وتوسعت حسب تخطيط حيزي حداثي مبادر له، منسوخ ومنقول من بيئة أوروبية. التماهي بين الانتداب البريطاني ممثلا بالمندوب السامي الأول هيربرت صموئيل الذي سعى لتطبيق صك الانتداب على فلسطين ١٩٢٢ ووعده بلفور ١٩١٧، وتطبيق أمر تخطيط المدن ١٩٢١ وتعديلاته خاصة أمر تنظيم المدن ١٩٣٦ والذي يشكل أساس نظام التخطيط الحيزي الرسمي في فلسطين قبل وبعد إقامة دولة إسرائيل. مع فرض الانتداب البريطاني على فلسطين انتقل الاستعمار الصهيوني من حال الاستيطان الخيري (فلنتروبي Philanthropy) إلى الاستيطان الاستعماري القومي/ العرقي الوطني المنظم البديل والذي شكل لاحقا أساس لتقسيم فلسطين جيوسياسيا.

توسع الاستعمار الصهيوني وتحوله من حال المبادرات الخيرية لإقامة أنوية قروية مخططة إلى إنشاء شبكة من الاستعمار القروي والمديني المخطط والموجه بموجب تخطيط مسبق لاستيعاب زيادة الهجرة الوافدة كذلك لتأمين السيطرة على الأراضي التي تم امتلاكها والسيطرة عليها. تأثر انتشار هذا الاستعمار من عدة عوامل مثل توفر أراضي بملكيه صهيونية، أو أراضي يمكن شرائها أو السيطرة بموجب خطط مثل مخطط توجيهي على شكل N والذي وضعه أرتور روبين.

هذا المخطط الحيزي التوجيهي وضع تصور توجيهي لامتلاك الأرض وإقامة المستعمرات الزراعية الصهيونية والذي يبدأ من منطقة سفوح جبل الشيخ وعيون الباناس، مروراً بسهل الحولة وسهل بيسان جنوباً، ومرج بن عامر غرباً حتى حيفا، وجنوباً على امتداد السهل الساحلي. ولاحقاً شكل هذا المخطط/ الاستراتيجية الاستيطانية الحيزية، أساس لوضع اقتراح تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية، بعد إقرار رسمي لهذا التقسيم بموجب قرار رقم ١٨١ لعام ١٩٤٧ من قبل الأمم المتحدة. حيث شملت الدولة اليهودية حسب قرار التقسيم كل المستعمرات الصهيونية والتي وصل عددها ما يزيد عن ٣٠٠ مستعمرة يسكنها حوالي ٦٠ ألف صهيوني مشكلين حوالي ثلث سكان فلسطين مسيطرون على أقل من ٤,٦٪ من مساحة فلسطين، ولكن قرار التقسيم منح الدولة اليهودية ما يزيد عن ٥٧,٧٪ من مساحة فلسطين الانتدابية. هكذا حقق قرار التقسيم رؤياً ومشروع الحركة الصهيونية المرحلي في ظل الانتداب البريطاني كنوع من أنواع الاستعمار.

رغم أن الحركة الصهيونية صاغت برامجها ومخططاتها الحيزية بشكل مستقل ومنفصل عما قام به الانتداب البريطاني من إعداد مخططات هيكلية محلية للمدن الفلسطينية بموجب أمر تنظيم المدن ١٩٢١، ولاحقاً إعداد مخططات إقليمية/ لوائية بموجب أمر تنظيم المدن ١٩٣٦. حيث قسم الانتداب فلسطين إلى ستة ألوية، وتم إعداد مخطط هيكلية لكل لواء حدد استخدامات الأراضي به، وفرض وجوب إصدار رخصة بناء لكل تطوير، بما في ذلك للمباني السكنية والزراعية (Coon, 1992). بعض هذه المخططات ما زالت سارية المفعول على جزء من أراضي الضفة الغربية والتي تعرف بمخططات RJ-5 للواء القدس، وS-15 للواء نابلس. طبقت هذه المخططات على شبكة البلدات الفلسطينية المتطورة عضويًا، وضبطت تطورها. أما شبكة المستعمرات الصهيونية المُنشأ، لاقت تسامحا وتفهما من قبل سلطات الانتداب البريطاني، مما دفع تطورها وتوسعها في ظل الانتداب البريطاني الذي تماهى مع المشروع الصهيوني (رازين، ١٠ . ٢). أعدت وأقرت هذه المخططات الرسمية في ظل الانتداب البريطاني، وبالموازاة مع إقامة وتوسيع شبكة مستعمرات استيطانية عرقية صهيونية مخططة حديثة بموجب تخطيط توجيهي عرقي، إلى جانب ومتقاطعة مع شبكة قروية ومدنية فلسطينية تطورت بشكل عضوي فرض عليها التخطيط الحيزي الرسمي الانتدابي لضبط تطورها.



إعداد وتطبيق المخططات القطرية والإقليمية الحيزية من قبل مؤسسات التخطيط الحكومية بشكل مستقل عزز حال الاستعمار الداخلي الاستيطاني بعد أن أصبحت إسرائيل دولة تمارس سيادتها لإنجاز مشروعها بموجب روايتها. ومما زاد من استقلالية الدولة بممارسة سياسات تخطيط رسمية مقوتة هو إقرار قانون التنظيم والبناء لعام ١٩٦٥، والذي يُني على أساس أمر تنظيم المدن الانتدابي لعام ١٩٣٦، وأجريت له تعديلات وإضافات تخدم تخطيط الحيز لخدمة المشروع الصهيوني. حافظ هذا القانون على استمرار مركزية جهاز التخطيط لضبط استخدامات الأراضي. مركزية التخطيط تكاملت مع مركزية امتلاك الأرض وإدارة الحيز لتأمين توافق وتكامل بين سياسات التخطيط وسياسات الأراضي، وبذلك امتلكت الدولة المركزية الأدوات لتسهيل عمليات الاستيطان الصهيوني من خلال تبني سياسات توزيع السكان اليهود الوافدين، مقابل سياسات تركيز المواطنين العرب الفلسطينيين في وطنهم.

### تعزيز مكانة دولة الأم الاستعمارية بعد عام ١٩٦٧

احتلال الأراضي العربية بعد حرب ١٩٦٧ فتح فرص تعزيز حال دولة إسرائيل ودخلت ضمن إطار تعريفها كدولة أم استعمارية استيطانية هينة، أي أنها تدمج بين أنماط الاستعمار المختلفة بالموازاة. تنفيذ هذا الاستعمار طبق بواسطة نماذج متعددة من الاستيطان المخطط حسب تخطيط حيزي قطري، إقليمي ومحلي توجيهي مبادر له من الدولة ومن الوكالة الصهيونية، بعضه استخدم الاستيطان الخيري السياسي، ولاحقا تبنته الدولة ودافعت عنه وأصبح جزء من مشروعها. حال الاستعمار الصهيوني الإسرائيلي الهجين هو جزء من حال أطلق عليه «دولة استثنائية – State of Exception (Lloyd, 2012).

يمكن تلخيص نهج الاستعمار الاستيطاني الصهيوني بعدة حالات: ١. استمرار تعميق الاستعمار الاستيطاني الداخلي لتهويد المكان والحيز داخل المناطق التي فرضت عليهم سيادة دولة إسرائيل، خاصة مناطق تتركز فيها الأقلية العربية الفلسطينية مواطني إسرائيل مثل الجليل والنقب والمثلث. ٢. استعمار استيطاني في محيط القدس الشرقية بعد ضم حوالي ٧٢ كلم مربع من الضفة الغربية التي ضمت بقرار إسرائيلي أحادي قسري عام ١٩٦٧ لإسرائيل بعد احتلالها، مخالفة للمواثيق الأممية وللقانون الدولي. هذه المواثيق والقوانين والقرارات الأممية ما زالت تتعامل مع القدس الشرقية كجزء من الضفة الغربية وأراضي محتلة رغم أن ٤٠% من سكانها الحاليين هم يهود إسرائيليين. هذا الاستعمار في القدس الشرقية يمكن أن نصفه بأنه يترنح بين تعميق الاستعمار الداخلي والضم الزاحف للأرض وإقامة مستعمرات/ أحياء إسرائيلية، بينما منح السكان الفلسطينيين المقدسين مكانة مقيم ثابت؛ أي فصل المكانة بين الأرض والإنسان الفلسطيني المقدسي. ٣. استعمار استيطاني خارجي في الأراضي الفلسطينية، السورية والمصرية التي احتلت عام ١٩٦٧ بأنماط استعمارية مختلفة، رغم التشابه العام فيما بينها بحيث أنها تمثل نموذج من استعمار استغلالي بواسطة قرى زراعية تعاونية مخدومة من مدن صغيرة، لتشكل معا عنقود استيطاني بينه امتداد وتواصل حيزي يتطلب ويمكن الدفاع عنه من قبل دولة الأم الاستعمارية.

بدأ هذا الاستعمار باستخدام قوة دولة الأم المحتلة، إسرائيل؛ وتطبيق استعمار استيطاني خيري سياسي تقوم به الوكالة الصهيونية معيدة ومستأنفة النموذج الاستعماري الاستيطاني الذي مارسه قبل قيام دولة إسرائيل في حال الدولة المتخيلة لتحويلها (pre-state, state of mind) إلى مبنى دولة قائمة (structure of state). انطلق هذا الاستعمار بعد الاحتلال بإقامة ثُغور استيطانية تدمج بين العسكري والمدني، وتحولت إلى قرى زراعية في هضبة الجولان وغور الأردن ومنطقة شمال سيناء. هذه المستعمرات الزراعية شكلت أنوية لعناقيد استيطانية، لتكون أساس للسيطرة على موارد الأرض الزراعية، ولاحقا خلق امتداد وتواصل إقليمي مرتبط بدولة الأم المحاذية، داخل الخط الأخضر الذي أقر أمميا (Khamaisi 2008). ٤. استعمار استيطاني ديني توراتي تلمودي الدوافع، تتوطن وتتموضع في مواقع تدعي الرواية الصهيونية اليهودية أن لها ارتباط تاريخي ديني. هذا الاستيطان شمل بؤر استيطانية في القدس القديمة وحاليا يتوسع باتجاه الجنوب في سلوان؛ بؤرة في قلب الخليل (تل روميديا وكريات أربع)، مستوطنة ألون مور ووعوفره وسوسيا وشيلو في منطقة قلب الضفة الغربية والذي قادته مجموعات دينية صهيونية مثل غوش إيمونيم، وتبنته الدولة لاحقا (Ariel, 2017).

هذا الاستعمار الاستيطاني الهجيني حُطِّظ له ودعمته قوى متعددة عملت بتآزر وجدلية تراكمية. شملت هذه القوى:

١. دولة إسرائيل التي تحولت لدولة أم استعمارية محتلة تهدف إلى توسيع الأراضي التي تحت سيطرتها وتبسط سيادتها وهيمنتها عليها وتستغل مواردها.

٢. الوكالة اليهودية التي وظفت موارد تُجمع من اليهود في العالم لشراء أرض ولدعم الاستيطان الإسرائيلي، وأقامت قسم استيطان مهمته إقامة مستوطنات جديدة قروية ومدنية في الأراضي المحتلة بحماية قوة دولة إسرائيل كاستمرار لما قامت به في ظل قوة الانتداب البريطاني. حيث أن الوكالة اليهودية تقاسمت أدوار بينها وبين دولة إسرائيل في عملية التخطيط الحيزي التوجيهي الاستيطاني ولاحقا حمايته، تبنيه وإقراره بموجب تخطيط رسمي بإقرار مؤسسات التنظيم الإسرائيلية.

٣. دعم دولي غربي، أمريكي وأوروبي معلن وغير معلن، مدافع عن المشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيوني والإسرائيلي في المحافل الدولية. شمل هذا الدعم مركبات معنوية ومادية. هذا الدعم شكل مظلة لتطبيق وحماية مركبات الاستعمار الاستيطاني، والذي شمل دفع هجرة يهودية للقدوم إلى إسرائيل لتغذية الاستيطان وإشغاله، بموجب طفرات هجرة كما حدث بين عام ١٩٨٩-١٩٩١ حيث هاجر لإسرائيل ما يزيد عن ٧٥٠ ألف مهاجر من دول الاتحاد السوفياتي، أو استمرار الهجرة اليهودية الراشحة من دول مختلفة بما في ذلك فرنسا وأمريكا وأثيوبيا. بين عام ١٦. ٢- ١٩. ٢ هاجر لإسرائيل حوالي ١١٤ ألف يهودي كنموذج للهجرة الراشحة التي تسعى إسرائيل لزيادتها لتعميق استيطانها واستخدامها كجزء من مورد ديموغرافي مقابل زيادة الفلسطينيين في فلسطين. منذ إقامة دولة إسرائيل حتى عام ٢٠١٩ هاجر لإسرائيل حوالي ٣,٣ مليون يهودي، أي أن حوالي ٤٥% من السكان اليهود في إسرائيل عام ٢٠١٩، بما في ذلك سكان المستعمرات في الأراضي العربية الفلسطينية والسورية المحتلة، لم يلدوا بها بل هاجروا إليها (دائرة الإحصاء المركزية ٢٠٢١). تتظاهر الجهود بين الحكومة الإسرائيلية مع الوكالة اليهودية بالتنسيق مع دول تعيش بها أقليات يهودية من أجل دفعها للهجرة لإسرائيل واستيعاب هذه الهجرة في المستعمرات المقامة حسب أنماط المستعمرات المختلفة لتغذيها بالموارد الديموغرافي وتثبيتها جغرافيا لتحقيق أهداف جيوسياسية، وتطبيق سياسة الضم الحيزي الزاحف والسيادة الانتقائية العرقية. توفر مورد قوة دولة الأم الاستعمارية، الأراضي المحتلة الخاضعة لسيطرة دولة الأم، والموارد الديموغرافي العرقي شكلت أسس لتطبيق مخططات حيزية توجيهية ورسمية.

### السيطرة والضم الزاحف والسيادة الانتقائية العرقية

تتلخص سمات التخطيط الحيزي الصهيوني منذ بدايته في فلسطين هادفا لتحقيق مشروع كولونيالي استيطاني، ولاحقا بعد إقامة دولة إسرائيل في فلسطين، التي أصبحت لاحقا تشكل دولة الأم الاستعمارية، وتمثل مركز الشعب اليهودي بالعالم من ناحية، ومن ناحية أخرى أصبحت مركز وقلب للاستيطان الاستعماري في الأراضي الفلسطينية التي احتلت بعد عام ١٩٦٧ بالملامح التالية. بموجب ملامح التخطيط الحيزي هذه، سعت إسرائيل إلى خلق واقع يشمل بؤر استيطانية للسيطرة على الحيز. هذه البؤر تتوسع وتمتد على مساحات يتم ضمها لاحقا بشكل عملي بواسطة بسط السيادة الرسمية والعملية، في بعض الحالات بشكل انتقائي، على أساس الانتماء العرقي ولاحقا الإعلان عنها لتخضع للسلطة الإسرائيلية. هذا ما حدث حتى تم تأسيس واستقلال دولة الأم، إسرائيل، بما في ذلك احتلال أراضي وضمها للدولة اليهودية حتى خط الهدنة ١٩٤٩، أو ما يعرف بالخط الأخضر، وتبعها احتلال أراضي عربية عام ١٩٦٧، وضم القدس الشرقية ١٩٦٧، وهضبة الجولان ١٩٨٠، واليوم يجري الحديث عن ضم غور الأردن نسوقه لاحقا كنموذج لتطبيق الاستعمار الصهيوني الهجين. تتلخص ملامح وسمات التخطيط بالمركبات التالية:

1. استخدام عقيدة التخطيط الحيزي التوجيهي مؤسساته وأدواته لتحقيق الرواية التوراتية التلمودية وعرضها بلباس حدائثي عصري مدني. هذه الرواية تهدف لبناء الذات الجمعي اليهودي الصهيوني وتأسيس لتحقيق ادعاء كونه صاحب حق أخلاقي في البلاد. أما اللباس الحدائثي يَمَكِّن الدولة، بصفقتها الجسم الاعتباري، صاحبة الصلاحية والمسؤولية لإدارة الحيز، وبناء على ذلك لها الحق الأخلاقي باستخدام التخطيط الحيزي كأحد أدوات الدولة الحديثة للسيطرة على استخدامات الأراضي في الحيز لتأمين المصالح والمنافع العامة، ولو كان ذلك على حساب الفرد. وبما أن الحركة الصهيونية، ولاحقا دولة إسرائيل، تمثل الجمع اليهودي الصهيوني، لذا فإن التخطيط الحيزي جاء ليحقق مصالحها ومشروعها، بما في ذلك من خلال أنماط الاستيطان والذي شمل مستوطنات زراعية تعاونية واشتراكية.

2. ربط التخطيط الحيزي بين توفر الأرض بملكية أو بسيطرة الحركة الصهيونية، ولاحقا دولة إسرائيل، وبين تطبيق إقامة المستعمرات العرقية بموجب تخطيط حيزي توجيهي، وتبنيه وإقراره رسميا من مؤسسات الدولة. صحيح أن التخطيط الحيزي تجاوز حدود الأرض التي تم امتلاكها والسيطرة عليها، ولكن هذا التخطيط التوجيهي شكل بوصلة موجهة كذلك لامتلاك الأرض لخلق تواصل وامتداد بين مستعمرات عرقية. هذه المستعمرات تزحف باتجاه أراضي إضافية

للسيطرة وتشكيل كتلة استيطانية مع حيز أراضي مغذي لها ويمكنها من التوسع وتحويلها إلى وحدة جيوسياسية لاحقا. هذا النهج استمر بعد إقامة الدولة التي تمكنت من احتلال أراضي واسعة، مصادرة أراضي، تملكها بقوة قوانين الدولة، والتخطيط عليها أو منح الوكالة اليهودية حق ممارسة التخطيط الحيزي وإقامة مستعمرات عرقية وتثبيت سيطرة الدولة عليها والتي تمارس عليها واقع الضم الزاحف والسيادة الانتقائية، كما هو حاصل حاليا بشأن المستعمرات الإسرائيلية في الضفة الغربية وفي هضبة الجولان السورية. هكذا فإن جدلية الربط العضوي التكاملية بين سياسات الأراضي وبين سياسات التخطيط الحيزي التوجيهي والرسمي، شكّلت أساس مدرسة وعقيدة (Doctrine) (Faludi, 1997) التخطيط الحيزي وصاغت نماذجه (Paradigms) (خمايسي، ٢٠١٩)، التي مورست بواسطة هذا التخطيط على المستويات المختلفة والمناطق المتعددة التي خضعت لأنماط الاستعمار الإسرائيلي الصهيوني الهجين.

3. تكامل بين التخطيط التوجيهي الحيزي والاستراتيجي أولا وبين التخطيط الحيزي الرسمي المقونن الذي يتبعه ويصبح ملزما لاستخدامات الأراضي ثانيا، وتسخير الأول كمقدمة لإنجاز الثاني. قبل قيام إسرائيل صاغت الحركة الصهيونية مخططات تعريفية لوضع حدود «أرض إسرائيل» حسب الرواية التوراتية التلمودية، وتبعتها بتحديد مخططات لمواقع وحيازات يمكن امتلاك الأرض بها وإقامة مستوطنات عرقية عليها لإشغالها، وتسخير نظام الأراضي ونظام التنظيم والتخطيط الانتدابي الرسمي لتحقيق المخططات التوجيهية. هذه المخططات التوجيهية صاغت وهندست انتشار الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، والذي شكّل أساس لوضع اقتراحات جيوسياسية لتقسيم فلسطين حسب قرار أممي ١٨١، لدول عرقية يهودية وأخرى عربية. وبعد إقامة إسرائيل أعدت عدة مخططات توجيهية حيزية كان أولها مخطط شارون ١٩٥٠، تحت عنوان «تخطيط فيزيائي لإسرائيل»، حيث وضع هذا المخطط الملامح والتوجهات لفقّه التخطيط الفيزيائي لإسرائيل الدولة، والذي شمل توزيع السكان اليهود وإشغال الفراغ الحيزي الذي خلفه الفلسطينيين بعد النكبة وبعد طردهم، وخلق شبكة متدرجة متوازنة من المدن والقرى اليهودية، ووضع توجيهات لاستيعاب المهاجرين اليهود والسيطرة على الأرض ووضعها في حالة احتياط لإشغالها مستقبلا لصالح المشروع الصهيوني. هذا المخطط ترجم الأهداف الجيوسياسية، ديموغرافية وحتى أمنية إلى مخطط فيزيائي توجيهي لعمل مؤسسات الدولة في العقد الأول لقيامها وأسس لما بعده من صياغة الخارطة السكانية في إسرائيل حتى بداية عقد ١٩٩٠. وفود هجرة يهودية كبيرة من الاتحاد السوفياتي إلى إسرائيل مع بداية هذا العقد، ألزم الحكومة الإسرائيلية إعداد مخطط حيزي توجيهي جديد غيّر بعض مركبات فقّه التخطيط التوجيهي الذي صيغ بموجب عقيدة التخطيط التي لخصها مخطط شارون ١٩٥٠ (Yiftachel, 2010).

ركز المخطط التوجيهي الحيزي الذي أعد بداية عقد التسعينيات على تطوير منطقة المركز وبها حواضر مدنية - الميتروبوليتان، وعلى توطين وتوزيع مناطق التشغيل كأساس ومحفز لدفع توزيع السكان اليهود إلى مناطق الأطراف الجغرافية. هذا المخطط الحيزي التوجيهي والذي أقر كمخطط قطري رسمي مقونن، والذي أصبح يعرف باسم «مخطط قطري رقم ٣١»، شكّل نقطة تحول في التخطيط الحيزي بإسرائيل وبشكل أول مخطط حيزي قطري شامل يحدد استخدامات الأراضي التي خضعت لسيادة الدولة في حدود الخط الأخضر، وضمت إليها القدس الشرقية وهضبة الجولان السورية. أما منطقة الضفة الغربية وقطاع غزة أقيمت خارج حدود هذا المخطط القطري رسميا، ولكن تعاملت الحكومات الإسرائيلية مع سكان وحيز المستعمرات اليهودية المقامة بها بموجب مخططات توجيهية حيزية؛ شملت شبكة الطرق وتموضع المستعمرات والسيطرة على الأرض وتقطيع شبكة الاستيطان المدنية والقروية الفلسطينية؛ أشرفت عليها وزارة الدفاع كذراع حكومي، وصاغتها الوكالة الصهيونية بواسطة قسم الاستيطان التابع لها، والذي ينسق أعماله مع الحكومة الإسرائيلية. لاحقا لذلك أعد بين عام ١٩٩٢-١٩٩٧، مخطط توجيهي رئيسي شامل يعرف بـ «إسرائيل ٢٠٢٠» ليوجه تطوير إسرائيل الحيزي والوظائفي حتى عام ٢٠٢٠.

هذا المخطط التوجيهي الاستراتيجي تم ترجمته إلى مخطط هيكلية قطري رسمي شامل مُقرّ من الحكومة الإسرائيلية وموجه وضابط لسياسات التخطيط الحيزي والذي يعرف (بمخطط قطري رقم ٣٥)، مع أنه لا يشمل منطقة الضفة الغربية رسميا، ولكنه أخذ بعين الاعتبار الاستعمار الصهيوني بها وظائفا وفي مجالات البنى التحتية. وكجزء لاستمرار تطبيق منهجية إعداد التخطيط الحيزي التوجيهي كأساس وسابق للتخطيط الحيزي الرسمي الذي يتبناه ويقوننه، يقوم حاليا طاقم مهني ممثل للجامعات وللقطاع المهني بإعداد مخطط استراتيجي حيزي لإسرائيل عام ٢٠٤٨، يطلق عليه «إسرائيل ٢٠٤٨» (اسيف ٢٠٢٢).

يجدر الذكر أن مدرسة إعداد مخططات حيزية توجيهية أصبحت نهج وسمة فقّه التخطيط الحيزي الإسرائيلي، بما في ذلك للمستعمرات، وذلك لاستغلال الليونة والانتقائية حسب الظرفية والانتماء العرقي، بحيث يكون ضابط ومانع على العرب الفلسطينيين، ولكنه متسامح ومشجع للاستيطان اليهودي وتوسعه في الحيز.

4. ما زال التخطيط الحيزي الإسرائيلي يترنح بين التركيز بيد الدولة المركزية، والتوزيع وتفويض الصلاحيات من الدولة أو الوكالة الصهيونية لمنظمات أهلية صهيونية للمبادرة بإقامة مستعمرات، ضمن رؤية وتخطيط حيزي عام يخدم مشروع الدولة. أساس التخطيط الحيزي الرسمي المركزي هو نظام التخطيط البريطاني الذي صُدّر للدول والمناطق المستعمرة، بما في ذلك فلسطين التي خضعت لانتداب دام حوالي ثلاثة عقود، مارس حكم عسكري رغم ملامحه المدنية الخدمائية. نظام التخطيط المركزي المتدرج منح الدولة القوة لتحقيق أهدافها الاستراتيجية الحيزية بواسطة تخصيص الأرض وتخطيط الاستخدامات بها، وبناء مستعمرات وفعاليات تنموية عليها حسب سياسات الدولة المركزية. فرغم محاولات الدولة الأم الإسرائيلية منح وتفويض صلاحيات تخطيط حيزي رسمي على المستوى المحلي، إلا أن هذا التفويض ما زال خاضع لسيطرة الدولة المركزية التي تمارس حوكمة مركزية في كل ما يتعلق بتخطيط الحيز وإدارته والسيطرة على الأرض وامتلاكها وتخصيصها بشكل انتقائي على أساس انتماء عرقي وحسب الموقع الجغرافي لتحقيق رواية الدولة وحماية المشروع الاستعماري الاستيطاني الداخلي في إسرائيل وفي المناطق المحتلة لكي تتوفر الظروف لضمه رسميا إلى دولة الأم.

5. تمارس إسرائيل سياسات تخطيط وسياسات إدارة أراضي متشابهة مع تلك التي مارستها الحركة الصهيونية قبل إقامة الدولة، واستمرت بها في الضفة الغربية المحتلة. رسميا ما زالت إسرائيل تتعامل مع الضفة الغربية «كمناطق مدارة» ولا تتعامل معها كمناطق محتلة بموجب القانون والمواثيق الدولية، بل تعمل لتطبيق القانون المحلي الإسرائيلي والذي يستقي قيمه وروايته من القانون العبري، محاولا موافقته مع قيم القوانين الليبرالية والنظم الديمقراطية خاصة لليهود، أما للفلسطينيين فإنه نظام احتلال استيطاني يمارس منظومة فصل إداري وحيزي على أساس انتماء عرقي. وبما يتعلق بالتخطيط الحيزي التوجيهي والرسمي في الضفة الغربية فقد أعدت مخططات حيزية توجيهية كان أولها مخطط استراتيجي توجيهي أعد عام ١٩٧٠ للسيطرة على منطقة الأغوار، وإقامة مستعمرات يهودية بها بموجبه كمقدمة للسيطرة عليها والعمل لضمها كما سنين لاحقا. وبعدها أعدت الوكالة اليهودية مخططات توجيهية لغزو منطقة الجبل وتركيز الاستيطان به لتغيير الواقع الاستيطاني (أفرا، ٢٠٠٢). وفعلا نجحت الوكالة اليهودية، وتبعتها جمعيات يمينية يهودية مدعومة من الوكالة اليهودية والحكومة الإسرائيلية مثل غوش ايمونيم<sup>١</sup> ( هوبرمان، ٢٠٠٨)، ولاحقا بمبادرة ودعم الحكومة الإسرائيلية. حاليا بلغ عدد المستوطنين اليهود في الضفة الغربية ٤٤١,٦٠٠ مستوطن صهيوني (مشكلين حوالي ١٤٪ من سكان الضفة الفلسطينية) موزعين بين ١٣٢ مستوطنة مقررة من الحكومة الإسرائيلية ولها مخطط هيكلية مصدق رسميا، وحوالي ١٤٠ بؤرة استيطانية قائمة (جمعية السلام الآن، ٢٠٢٢) بموجب مخطط محلي توجيهي وتطالب بإقرارها من قبل الحكومة الإسرائيلية وأجهزة التنظيم والبناء الرسمية.

إذا أضفنا عدد المستوطنين في القدس الشرقية والذي بلغ عددهم حوالي ٢٢٥ ألف عام ٢٠١٩، موزعين بين ١٢ مستوطنة/حي حسب تعريفات بلدية القدس، هذا يعني أن حوالي خمس سكان الضفة الغربية بما في ذلك القدس الشرقية هم مستوطنون يهود صهيونيين تتعامل معهم دولة إسرائيل كمواطنين متساوين وأصحاب حقوق كاملة، بما في ذلك الانتخاب والترشح وإدارة مؤسسات الدولة، رغم أنهم مستعمرون يسكنون في أراضي محتلة حسب القانون والمواثيق الدولية (Yiftachel, 2015). إلا أن دولة الأم تعتبرهم طلائعيين ويحققون مشروع الدولة. ورغم أن الدولة لم تضم الأرض إليها رسميا، وأبقتها رسميا تخضع لمنظومة عسكرية مع ذراع مدني يدير شؤونهم يوميا؛ إلا أن هذه المنظومة تخضع بشكل كامل للخطط والبرامج والقرارات والتمويل الصادر من الحكومة الإسرائيلية التي تدير دولة الأم.

على سبيل المثال ما زال قانون تنظيم المدن والقرى والأبنية لعام ١٩٦٦ الأردني ساري المفعول لإطار مرجعي لعمل مؤسسات التخطيط والتنظيم العاملة في الضفة الغربية والتي تسري على المستعمرات، إلا أن هذا القانون تم تعديله بموجب مرسومات وأوامر عسكرية، لتمكين السيطرة والهيمنة الإسرائيلية الكاملة لتأمين الضم الفعلي رغم إبقاء ملامح الفصل الشكلية. وكجزء من عملية الضم الفعلي الزاحف والسيطرة التي تتعلق باستخدام التخطيط التوجيهي والرسمي تلخص في مراحل نشر الاستعمار الاستيطاني في الضفة الغربية. المرحلة الأولى نشر استيطان



يهودي في منطقة الغور وفي القدس الشرقية، بعدها استيطان في منطقة الجبل ليقطع الامتداد والتواصل الفلسطيني من جنين شمالاً حتى الخليل كمرحلة ثانية، أما الثالثة فكانت على امتداد الخط الأخضر وعلى سفوح جبال نابلس والقدس الغربية. هذه المحاور الطولية للاستيطان رافقها إنشاء محاور استيطان عرضية مزدومة من شبكة طرق تخدمها (يونان، ٢٠١٨)، وبذلك تشكلت شبكة استيطان قطعت الضفة الغربية، وأخضعتها للضم الفعلي. لأجل تحقيق هذا الضم أقامت دولة الأمم المتحدة منظومة من الأجهزة لتسيطر على الحيز كجزء من مصفوفة الضبط والتي تتمثل بتقسيم الحيز إلى مناطق نفوذ بلديات، مجالس محلية ومجالس إقليمية تسيطر على ٦٣٪ من مساحة المنطقة<sup>2</sup>. هذه السلطات المحلية التي تدير شؤون المستعمرات المحلية في الضفة الغربية هي جزء من مركز الحكم المحلي الإسرائيلي وتابعة لها. هكذا تكونت منظومة من التخطيط والإدارة للحيز في الضفة الغربية تشكل عملياً جزءاً عضوياً من المنظومة الإسرائيلية ومصفوفة الضبط الحيزي الذي تمارسه دون الاكتراث للفروق الجيوسياسية والمكانة المتنوعة للأراضي الفلسطينية والسكان الفلسطينيين الذين يخضعون لسيطرتهم، بل تطبق عليهم نفس عقيدة ومدرسة وأدوات التخطيط في ظل واقع وفصل شكلي إجرائي جيوسياسي متنوع وتكامل وتراكم بتطبيق ماهية مصفوفة الضبط الممارسة بواسطة التخطيط الحيزي التوجيهي والرسمي.

6. مركب مركزي في ماهية ملامح عقيدة ومدرسة وأدوات التخطيط الحيزي التوجيهي، والتي مكنته من تحقيق مشروعه الصهيوني الاستعماري التراكمي، هو حصر وضبط السكان العرب الفلسطينيين الأصليين في وطنهم. هذا الحصر بدأ مع تحول المشروع الصهيوني من استيطان خيرى إلى استعمار استيطاني في ظل الانتداب البريطاني. وبعد قيام إسرائيل قُسمت فلسطين ومعها حال ومكانة العرب الفلسطينيين حيث بقي في الوطن الذي خضع للسيادة الإسرائيلية بإقرار دولي، ولاحقاً باعتراف بعض الدول العربية، حوالي ١٥٦ ألف عربي فلسطيني تحولوا من أغلبية ذات طموح لنيل استقلالها وإقامة دولة وطنية فلسطينية، إلى أقلية قروية مضطهدة مشرذمة بين أربع مناطق (الجليل و المثلث والنقب والمدن الساحلية)، وتسكن الأطراف الجغرافية للدولة العرقية الحديثة (خمايسي، ٢٠١٣). مخطط حيزي شارون ١٩٥٠، تجاهلها وتعامل معها كأنها مؤقتة، وسعى إلى تهويد وعبرنة حيزها بواسطة إقامة مستعمرات يهودية على أراضيها. بداية التعامل مع وجودها كان بعد عام ١٩٥٧، بعد ان أعدت مخططات التوزيع الجغرافي للسكان في إسرائيل (جبارين، ٢٠١٣)، بما في ذلك المخططات الحيزية الشاملة مثل مخطط قطري رقم ٣١، ١٩٩٢؛ ومخطط قطري رقم ٣٥، ٢٠٠٥، ومخطط رئيس إسرائيل ٢٠٢٠.

يمكن الإيجاز بأن هذه المخططات الحيزية وتوجيهاتها الإقليمية والمحلية تجاه العرب الفلسطينيين كانت مبنية على التجاهل، تبعها إلى الإقرار بوجودها الجزئي، ولكن تتعامل معها كمشكلة ومعيق لتحقيق المشروع الصهيوني ومتحدية له رغم حال الضعف التي آلت إليه قسراً. لذا هدفت هذه المخططات التوجيهية والرسمية تقطيع الامتداد القروي والمدني العربي الفلسطيني بواسطة إقامة مستعمرات يهودية قروية مدارة من مجالس إقليمية تسيطر على الأرض، كما هو حال إقامة مجلس إقليمي وسط الجليل (والمسمى مسغاب) الذي أقيم عام ١٩٨٢ كجزء من خدمة حوالي ١٦٤,٥ كلم مربع في قلب الجليل، وتلامس حدوده ٢٨ بلدية عربية فلسطينية ليحول دون تواصلها الإقليمي. بالإضافة للسيطرة على الأرض والتقطيع الإقليمي تهدف المخططات إلى تأمين أغلبية أو على الأقل توازن ديموغرافي لصالح اليهود، ولهذه الغاية أقيمت مدن يهودية وسطية جديدة في محيط الحيزات التي تتركز بها البلدات التي يسكنها العرب الفلسطينيون كما شأن مدينة كرمئيل ومنتسرات عيليت (نوف هجليل حالياً) في الجليل وعراد وديمونة في النقب، وحريش وتسور يتسحاك وكوخاب ويئر ورأس العين في منطقة المثلث. وعلى المستوى الإقليمي والبلدي يستخدم التخطيط الهيكلي المحلي كأداة طيّعة بيد الدولة والحركة الصهيونية لحصر الامتداد العمراني للبلدات العربية وتقليص فرص تطورها لزيادة اعتمادها وتبعيتها اقتصادياً على البلدات والمستعمرات اليهودية المجاورة. مبادئ وعقيدة ومدارس التخطيط الحيزي وأدواته الذي تمارسه السلطات الإسرائيلية في التخطيط الحيزي التوجيهي والرسمي تجاه مواطني الدولة العرب الفلسطينيين، بما في ذلك بما يتعلق بالقرى العربية في النقب، نقلته ونسخته سلطات الاحتلال الإسرائيلي من دولة الأمم إلى القدس الشرقية وإلى الضفة الغربية، بما في ذلك بالمنطقة المسماة ج، مع بعض الموائمة الشكلية والإجرائية نتيجة لحال الظرفية الجيوسياسي والمكانة للسكان الفلسطينيين، حيث أن العرب الفلسطينيين في إسرائيل هم مواطنون رسمياً في دولة الأمم، ولكنهم يعانون من تمييز صارخ على أساس الانتماء العرقي، وفي محيطهم تمارس استعمار داخلي (Rouhana and Sabbagh-Khoury, 2014)؛ أما سكان القدس الفلسطينيون فمُنحوا مكانة خاصة «مقيم ثابت»،

وتمارس ضدهم مصفوفة ضبط تحصرهم وتأسرهم في حيزهم الضيق، أما الفلسطينيون في الضفة الغربية لم يمنحوا أي شكل من المواطنة، وما زالوا تحت احتلال عسكري رسمياً، رغم تقسيمهم الإجرائي حسب المناطق التي صيغت بموجب اتفاقيات أوسلو المرحلية ويمارس في محيطهم استعمار استيطاني. رغم هذه التقسيمات في المكانة بهدف شردمة الهوية الجمعية الفلسطينية وتقسيمها إلى مجموعات مصلحة، إلا أن الدولة لخصت ماهية توجيهها الجيوسياسي والذي يلزم التخطيط الحيزي في مجمل فلسطين بموجب بند ١ في قانون أساس: إسرائيل – الدولة القومية للشعب اليهودي، ٢٠١٨ حيث ذكر في بند صغير: " (ج) ممارسة حق تقرير المصير في دولة إسرائيل حصرياً للشعب اليهودي ". وهذا يعني ممانعة صهيونية لامتلاك حق تقرير المصير للفلسطينيين في وطنهم. كما أن إسرائيل ما زالت دولة بدون حدود جيوسياسية نهائية متوافق ومجمع عليها داخلياً، بين أطراف الحركة الصهيونية العالمية والأحزاب السياسية العاملة في إسرائيل؛ وخارجياً يوجد رفض فلسطيني وعربي وإسلامي وأممي للاستيطان الاستعماري خاصة في القدس الشرقية والضفة الغربية بما في ذلك منطقة الأغوار التي تتناول الاستيطان بها بإيجاز كمثال لجدلية التحول في الاستيطان الكولونيالي.

هذه بعض المبادئ التي لخصت بقانون القومية هي البوصلة الموجهة للتخطيط الحيزي التوجيهي والرسمي منذ أن بدأت الحركة الصهيونية بتطبيق مشروعها، على مراحل مستفيداً من الفرص التي تصيغها والتي تربط بين حوكمة ذات رباعية الموارد: الزمان والمكان/ الأرض والأنسان اليهودي الصهيوني والتخطيط الحيزي؛ من أجل تحقيق مشروع استعماري مهجن في فلسطين.

### الاستعمار في منطقة الأغوار الفلسطينية مثالاً

يمكن أن نعرض نماذج الاستعمار التي تمارسه الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل باستخدام التخطيط الحيزي التوجيهي والرسمي من خلال استعراض موجز لحال الاستعمار الاستيطاني الاستغلالي والذي تحول لاستعمار استيطاني ذو أبعاد أمنية مع مطالبة إسرائيل لضمه سيادياً لحدود دولة الأم. تشكل منطقة الأغوار جزءاً من أطراف الأراضي الفلسطينية وهي تمتد من بيسان شمالاً حتى منطقة عين جدي جنوباً، ومن نهر الأردن شرقاً حتى بداية السفوح الشرقية للضفة الغربية/ الفلسطينية غرباً. وتبلغ مساحة منطقة الأغوار نحو ربع مساحة الضفة الفلسطينية، ويعيش فيها حالياً حوالي ٧٠ ألف مواطن فلسطيني، بما فيها مدينة أريحا، وهو ما نسبته نحو ٢٪ من مجموع السكان الفلسطينيين في الضفة الفلسطينية. يبلغ عدد التجمعات الفلسطينية في منطقة الأغوار ٢٧ تجمعاً قروياً ومدنياً ثابتاً تمتد على مساحة ١٠ آلاف دونم، وعشرات التجمعات الرعوية والبدوية المهددة بالهدم والتطهير الحيزي. وتتبع تجمعات الأغوار إدارياً ثلاث محافظات فلسطينية هي: محافظة طوباس (الأغوار الشمالية)، بواقع ١١ تجمعاً؛ محافظة نابلس (الأغوار الوسطى)، وتشمل ٤ تجمعات؛ محافظة أريحا (الأغوار الجنوبية)، وتضم ١٢ تجمعاً. تبلغ مساحة الأراضي الصالحة للزراعة في منطقة الأغوار قرابة ٢٨٠ ألف دونم؛ أي ما نسبته نحو ٣٨,٨٪ من المساحة الكلية للأغوار، يستغل الفلسطينيون منها ٥٠ ألف دونم؛ فيما يستغل سكان مستعمرات الأغوار ٢٧ ألف دونم من الأراضي الزراعية فيها. وتسيطر إسرائيل على ٤٠٠ ألف دونم بذريعة استخدامها مناطق عسكرية مغلقة؛ أي ما نسبته ٥٥,٥٪ من المساحة الكلية للأغوار، ويحظر على السكان الفلسطينيين ممارسة أي نشاط زراعي أو عمراني أو أي نشاط آخر في هذه المناطق.

وقد أنشأت إسرائيل ٩٠ موقعاً عسكرياً في الأغوار منذ احتلالها سنة ١٩٦٧، كما توجد على أراضي الأغوار ٣١ مستعمرة، وأغلبيتها زراعية، أقيمت على نحو ١٢ ألف دونم، إضافة إلى نحو ٦٠ ألف دونم ملحق بها، ويسكنها قرابة ٨٣٠٠ مستوطن. وتقسم مناطق الأغوار إلى: مناطق «أ»، وتخضع لسيطرة السلطة الوطنية الفلسطينية، ومساحتها نحو ٨٥ كم<sup>٢</sup>، ونسبتها ٧,٤٪ من مساحة الأغوار الكلية؛ مناطق «ب»، وهي منطقة تقاسم مشترك في إدارتها المدنية والأمنية الداخلية بين السلطة الوطنية الفلسطينية وإسرائيل، ومساحتها نحو ٥٠ كم<sup>٢</sup>، ونسبتها ٤,٣٪ من المساحة الكلية للأغوار؛ مناطق «ج» وتخضع لسيطرة الاحتلال الإسرائيلي الكاملة، ومساحتها نحو ١٥٥ كم<sup>٢</sup>، وتشكل الأغلبية العظمى من منطقة الأغوار (بنسبة ٨٨,٣٪) (مركز المعلومات الفلسطينية وفاء، 2022).

للأغوار أهمية جيوسياسية ووظائفية، تكمن في كونها منطقة طبيعية دافئة يمكن استغلالها للزراعة طوال العام. وبالإضافة إلى خصوبة التربة، وتوفر مصادر المياه فيها، فهي تتربع فوق أهم حوض مائي في فلسطين، وتنتج نحو ٥٠٪ من إجمالي الإنتاج الزراعي في الضفة الفلسطينية، ونحو ٦٠٪ من إجمالي ناتج الخضروات الفلسطيني. كما أنها تشكل امتداد فلسطين مع الوطن العربي من خلال الأردن. هذه المكانة الاستراتيجية دفعت إسرائيل إلى وضع خطط حيزية توجيهية واستراتيجية للسيطرة عليها، فتبنت حكومات الاحتلال المتعاقبة نظرية وخطة يغال ألون (مدار، ٢٠٢٢)،

عن الأهمية الأمنية لغور الأردن، الذي قال "لكي يتحقق الدمج بين حلم سلامة البلاد وإبقاء الدولة يهودية يجب فرض نهر الأردن كحدود شرقية للدولة اليهودية" (مذكور عند: شريدة .٢٠١٠, ص. ٣). كما أن مراجعة مخططات الاحتلال تجاه الأغوار تفيد أن هناك كثيراً من المخططات المعلنة وغير المعلنة من الاحتلال بحق المنطقة ومواطنيها الفلسطينيين، وقد عبّر المسؤولون الإسرائيليون بمناسبة وبغير مناسبة عن تصورهم للتسوية النهائية التي لن تشمل غور الأردن مع الجانب الفلسطيني، فقد قال شاؤول موفاز وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق كما نقلت عنه صحيفة «هآرتس» " الحدود المستقبلية لإسرائيل سوف تشمل الكتل الاستيطانية وغور الأردن" (خمايسي, ٢٠٢٠) كذلك كان رئيس حكومة الاحتلال الأسبق " يتسحاق رابين" كرر أن مساعي إسرائيل يجب أن تصب في منع قيام كيان فلسطيني مشاطيء للبحر الميت (شريدة .٢٠١٠, ص. ٧).

يوجد شبه إجماع صهيوني إسرائيلي يهدف إلى استمرار السيطرة على منطقة الغور التي تشمل السفوح الشرقية لجبال نابلس، وجبال القدس وبرية الخليل والمخدوم بطريق قطري رقم ٦٠ (طريق ألون بحسب التعريف الإسرائيلي) وحتى نهر الأردن والبحر الميت شرقاً والمخدوم بطريق قطري رقم ٩٠ (بحسب التعريف الإسرائيلي). ومنذ احتلال منطقة الأغوار الفلسطينية سنة ١٩٦٧ صاغ يغال ألون استراتيجيا السيطرة عليها وربطها بمدينة القدس بواسطة مصادرة الأرض، وإقامة المستعمرات واستخدام قوة الدولة وضخ مواردها لتحقيق استراتيجيا السيطرة وتطبيق مصفوفة الضبط. وأعد لاحقا بروفيسور أفراهام فاخمن (١٩٧٥) مخططاً رؤيويًا لإسرائيل أطلق عليه اسم «العمود الفقري المزدوج» والذي يعني تطوير إسرائيل واستيطانها بحسب نظرية السُّلم؛ أي إقامة عمودين: الغربي هو الاستيطان الإسرائيلي المدني على ساحل البحر المتوسط، والثاني في منطقة الغور من شمالي البلد حتى جنوبها بتوطين أكثر من مليون إسرائيلي فيه. وبين العمودين تربط محاور استيطانية (درجات سُلْم) ممتدة حول طرق عرضية في مركزها طريق قطري رقم ٥ (قاطع السامرة بحسب التعريف الإسرائيلي)، وطريق رقم ١ يربط تل أبيب بالقدس وبأريحا. وبموجب هذه المخططات التوجيهية والاستراتيجية أُقيمت مستعمرات وسُقّت طرق شكلت تطبيق انجازي استعماري مبرمج لهذه المخططات التي قامت بها الوكالة اليهودية، ومنظمة غوش إيمونيم ولاحقاً حكومة إسرائيل ممثلة برئيسها أريئيل شارون وآخرون. وقد ترجمت هذه المخططات وأُنجزت عملياً بإقامة شبكة من المستعمرات الإسرائيلية في مجمل مواقع الضفة الفلسطينية، بما في ذلك بين منطقة الجبل على محور جنين، ونابلس، والقدس والخليل (Ariel, 2017).

وبموجب الرؤيا والخطط الصهيونية والإسرائيلية التي تسعى لتثبيت السيطرة على منطقة الغور بادر الاحتلال إلى إعداد مخططات هيكلية محلية رسمية للمستعمرات التي أُقيمت وفق تخطيط هيكلية محلي مبادر لنحو ٣١ مستعمرة بالإضافة إلى المناطق التشغيلية. هذه المخططات عدلت المخططات الإقليمية الانتدابية S-15 و RJ-5 التي ما زالت سارية المفعول وبموجبها تمنح/ تضبط/ تمنع السلطات الإسرائيلية الترخيص والتطوير خارج المخططات الهيكلية التفصيلية المصدقة. أمّا للقرى والمدن الفلسطينية فهناك مخططات هيكلية جزئية محلية محاصرة، أعدت لنحو ٨ تجمعات سكنية قروية ومدنية من الجانب الإسرائيلي، بينما لم تُعد مخططات هيكلية لباقي التجمعات الفلسطينية التي يصل عددها إلى ١٩ مجمعاً قروياً، وهناك تجاهل كامل لباقي التجمعات الرعوية والمضارب البدوية المنتشرة في المنطقة والتي لا يعرف ولا يراها الاحتلال الإسرائيلي ولا يعرضها في خرائطه (هس, ٢٠٢١) لكي تثبت روايته أن الأرض خالية ويمتلك حق أخلاقي باستعمارها الاستغلالي، ولاحقا ضمها لدولة الأم الاستعمارية. يجدر الذكر أن الاحتلال الإسرائيلي أقام عام ١٩٧٩ مجلس إقليمي جنوب الغور (عروفوت هيردين) يمتد على منطقة نفوذ ٨٦ كلم مربع، تشمل ٢١ مستعمرة يقدم لها خدمات بلدية، بما في ذلك خدمات تخطيط حيزي توجيهي ورسمي، للمستعمرات اليهودية ويتجاهل السكان الفلسطينيين. وأن رئيس المجلس الإقليمي هذا، دافيد الحياتي، يترأس مجلس المستوطنات في منطقة الضفة الغربية والذي يشمل حاليا ٤ بلديات، ١٣ مجلس محلي و٦ مجالس إقليمية ( جيرمن, ٢٠٢٢). هذا المجلس يمارس ضغط سياسي على الحكومة الإسرائيلية لضم غور الأردن للسيادة الإسرائيلية، كمقدمة لضم باقي المستعمرات في الضفة الغربية لاحقا، حسب رؤية وتخطيط حيزي توجيهي إسكان مليون مستعمر صهيوني في الضفة الغربية.

## خاتمة

كما يدعي كثير من قيادة الحركة الصهيونية ومفكرها بأن مشروعها التوسعي لم ينته، وأنه مستمر في بناء دولة الأم لتشكل قلب الشعب اليهودي والتي تحولت من حركة إحياء لمجموعة مزجت بين الانتماء الديني والعرقي والإثني والثقافي والارتباط مع المكان الجغرافي فلسطين حسب رواية صاغت الانتماء الجمعي للمنتمين لهذه الحركة، وهم غالبية أبناء اليهود. هذه الحركة مارست استعمار استيطاني تحول من استعمار استيطاني خيري، لاستعمار بديل واستعمار استغلالي في ظل تغيير في دور وشكل ومكانة دولة الأم الاستعمارية. هذه الدولة مزجت بين الخصوصية الدينية بما يحمله من أسطرة الإرث التوراتي التلمودي، وبين نماذج الاستعمار الحديث وعاملة لخلق هجين من أنماط الاستعمار لتحقيق روايتها ومشروعها المتحول من حال أحادية الأيديولوجية إلى حال تعددي إسرائيلي يتبنى مركبات الدولة الحديثة مع حفظ التميز والخصوصية العرقية، مع امتلاك موارد القوة والهيمنة الفوقية. في سبيل ذلك استخدمت الحركة الصهيونية سابقا ودولة إسرائيل مصفوفة ضبط وسيطرة، وأحد مركباتها التخطيط الحيزي التوجيهي والرسمي لتحديد استخدامات الأراضي وتوجيه استراتيجيات الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين، والتحويلات والتغيرات المبادر لها بموجب التخطيط الحيزي التوجيهي والرسمي. حاول هذا المقال إلقاء بعض الضوء من خلال عرض وسرد وتحليل ونقد العلاقة بين المشروع الصهيوني الاستعماري والتخطيط الحيزي على أنواعه ومستوياته. حيث كُشف وأوضح المقال عن جدلية العلاقة بين الاستعمار الاستيطاني الهجين وبين التخطيط الحيزي التوجيهي والرسمي. هذه الجدلية التي تطورت محققة للمشروع الصهيوني بحاجة لتوسع ونقد بدراسات إضافية مستقبلية.

### ملاحظات

<sup>١</sup> غوش إيمونيم هي حركة دينية-قومية غير مرتبطة بالعمل البرلماني الإسرائيلي. عملت بنشاط واسع في الفترة الواقعة بين ١٩٧٤ و١٩٨٨. وهي التي شكلت النشاط الاستيطاني اليهودي في الضفة الغربية وقطاع غزة. ومنطلق الحركة (أن من حق اليهودي إقامة استيطان له في كل موقع من أرض إسرائيل كجزء من خلاص وإنقاذ الأرض من الغرباء). انطلق استيطانها بإقامة مستوطنة ألون مورة شمال شرق نابلس، عام ١٩٧٤، التي تشكل مركزها، وبعد أن وصل حزب الليكود إلى الحكم عام ١٩٧٧ قدّمت الجماعة مشروعاً للحكومة لإنشاء ١٢ مستوطنة في الضفة الغربية، كانت حكومة العمال السابقة رفضت إنشاءها، فوافقت الحكومة الجديدة وتم إنشاء المستوطنات خلال عام ونصف، ثم قدّمت الجماعة مشروعاً آخر عام ١٩٧٨ عبارة عن خطة شاملة للاستيطان من خلال إقامة شبكة من المستوطنات الحضرية والريفية لتأكيد السيادة الإسرائيلية على المنطقة، ورغم أن الحكومة لم توافق على الخطة رسمياً، إلا أنه تم تدبير الاعتمادات الحكومية اللازمة لتنفيذها تدريجيا، وتم إنجاز هذه الخطة عمليا وهو ما نشهده واقعا في الضفة الغربية.

<sup>٢</sup> تم تحديدها وتعريفها في اتفاقيات مرحلية (اتفاق أوسلو ١٩٩٥) والتي عقدت بين إسرائيل والسلطة الوطنية الفلسطينية، حيث تشمل المنطقة ج على حوالي ٦٠٪ من مساحة الضفة الغربية وهي ما زالت تخضع للاحتلال الإسرائيلي الكامل وبينها تواصل إقليمي وبها تتركز كل المستعمرات، بينما تشمل منطقتي «أ» و «ب» اللتين تقعان تحت الإدارة الأمنية المدنية الداخلية للسلطة الوطنية الفلسطينية وتشكلان نحو ٤٠٪ من مساحة الضفة الفلسطينية.



- مدار - المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية ٢٢. ٢٠٢٢. يغال ألون. موسوعة المصطلحات. <https://www.madarcenter.org/%D%85%9D%88%9D%8B%3D%88%9D%8B%9D%8A%-9D%8A%7D%84%9D%9%85D%B%5D%8B%7D%84%9D%8AD%D%8A%7D%8AA/%-2263D%8A%7D%84%9D%88%9D%86%9D%8C-%D8%9A%D%8BA%D%8A%2D84%9>
- مصالحة، نور (١٩٩٧). أرض أكثر وعرب أقل: سياسة «الترانسفير» الإسرائيلية في التطبيق، ١٩٤٩ - ١٩٩٦. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية.
- هس، ميخال (٢٠٢١). رسم خريطة الاحتلال: الأدائية والهوية الإسرائيلية الهشة. قضايا إسرائيلية، عدد ٨١. ص. ٥٦-٦٩.
- يونان، ميخائيل (٢٠١٨). الطرق والمواصلات كمركب رئيسي بمصفوفة السيطرة والضبط الحيزي في القدس. فلسطين: رسالة ماجستير، جامعة القدس، أبوديس.

## المراجع العبرية

- أريئيل، شاؤول (٢٠٢٠). *أطلس معهد ترومان، خرائط الصراع اليهودي العربي*، نشر معهد ترومان، القدس. [https://truman.huji.ac.il/sites/default/files/truman/files/truman\\_atlas-arab2\\_pages.pdf](https://truman.huji.ac.il/sites/default/files/truman/files/truman_atlas-arab2_pages.pdf)
- أفرات، اليشع (٢٠٢٠). *جغرافية احتلال*. منشورات كرم، القدس.
- اسيف، شامي (٢٠٢٢). *مخطط استراتيجي حيزي لإسرائيل*. تل أبيب. <https://israel100.org/publications/2368/>
- حسون، شلومو (٢٠١٢). (محرر). *تصميم الحيز في إسرائيل: الخارطة الاستيطانية والأراضي*. كيتز. القدس.
- جيرمن عطره (٢٠٢٢). *رؤساء المستوطنات يتأملون: إقامة الحكومة تزيد من إمكانية منح رخص بناء من الإدارة المدنية*. مجلس المستوطنات. <https://www.makorrishon.co.il/news/551807/>
- جمعية السلام الآن (٢٠٢٢). *السكان والمستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية*. <https://peacenow.org.il/settlements-watch/matzav/population>.
- دائرة الإحصاء المركزية (٢٠٢١). *كتاب الإحصاء السنوي الإسرائيلي، الطابع الحكومي، القدس*. [https://www.cbs.gov.il/he/publications/doclib/2/2020.shnatonpopulation/st53\\_02.pdf](https://www.cbs.gov.il/he/publications/doclib/2/2020.shnatonpopulation/st53_02.pdf)
- رازين، عيران (٢٠١٠). (محرر). *تخطيط قطري، لوائي، وميتروبوليني بإسرائيل*. أبحاث فلورسهايمر، الجامعة العبرية. القدس.
- رايمخن، شالوم (١٩٧٧). *من القبض إلى أرض مستوطنة (مأخوذ لايرتس موشاف)*. القدس: يد بن تسفي.
- كونفرتي، يتسحاق (٢٠٠٩). اليهودي الجديد في الفكر الصهيوني: القومية، أيديولوجية والتاريخ. *إسرائيل*، عدد ١٦، ص. ٦٣-٩٦. [http://humanities1.tau.ac.il/zionism/templates/ol\\_similu/files/israel16/Israel16\\_conforti.pdf](http://humanities1.tau.ac.il/zionism/templates/ol_similu/files/israel16/Israel16_conforti.pdf)
- هوبرمان، حجابي (٢٠٠٨). *ضد كل الاحتمالات: سنوات الاستيطان يهودا والسامرة*. منشورات كتب نتسريم، القدس.
- يفتاحيل، أوران (٢٠٢١). *القوة والأرض: من الإثنوقراطية إلى الأبرتهايد الزاحف في إسرائيل، فلسطين*. دار النشر ريسلينغ، تل أبيب.

## المراجع الإنكليزية

- Aminzade, R. (2013). *Race, Nation, and Citizenship in Post-Colonial Africa: The Case of Tanzania*. New York, NY: Cambridge University Press.
- Andrees, F. (1997). A Planning Doctrine for Jerusalem? *International Planning Studies*, Vol. 2, No. 1, pp. 83-102.
- Ariel, S. (2017). *Messianism Meets Reality: The Israeli Settlement Project in Judea and Samaria: Vision or Illusion, 2016-1967*. Tel Aviv: Economic Cooperation Fund.
- Bhabha H. K. (1994). *The Location of Culture*. London. Routledge.
- Coon, A. (1992). *Town Planning Under Military Occupation, An Examination of the Law and Practice of Town Planning in the Occupied West Bank*. England: Dartmouth Publishing Company Limited.
- Gregory, D. (2004). *The colonial present*. New York, NY: Wiley.

- أبو ستة، سلمان حسين (٢٠١١). *أطلس فلسطين ١٩١٧-١٩٦٦*. هيئة أرض فلسطين، لندن. <https://le-calligraphe.com/book/93051>
- إيميه، سيزير (٢٠١٣). *خطاب عن الاستعمار*. بيروت: دار الفارابي.
- جبارين، يوسف (٢٠١٢). مخطط شارون وبناء «الوطن اليهودي». *قضايا إسرائيلية*، عدد ٤٧، ص. ٧٤-٩٣.
- جبارين، يوسف (٢٠١٣). *التخطيط القومي في إسرائيل، استراتيجيات الإقصاء والهيمنة*، مدار. رام الله.
- خمائسي، راسم (٢٠١٣). الثابت والمتغير في نمط الانتشار الجغرافي للعرب الفلسطينيين في إسرائيل، *الحصار*، عدد ٣، ص. ١٧-٥١.
- خمائسي، راسم (٢٠١٨). مصفوفة الضبط الممارسة لإحداث التغييرات الديموغرافية والحضرية الفلسطينية في القدس، في: *ملف ندوة قرار نقل السفارة الأميركية ووضع القدس القانوني والسياسي*، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ٢٤ شباط/فبراير، شوهده في ٨/١٩٧٧، في: <http://bit.ly/2JkZQ2>
- خمائسي، راسم (٢٠١٨). أصيدة التخطيط الحضري في القدس، *المستقبل العربي*، العدد ٤٧٥ (أيلول/سبتمبر)، ص. ٢٩-٥٥.
- خمائسي، راسم (٢٠١٩). بين المكان والإنسان والعقيدة الدينية/الجوسياسية/استشراف لتحديات التخطيط الحيزي الإسرائيلي، *استشراف للدراسات المستقبلية*، العدد ٤، ص. ٣٤-٦٦.
- خمائسي، راسم (٢٠٢٠). *السير ضد التيار: إشكاليات التخطيط الحيزي وتحدياته في منطقة الأغوار الفلسطينية نموذجاً*، مؤسسة الدراسات الفلسطينية. <https://www.palestine-studies.org/ar/node/1650469>
- خمائسي، راسم (٢٠٢١). الأرض والتخطيط والعمران، *كتاب دليل إسرائيل ٢٠٢٠*، مؤسسة الدراسات الفلسطينية. <https://www.palestine-studies.org/ar/node/#1650198>
- خمائسي، راسم (٢٠٢٢). التخطيط الحيزي والممارسة الاستعمارية الصهيونية في فلسطين، *المستقبل العربي*، العدد ٥٢٥، السنة ٤٥، ص. ٤٥-٥٨.
- ساند شلومو (٢٠١١). *اختراع الشعب اليهودي*، ترجمة سعيد عياش. مدار، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية. رام الله.
- سالم، وليد (٢٠١٢). الدولة الاستيطانية الاستعمارية بين أمريكا وجنوب إفريقيا وإسرائيل: مقارنة ومساهمة مفاهيمية. *المجلة العربية للعلوم السياسية*، العدد ٦، ص. ١٤٧-١٦٦.
- وفا- مركز المعلومات الفلسطيني (٢٠٢٢). *الأغوار الفلسطينية*، [https://info.wafa.ps/ar\\_page.aspx?id=9663](https://info.wafa.ps/ar_page.aspx?id=9663)
- عاصي، عمر (٢٠١٦). تحقيق خاص: كيف ولماذا أراد «الألمان» استعمار فلسطين. *إضاءات*، (١٣/١٦/٢٠١٦). <https://www.ida2at.com/how-and-why-germans-wanted-colonization-of-palestine>.
- عبد الحميد، علي (٢٠٠٥). *إدارة التخطيط العمراني في الأراضي الفلسطينية المحتلة بين تحديات الواقع وتطلعات المستقبل*. [https://staff.najah.edu/media/sites/default/files/Management\\_of\\_Physical\\_Planning\\_in\\_the\\_Occupied\\_Palestinian\\_Territories.pdf](https://staff.najah.edu/media/sites/default/files/Management_of_Physical_Planning_in_the_Occupied_Palestinian_Territories.pdf)
- عبد الستار، شريدة (٢٠١٠). *الأغوار الفلسطينية في مهبط التسريب*. لندن: مركز الشرق العربي للدراسات الحضارية والاستراتيجية.
- عدالة - المركز القانوني لحقوق الأقلية العربية في إسرائيل. *قانون أساس: إسرائيل - الدولة القومية للشعب اليهودي*. <https://www.adalah.org/uploads/uploads/%D%82%9D%8A%7D%86%9D%88%9D%2%86%9D%8A%3D%8B%3D%8A%7D%8B%20%-3D%8A%7D%84%9D%82%9D%88%9D%85%9D%8A%9D%8A9.pdf>

## المقاومة الرقمية الفلسطينية في قضية حي الشيخ جراح: دور الصفحات الشخصية على وسائل التواصل الاجتماعي في مواجهة محاولات التهجير والتهويد

ياسمين أغبر

معين الكوع

ملك أبو عيشة

هبة عط

### الملخص

هدفت الدراسة إلى توضيح دور الصفحات الشخصية للنشطاء الفلسطينيين على وسائل التواصل الاجتماعي في مواجهة محاولات التهجير والتهويد، من خلال تحليل تناول منى الكرد لقضية حي الشيخ جراح وتأثيرها للقضية عبر صفحاتها على الفيسبوك والإنستغرام والتويتر. ولتحقيق هذا الهدف استخدم الباحثون المنهج الوصفي التحليلي من خلال أداة التحليل الموضوعي، وتمثل مجتمع الدراسة في المنشورات التي نشرتها الكرد عبر صفحاتها الرسمية على المنصات المذكورة، فيما تشكلت عينة الدراسة من هذه المنشورات جميعها في الفترة الممتدة ما بين ٢٠٢١/٣/١ وحتى ٢٠٢١/١١/٣. والبالغ عددها (١٩٤) منشوراً. توصلت الدراسة إلى أن الكرد اعتمدت على الفيسبوك بشكل كبير عند الحديث عن قضية حي الشيخ جراح بنسبة ٤١,٢٪، وكذلك حاز موضوع الدعوة للمشاركة والتضامن مع أهالي حي الشيخ جراح على المرتبة الأولى في المواضيع التي ركزت عليها من خلال الفيسبوك بما نسبته ٢٥,٤٪، فيما كان موضوع صمود أهالي حي الشيخ جراح هو الأعلى على الإنستغرام بنسبة ١٨,٧٪، في حين كان موضوع التنديد بسياسة التطهير العرقي الإسرائيلي والاستيطان والتهجير القسري الأهم على تويتر بما نسبته ٢٦,٢٪، وكذلك كان إطار الاهتمامات الإنسانية هو الأكثر نسبة في الفيسبوك والإنستغرام وتويتر. توضح هذه النسب أن الكرد استخدمت استراتيجية نشر واعية تلائم طبيعة الجمهور المستهدف من كل منصة. وأوصت الدراسة بضرورة إجراء بحوث مستقبلية حول أساليب المقاومة الرقمية الفلسطينية التي تستخدمها الصفحات الأخرى مثل صفحة إهد ١٩٤ على الفيسبوك وتويتر، وضرورة استخدام الصفحات الشخصية للفيديوهات والإنفوجرافيك بشكل أكبر عند الحديث عن قضية حي الشيخ جراح، بالإضافة إلى أهمية أن يكون هناك دراسات متخصصة في تأطير وتناول الجانب الإسرائيلي لقضية حي الشيخ جراح على مواقع التواصل الاجتماعي.

الكلمات المفتاحية: المقاومة الرقمية، حي الشيخ جراح، القدس، مواقع التواصل الاجتماعي.

د. معين الكوع، جامعة القدس، معهد الإعلام العصري، للمراسلة - البريد الإلكتروني: [moeen@staff.alquds.edu](mailto:moeen@staff.alquds.edu).

هبة عط\*؛ ياسمين أغبر\*؛ ملك أبو عيشة\*

\*قسم الاتصال والعلاقات العامة، جامعة النجاح الوطنية.

حقوق النشر ٢٠٢٣، جميع البيانات الواردة في هذا المقال محمية ويجب أخذ إذن الاستخدام عن طريق جامعة القدس، ([www.alquds.edu](http://www.alquds.edu)).

- Kedar, A. Amara, A. And Yiftachel O. (2018). *Emptied Lands: A Legal Geography of Bedouin Rights in the Negev*. Stanford University Press.
- Khamaisi, R. (2008). From Imposed Ceasefire Line to International Border: The Issue of the Green Line between Palestine and Israel, *Journal of Borderlands Studies*, Vol. 23. No. 1, pp. 85-102.
- Khamaisi, R. (1997). Israeli Use of the British Mandate Planning Legacy as a Tool for the Control of Palestinians in the West Bank. *Planning Perspectives*, Vol. 12, No. 3, pp. 321-40.
- Lentin, R. (2017). *Race and Surveillance in the Settler Colony: The Case of Israeli Rule over Palestine*. Palgrave Communications. <https://www.nature.com/articles/palcomms2.1756.pdf>.
- Lloyd, D. (2012). Settler Colonialism and the State of Exception: The Example of Palestine/Israel. *Settler Colonial Studies*, Vol. 2, No.1, pp. 59-80, <https://www.tandfonline.com/doi/pdf/220147/10.108.3X.2012.10648826>.
- Mckay, S. And Murray, M. (eds.) (2017). *Planning Law and Practice in Northern – Ireland*, London: Routledge.
- Milner E. (2019). Devaluation, Erasure and Replacement: Urban Frontiers and the Reproduction of Settler Colonial Urbanism in Tel Aviv. *Environment and Planning D: Society and Space*, Vol. 38, No. 2, pp. 86-267.
- Morgensen, SL. (2011). The Biopolitics of Settler Colonialism: Right here, Right now. *Settler Colonial Studies*, Vol. 1, No. 1, pp. 52-76.
- Ram, U. (1993). Issues and Agendas: The Colonization Perspective in Israeli Sociology: Internal and External Comparison. *Journal of Historical Sociology*, Vol. 3, No. 6, pp. 31-330.
- Rouhana, N. And Sabbagh-Khoury, A. (2014). Settler-Colonial Citizenship: Conceptualizing the Relationship Between Israel and Its Palestinian Citizens. *Settler Colonial Studies*, Vol. 5, No. 3, pp. 225-205.
- Rouhana, N. (2017). Decolonization as Reconciliation: Rethinking the National Conflict Paradigm in the Israeli-Palestinian Conflict. *Ethnic and Racial Studies*. <https://www.tandfonline.com/doi/abs/0/10.1080.1419870.2017.1324999>.
- Shenhav, Y. And Berda Y. (2009). The Colonial Foundation of the State of Exception: Juxtaposing the Israeli Occupation of the Palestinian territories with Colonial Bureaucratic History. In: Ophir A, Givoni M and Hanafi S. (eds). *The Power of Inclusive Exclusion: Anatomy of Israeli Rule in the Occupied Palestinian Territories*. Zone. New York.
- Veracini, L. (2010). *Settler Colonialism*. Palgrave Macmillan.
- Weizman, E. (2007). *Hollow Land: Israel's Architecture of Occupation*. London: Verso.
- Yazbak, M. (1999). Templars as Proto-zionists? The «German Colony» in Late Ottoman Haifa. *Journal of Palestine Studies*, Vol. 4, No. 28, pp. 40-54.
- Yiftachel, O. (2012). Between Colonialism and Ethnocracy: `Creeping Apartheid` in Israel/Palestine. In: Neenah Na`eem (ed.). *Pretending Democracy: Israel An Ethnocratic State*, AMEC, Johannesburg, pp. 95-116.
- Yiftachel, O. (2010). From Sharon to Sharon: Spatial planning and Separation Regime in Israel/ Palestine. *HAGAR Studies un Culture, Polity and Identities*, Vol. 1, No. 10, pp. 73-106.
- Zureik, E. (2016). *Israel's Colonial Project in Palestine: Brutal Pursuit*. London, New York: Routledge.



# The Palestinian Digital Resistance in the East Jerusalem Neighborhood of Sheikh Jarrah: The Role of Personal Pages on Social Media in facing the Israeli Attempts of Displacement and Judaization

## Abstract

This study analyzed Mona A-Kurd's (a Palestinian activist who played a pivotal role in protests against Israel's forceful expulsion of Palestinian families from their homes in East Jerusalem) handling and framing of the Sheikh Jarrah neighborhood issue through her Facebook, Instagram, and Twitter pages. We used thematic analysis to achieve this goal. The study sample consisted of all Al-Kurd's posts published from March 1, 2021, to November 30, 2021, which were (194) posts. The study reveals that Al-Kurd relied on Facebook mainly to talk about the Sheikh's Jarrah issue, with 41.2% of the posts. The call for participation and solidarity with Sheikh Jarrah's people ranked first on the topics on Facebook, with a rate of 25.4%. Facebook is the most used platform by Palestinians using the Internet, with 95%. Posting pictures about the people of Sheikh Jarrah's steadfastness was the highest on her Instagram topics, with a rate of 18.7%. Denouncing the Israeli ethnic cleansing policy and settlement and forced displacement are the most important on Twitter, with a percentage of 26.2%. Most of her Twitter audience was from different countries rather than Palestine. She focused on human issues on Facebook, Instagram, and Twitter. These percentages reveal that Al-Kurd used a conscious posting strategy that fits each platform's audience. The study recommended that there is a necessity to conduct future research on the methods of Palestinian digital resistance. The study concluded that the personal pages of Palestinian activists on social media might play an essential role in communicating Palestinian issues regionally and internationally. The influence of Palestinian activists' pages on social media might play a more significant role than that of the governmental press and partisan channels, as their impact is more on the millennial generation.

**Keywords:** Digital Resistance, Sheikh Jarrah, Jerusalem, Social Media.

ونتيجة لهذا التطور في مجال التكنولوجيا الرقمية وشبكات التواصل الاجتماعي، ظهر في فلسطين مؤخراً مصطلح المقاومة الرقمية (Kelsch, 2022)، والتي يطلق عليها أيضاً المقاومة الإلكترونية (Shalhoub-Kevorkian, 2011)، التي يتم من خلالها تداول المعلومات والصور والفيديوهات المتعلقة بقضايا الشعب الفلسطيني، وفضح انتهاكات الاحتلال، وتعزيز صمود الفلسطينيين في مواجهة محاولات التهجير والتهويد، والتي استخدمت في قضية حي الشيخ جراح، حيث سرعان ما تحولت منصات التواصل الاجتماعي إلى ما يشبه ساحة حرب افتراضية بين مؤيدي دولة الاحتلال لما سموه الحق في الدفاع عن النفس، والمناصرين للشعب الفلسطيني من خلال سجال إلكتروني (Eghbariah & Khoury, 2022) عرف بإسم «حرب الهاشتاغات»، حيث انتشر في بداية الأمر بكثافة وسم #أنقذوا\_حي\_الشيخ\_جراح ليتبعه وسم #غزة\_تحت\_القصف، وشارك في نشره العديد من مشاهير العالم ما ساهم في إلقاء الأضواء بشكل أكبر على ما يحدث في فلسطين (فرانس، ٢٠٢١، ص. ٢٤). ومما لا شك فيه أن هناك صفحات شخصية لناشطين فلسطينيين وناشطات فلسطينيات، ساهمت بشكل ملحوظ في هذه المعركة الرقمية في مواجهة محاولات التهجير والتهويد. فعلى سبيل المثال، شكلت الشابة الفلسطينية منى الكرد أيقونة للنضال الإلكتروني في قضية حي الشيخ جراح في القدس المههدد بالمصادرة لصالح المستوطنين، وذلك من خلال تغطيتها الدائمة للانتهاكات الإسرائيلية المستمرة من خلال كاميرا هاتفها المحمول، واستطاعت أن تجعل من قضية هذا الحي قصة مهمة في جميع وكالات الأنباء العالمية (الوطن، ٢٠٢١). وعليه، تسعى هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على دور الصفحات الشخصية على وسائل التواصل الاجتماعي في مواجهة محاولات التهجير والتهويد.

## مشكلة الدراسة

شكلت الشابة الفلسطينية منى الكرد أحد الأمثلة في النضال الإلكتروني في قضية حي الشيخ جراح، حيث غطت بشكل مستمر انتهاكات الاحتلال الإسرائيلي من خلال كاميرا هاتفها المحمول، وصفحاتها على منصات التواصل الاجتماعي، حيث جذبت اهتمام وكالات الأنباء العالمية، ولذلك جاءت هذه الدراسة لتحليل تناول منى الكرد لقضية حي الشيخ جراح عبر صفحاتها على منصات الفيسبوك والإستغرام وتويتر؛ وعليه تتمثل مشكلة الدراسة في السؤال البحثي الرئيسي الآتي: كيف تناولت منى الكرد قضية حي الشيخ جراح عبر صفحاتها على الفيسبوك والإستغرام وتويتر؟ وينبثق عن هذا السؤال الرئيسي مجموعة من الأسئلة الفرعية، تتمثل فيما يأتي:

- ما أهم الموضوعات التي ركزت عليها منى الكرد عبر صفحات الفيسبوك والإستغرام وتويتر الخاصة بها في تناولها لقضية حي الشيخ جراح؟
- ما الفروقات في الموضوعات التي ركزت عليها منى الكرد عند تناولها لقضية حي الشيخ جراح ما بين الفيسبوك والإستغرام وتويتر، بما يتلاءم مع طبيعة المنصة الاجتماعية؟
- كيف أطرت منى الكرد هذه الموضوعات عبر صفحاتها على منصات التواصل الاجتماعي؟
- ما الفروقات في تأطير الكرد لهذه الموضوعات؟

## أهداف الدراسة

يتمثل الهدف الرئيسي للدراسة بإلقاء الضوء على دور الصفحات الشخصية للنشطاء الفلسطينيين على وسائل التواصل الاجتماعي في مواجهة محاولات التهجير والتهويد، وتتناول تحليل صفحات الناشطة منى الكرد عبر منصات الفيسبوك والإستغرام وتويتر نموذجاً، لمعرفة كيفية تناولها لقضية حي الشيخ جراح، للبناء على هذا النموذج الحي والناجح في المقاومة الرقمية، وينبثق عن هذا الهدف مجموعة من الأهداف الفرعية:

- التعرف على أهم الموضوعات التي ركزت عليها منى الكرد عبر صفحاتها على منصات التواصل الاجتماعي، المتمثلة في الفيسبوك والإستغرام وتويتر خلال تناولها لقضية حي الشيخ جراح.
- كشف آلية تأطير منى الكرد لهذه الموضوعات.
- الكشف عن الفروقات في الموضوعات التي ركزت عليها منى الكرد عند تناولها لقضية حي الشيخ جراح ما بين كل من صفحات الفيسبوك والإستغرام وتويتر الخاصة بها.
- الكشف عن الفروقات في تأطير منى الكرد لهذه الموضوعات من خلال صفحاتها المختلفة على منصات التواصل الاجتماعي.

## المقدمة

شهدت السنوات الأخيرة ثورة في تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات، فأصبحت عملية التواصل أكثر سهولة وأوسع نطاقاً لا سيما بوجود شبكات التواصل الاجتماعي التي تعمل على إتاحة الفرصة للتواصل بين أفراد العالم من خلال الفضاء المعلوماتي، وهي تضم في ربابها ملايين البشر، ويتم من خلالها مشاركة الاهتمامات وتكوين الصداقات وعقد الصفقات وغيرها من أوجه التفاعل (القحطاني، ٢٠٢٠). ساهمت هذه الشبكات الرقمية في تبادل الآراء والأفكار والخبرات بين المستخدمين حول مختلف القضايا، باعتبار هذه المنصات ساحات مفتوحة للحوار، حيث لعبت شبكات التواصل الاجتماعي الرقمية دوراً فعالاً في مد الجمهور بكثير من المعلومات والمواقف والاتجاهات، مساهمةً بذلك في تشكيل وعيه، وإعداده ليكون أكثر قدرة على التأثير في الآخرين واستمالتهم. أدى تزايد عدد المشتركين في تلك الشبكات الرقمية، وبخاصة الشباب العربي إلى تصاعد تأثيرها ودورها في المجتمع، وإسهامها في التحولات الجارية، وزيادة مستوى منافستها لوسائل الإعلام التقليدية في تشكيل الرأي العام حول العديد من القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فقد استطاعت شبكات التواصل الاجتماعي الرقمية إبراز الأحداث الجارية في العالم بصورة أكثر فعالية من الإذاعة والتلفزيون وغيرهما من الوسائل الإعلامية (Goodman et al., 2023).

وعليه، اعتمدت هذه الدراسة على هذه النظرية لملائمتها لموضوع الدراسة، وانسجامها مع أهدافها بتحديد الموضوعات التي ركزت عليها منى الكرد عند تناولها لقضية حي الشيخ جراح عبر صفحاتها على منصات الفيسبوك والإستغرام وتويتر.

### نظرية التأطير الإعلامي

تعرف نظرية التأطير الإعلامي بأنها عملية تفاعلية تتم بين مكونات العملية الاتصالية بهدف إبراز جوانب محددة من القضية المطروحة، وإغفال جوانب أخرى، بما يتناسب مع أيديولوجية القائم بالاتصال بهدف تفسير الأحداث، وتحديد المشكلات، وتشخيص الأسباب، والبحث عن حلول وتأطيرها بما يتوافق والسياسية التحريرية للمؤسسة الإعلامية (حسونة، ٢٠١٥). وتعد نظرية التأطير إطار مفاهيمي لفهم وبناء الحجج والبراهين والأدلة للجمهور، «ويساعد التأطير في تحديد معنى الرسالة من خلال التركيز الانتباه على عناصر معينة، واستبعاد المناقشة أو العناصر المشتتة للانتباه أو المتناقضة، فهو أمر أساسي لإنشاء وتحسين العلاقات متبادلة المنفعة لأنه يساعد المنظمات والجمهور على تطوير إطار مشترك حول قضية معينة». (Heath, 2013, p. 199) وتفترض النظرية بأن الأحداث تكتسب مغزاهما من خلال وضعها في إطار يحددها وينظمها ويضفي عليها قدرًا من الاتساق من خلال التركيز على بعض جوانب الموضوع وإغفال جوانب أخرى، وأن الإطار الإعلامي هو الذي يحدد جوانب القضية ويعطي لها مغزى معيناً؛ فالإطار الخبري يضيف المعنى أو المغزى على الخبر بحيث يكون له دلالة وأهمية لدى الجمهور، كما يحدد لهم المدخل أو الزاوية التي يمكن رؤية الخبر من خلالها، فوسائل الإعلام تمارس تأثيراً ذا دلالة في تشكيل معارف الرأي العام واتجاهاته نحو القضايا المختلفة خلال فترة زمنية معينة (السعيد وأمين، ٢٠٢٠).

وصنف كل من Valkenburg و Sumiko عدداً من الأطر الخيرية البارزة والتي تستخدم بشكل مستمر من قبل العديد من الدراسات الخاصة بالأطر الإعلامية، وهي: (السعيد وأمين، ٢٠٢٠).

- إطار الصراع: ويتنشر استخدام هذا الإطار في التغطيات الإخبارية، ويعكس عنصر الصراع بين طرفين متضادين، سواءً كانا بين أفراد أم جماعات أو غيرها.
- إطار الاهتمامات الإنسانية: ويختص بالأبعاد الإنسانية للقضية المطروحة حيث يعكس البعد العاطفي والجانب الشخصي لموضوع التغطية.
- إطار النتائج الاقتصادية: يركز هذا الإطار على الجانب الاقتصادي، وتأثيراته المختلفة سواءً المتعلقة بالفرد أو المجتمع ككل.
- إطار المسؤولية: يربط هذا الإطار بين الأفراد أو الجماعات وبين المسؤولية عن حل القضية المطروحة والحل المتوقع لها.
- إطار الاستراتيجية: يرى هذا الإطار الأحداث في سياقها الاستراتيجي المؤثر على أمن الدولة القومي، يتلاءم مع الأحداث السياسية والعسكرية (الحمود وآخرون، ٢٠١٦).
- إطار المبادئ الأخلاقية: عرض الوقائع في السياق الأخلاقي والقيمي للمجتمع، يخاطب المعتقدات والمبادئ الراسخة عند المتلقي، قد يستشهد القائم بالاتصال بالاقتباسات والأدلة الدينية التي تدعم سوجه للوقائع أو بالمصادر والجماعات المرجعية التي تؤكد هذا الإطار (الحمود وآخرون، ٢٠١٦).

وعليه، تم توظيف هذه النظرية لملائمتها لموضوع الدراسة وانسجامها مع أهداف الدراسة التي تبحث في كيفية تأطير منى الكرد للموضوعات عند تناولها لقضية حي الشيخ جراح عبر صفحاتها على الفيسبوك والإستغرام وتويتر.

### المقاومة الرقمية

قدمت شبكات التواصل الاجتماعي نوعاً جديداً من المقاومة اصطلح على تسميته بـ«المقاومة الرقمية» (Eschmann, 2021)، حيث تساعد هذه الشبكات في تشكيل شبكات المقاومة وتقوية الحركات الاجتماعية (Jackson, Bailey & Welles, 2020)، وهو ما عبر عنه Hill (2018) بمصطلح «الجمهير الرقمية المضادة» التي تتحدى الهياكل والروايات المهيمنة. ركزت العديد من الدراسات على دور الحركات الاجتماعية في المقاومة الرقمية في مجتمعات مختلفة، فعلى سبيل المثال، استكشفت دراسة لي وآخرون كيف يُولد النشاط الرقمي الناجح تغييراً اجتماعياً، حيث تبدأ الحركات رقمياً، ويتم تنظيمها وتنسيقها عبر الإنترنت دون أي حضور مادي أو وجود لحملة غير متصلة بالإنترنت مسبقاً. ركزت الدراسة

تتلخص أهمية هذه الدراسة في أنها ستشكل تراكمية للبحث العلمي في مجال المقاومة الرقمية بشكل عام، والمقاومة الرقمية الفلسطينية بشكل خاص، من خلال إلقاء الضوء على دور الصفحات الشخصية للنشطاء الفلسطينيين على وسائل التواصل الاجتماعي في مواجهة محاولات التهجير والتهويد. بالإضافة إلى ذلك خرجت الدراسة بمجموعة من التوصيات من شأنها أن تساعد النشطاء الفلسطينيين، وصناع القرار في الحكومة الفلسطينية بشكل عام ووزارة الخارجية بشكل خاص في التعرف على كيفية مساهمة الصفحات الشخصية للنشطاء الفلسطينيين في تعزيز القضية الفلسطينية على مواقع التواصل الاجتماعي المختلفة، وأهمية ذلك في إيصال الرواية الفلسطينية إلى العالم من خلال دبلوماسية المواطن، وضرورة دعم هذا النموذج من الدبلوماسية الشعبية الرقمية.

### حدود الدراسة

الحدود الزمانية: ١ مارس/ آذار ٢٠٢١ وحتى ٣٠ نوفمبر/ تشرين ثاني ٢٠٢١، وتم اختيار هذه الفترة الزمنية بسبب ظهور قضية حي الشيخ جراح على الواجهتين الإعلامية والميدانية.

الحدود المكانية: صفحات منى الكرد على الفيسبوك (Muna Nabeel Elkurd)، والإستغرام (muna.kurd15)، وتويتر (muna.kurd).

### المحددات

لم تحلل هذه الدراسة تعليقات الجمهور، وطبيعة الجمهور الذي يتابع صفحات منى الكرد على مواقع التواصل الاجتماعي، وعليه يمكن للدراسات المستقبلية أن تعمل على ذلك.

## الإطار النظري

### نظرية وضع الأجندة

اعتمدت الدراسة الحالية على نظرية وضع الأجندة والتي تُعرف بنظرية ترتيب الأولويات والتي تُعنى بدراسة العلاقة التبادلية بين وسائل الإعلام والجمهير التي تتعرض لتلك الوسائل في تحديد أولويات القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تهتم المجتمع (حسونة، ٢٠١٥)، ويعرف جيمس واستون نظرية وضع الأجندة على أنها مجموعة من الموضوعات، والتي في العادة يتم ترتيبها حسب أهميتها (Waston, 2008). وتنطلق النظرية من قضية هامة وهي أن الإعلام ووسائله المتنوعة تنمي معارف الجمهور، وتضع لهم القضايا التي يفكرون فيها، وتركز على الشخصيات والأحداث التي يهتم بها الجمهور، وتفترض هذه النظرية أنّ وسائل الإعلام لا تستطيع أن تقدّم جميع الموضوعات والقضايا التي تقع في المجتمع، وإنما يختار القائمون على هذه الوسائل بعض الموضوعات التي يتم التركيز عليها بشدّة والتحكّم في طبيعتها ومحتواها، وهذه الموضوعات تثير اهتمام الناس تدريجياً وتجعلهم يدركونها ويفكرون فيها، ومن ثمّ تمثّل هذه الموضوعات لدى الجماهير أهمية أكبر نسبياً من الموضوعات التي لا تطرحها وسائل الإعلام (حسونة، ٢٠١٥).

تعد وسائل التواصل الاجتماعي ذات صلة ليس فقط بالاتصال السياسي بشكل عام، ولكن أيضاً في وضع جدول الأعمال، حيث «أدى الارتفاع السريع لوسائل الإعلام الاجتماعية إلى توفير سبل جديدة لوضع جدول الأعمال السياسي الذي له تأثير ملحوظ بشكل متزايد» (Lewandowsky, Jetter & Ecker, 2020, p. 2)، فقد أنشأ الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي «أنظمة ووسائل هجينة» جديدة أدت إلى زيادة عدد وأنواع الجهات الفاعلة التي قد تكون قادرة على تشكيل الخطاب السياسي وترتيب أولويات الجمهور المستخدم لهذه المنصات (Jungheer, Posegga & An, 2019). وعليه ظهرت العديد من الدراسات التي ناقشت تأثير وسائل التواصل الاجتماعي في وضع الأجندة، ومنها دراسة King, Schmeer & White (2017)، والتي بينت أن الجمهور يتأثر بشكل كبير بما يتم نشره على منصات التواصل الاجتماعي، وبينت دراسة Fezell (2018) أن الناس يرون أن المشكلات تكون أكثر بروزاً إذا تعرضوا لها على منصة الفيسبوك، أما دراسة Shapiro and Hemphill (2017)، فقد بينت أن وسائل الإعلام تستجيب وتتفاعل مع ما يتم نشره عبر وسائل التواصل الاجتماعي، وقد أوضحت دراسة Fazekas et al. (2021) بأن وسائل التواصل الاجتماعي ساعدت السياسيين على توسيع مناقشة القضايا التي يناقشونها، وبالتالي سمحت بتدفق المعلومات من النخب إلى الجمهور بوتيرة أكبر مما كانت عليه سابقاً في عصر الإعلام التقليدي.



على حالة حركة العمالقة النائمون Sleeping Giants، وهي حركة عبر الإنترنت قادت أكثر من ٤٠٠ مؤسسة إلى سحب عقودها الإعلانية من Breitbart News Network، وهي شركة يمينية متطرفة تدير موقع إلكتروني مشترك للأخبار والآراء والتعليقات، تأسس في منتصف عام ٢٠٠٧ من قبل الأمريكي المحافظ أندرو بريتبارت Andrew Breitbart، حيث وصف الأكاديميون والصحفيون محتوى Breitbart News بأنه معاد للنساء ومُولد لكرهية الأجانب وعنصري. بينت الدراسة أن المقاومة الرقمية لخطاب الكراهية من خلال حركة العمالقة النائمون كان ناجحاً بسبب المزاي الفريدة للنشاط عبر الإنترنت، حيث ظل قادتها الـ ١٦ مجهولين لمدة ٢٠ شهراً، وهو أمر غالباً ما يكون مستحيلًا في الحركات غير المتصلة بالإنترنت، ما سمح لهم بحرية العمل، وقلل من المخاطر التي كان من الممكن أن يتعرضوا لها (Li, Bernard & Luczak, 2018). وهذا ما أكدت عليه دراسة Gillespie (2018) والتي أكدت أن النشاط عبر الإنترنت أصبحوا آلية رئيسية في تعريف وفرض سياسات تعديل المحتوى في المنصات الإلكترونية.

أما في السياق الفلسطيني فقد بينت دراسة Lev-On (2018)، والتي أكدت على أن منصات التواصل الاجتماعي تُستخدم أثناء حالات الطوارئ للوصول إلى الجماهير والتأثير على الرأي العام، وأنها فعالة ومباشرة تتخطى وسائل الإعلام الرئيسية في التواصل مع أصحاب المصلحة. وهذا ما أكدته أيضاً دراسة المدهون ووافي (٢٠١٦)، والتي بينت أن مواقع التواصل الاجتماعي تلعب دوراً إيجابياً في تعبئة الرأي العام الفلسطيني، وأن الرأي العام يتأثر بقضية ما من خلال كثافة تداولها على صفحات مواقع التواصل الاجتماعي.

### منى الكرد

ناشطة وصحفية مقدسية من سكان حي الشيخ جراح تنتمي لعائلة الكرد، وهي إحدى العائلات في حي الشيخ جراح، وفي عام ٢٠٠٩ أصدرت سلطات الاحتلال قراراً بتمكين مستوطنين إسرائيليين من السكن في جزء من منزل عائلة الكرد، وبذلك أصبحوا مشتركين في المنزل والمدخل (الوطن، ٢٠٢١)، وعملت منى الكرد منذ أن كانت في سن الثانية عشر على توثيق محاولات المستوطنين الاستيلاء على منازل أهالي حي الشيخ جراح، وعند بلوغها سن الثالثة والعشرين تحولت منى رمزاً عالمياً للحي الذي يُنكّل الاحتلال الإسرائيلي بأهله بين الحين والآخر (وكالة الأناضول، ٢٠٢١). ومن الجدير بالذكر أن عدد متابعي منى الكرد على الفيسبوك ٢٢٣,٠٤١ متابع، وعلى الإنستغرام ١,٦٠٠ متابع، وعلى تويتر ١٠٣,٤٠٠ متابع حتى تاريخ إعداد الدراسة. أدرجت مجلة «تايم» (Time) الأميركية منى الكرد، وشقيقها التوأم محمد، ضمن أكثر ١٠٠ شخصية مؤثرة في العالم لعام ٢٠٢١، في قائمة شملت العديد من المشاهير والممثلين والرواد والسياسيين من حول العالم (الجزيرة، ٢٠٢١)، حيث عمل التوأم من خلال هاتف محمول وكاميرا، على توثيق العنف شبه اليومي الذي يشهده من قبل المستوطنين المسلحين والشرطة العسكرية، ولم يعرفا في ذلك الحين من سيهتم بأمر هيهما في القدس الشرقية، لكن الأرقام بدأت في الارتفاع، وفجأة كان الجميع يتحدثون عن توأم الشيخ جراح، وفي غضون أشهر قليلة، تابعهما الآلاف على مواقع التواصل الاجتماعي، من بينهم السياسية الأميركية ألكساندريا أوكاسيو-كورتيز (الجزيرة، ٢٠٢١).

### حي الشيخ جراح

أُنشئ حي الشيخ جراح في الجانب الشمالي من البلدة القديمة في مدينة القدس عام ١٩٥٦ بموجب اتفاقية وقعت بين وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين «الأونروا»، والحكومة الأردنية ليستوعب الحي آنذاك ٢٨ عائلة فلسطينية هُجرت من أراضيها عام ١٩٤٨، ويقع الحي في القدس الشرقية الذي بات تحت سيطرة دولة الاحتلال عقب حرب ١٩٦٧، وسُمي بهذا الاسم نسبةً إلى الأمير حسام الدين بن شرف الدين عيسى الجراحي، طبيب صلاح الدين الأيوبي القائد الذي تحول إلى رمزٍ لأجيال متعاقبة منذ نحو ٩٠٠ عام (إبراهيم، ٢٠٢١).

وتفيد مصادر تاريخية بأن عائلات فلسطينية معروفة سكنت الحي مثل عائلة النشاشيبي، ولطالما سعت دولة الاحتلال إلى السيطرة على الحي بسبب موقعه المهم الذي يربط بين شرق القدس وغربها، ويخضع حي الشيخ جراح لإدارة بلدية القدس الإسرائيلية، وتُقدر مساحته بنحو ٨.٨ دونمات، أما عدد السكان القاطنين فيه فيبلغ حوالي ٢٨٠٠ نسمة، وينقسم الحي إلى شطرين متفاوتين بشدة اقتصادياً وخدمتياً، وهما الجزء العلوي الأكثر ازدهاراً والذي يضم المرافق الترفيهية ومكاتب المجتمع الدولي ومؤسساته الرسمية، والجانب السفلي الذي يحتضن اللاجئين منذ منتصف القرن المنصرم، حيث يعاني الأخير بنية تحتية متهاكلة وأوضاعاً مزرية، ويشهد مواجهات مستمرة مع السلطات الإسرائيلية (إبراهيم، ٢٠٢١).

### أحداث أيار ٢٠٢١. ٢٠م في حي الشيخ جراح

بدأت أحداث أيار ٢٠٢١، في ٦ مايو/أيار ٢٠٢١ في مواجهات بمدينة القدس نتيجة لقرار المحكمة العليا لدولة الاحتلال بإخلاء سبع عائلات فلسطينية من منازلها في حي الشيخ جراح لإسكان مستعمرين إسرائيليين. تفجرت الأحداث مساء يوم الجمعة الأخيرة من شهر رمضان ٢٠٢١ أي في ٧ مايو ٢٠٢١م، الموافق ٢٥ رمضان ١٤٤٢هـ، عندما اقتحم آلاف من جنود شرطة الاحتلال باحات المسجد الأقصى واعتدوا على المصلين، ما أسفر عن إصابة أكثر من ٢٠٥ فلسطيني في المسجد الأقصى وباب العامود والشيخ جراح، لتندلع عقبها مواجهات عنيفة صباح يوم الإثنين ١٠ مايو/أيار ٢٠٢١ الموافق ٢٨ رمضان ١٤٤٢هـ بعد اقتحام آلاف من أفراد الشرطة الإسرائيلية المسجد الأقصى، وأسفرت عن إصابة أكثر من ٣٣١ مدنياً فلسطينياً كان بينهم ٧ حالات خطيرة في المسجد الأقصى ومحيط البلدة القديمة. تزامنت المواجهات مع الأيام العشر الأواخر من شهر رمضان ١٤٤٢هـ بالنسبة للفلسطينيين، ويوم دمع شطري القدس بالنسبة لدولة الاحتلال. نتيجة لهذه الأحداث أصدرت المقاومة الفلسطينية بياناً من قطاع غزة أمهلت فيه دولة الاحتلال حتى السادسة مساءً لسحب جنودها من باحات الأقصى وإطلاق سراح المعتقلين (آر تي، ٢٠٢١). ونتيجة لعدم استجابة دولة الاحتلال لمطالب المقاومة أطلقت الأخيرة رشقة صاروخية من قطاع غزة باتجاه المستعمرات الإسرائيلية مع انتهاء المهلة التي حدتها المقاومة. أدى ذلك إلى شن الطيران الحربي لدولة الاحتلال سلسلة من الغارات المكثفة على القطاع تسببت باستشهاد ٢٦ فلسطينياً، من بينهم ما يزيد على ٦٦ طفلاً، وإصابة ١,٩٤٨ فلسطينياً، بينهم ٦١ طفلاً (هيومن رايتس ووتش، ٢٠٢١). وحسب البيانات الرسمية لدولة الاحتلال، فقد وصلت حصيلة الخسائر لديها إلى ١٢ قتيلًا و٣٣٥ جريحاً (آر تي، ٢٠٢١). انتهت الاشتباكات بوقف لإطلاق النار دخل حيز التنفيذ في الساعة الثانية فجرًا من يوم الجمعة ٢١ مايو/أيار ٢٠٢١، وذلك بوساطة دولية قادتها مصر، حيث استمر التصعيد العسكري في القطاع ١١ يوماً متتالياً (سكاي نيوز عربية، ٢٠٢١).

### الدراسات السابقة

تعددت الدراسات السابقة في مواضيعها التي لها علاقة بشكل أو بآخر مع الدراسة الحالية، فمنها ما تناول الحقوق الرقمية للفلسطينيين على وسائل التواصل الاجتماعي، ومنها ما تناول استخدام منصات التواصل الاجتماعي في تعزيز المشاركة المجتمعية في المقاومة الرقمية في سياقات مختلفة، ومنها الصراع السياسي. فعلى سبيل المثال هدفت دراسة الكوع وأبو حسن (٢٠٢٢) إلى معرفة مدى تأثير سياسات شركات التواصل الاجتماعي، وانتهاكات الاحتلال الإسرائيلي على الحقوق الرقمية الفلسطينية بالاعتماد على المقابلات المعمقة مع مجموعة من النشطاء الفلسطينيين الذين تعرضوا لإغلاق صفحاتهم على «الفيسبوك»، ومنهم من تعرض للاعتقال لدى دولة الاحتلال على خلفية نشاطهم الرقمي، حيث بينت النتائج أن الحقوق الرقمية للفلسطينيين يتم انتهاكها على حد سواء من قبل شركات التواصل الاجتماعي نفسها، ومن دولة الاحتلال الإسرائيلي، وأجهزتها الاستخبارية، من خلال تنسيق مستمر ودؤوب بينهما، ما جعل هذه الحقوق تحت مطرقة دولة الاحتلال وسندان شركات التواصل الاجتماعي، والذي يعني حرمان الفلسطينيين من حقوقهم الرقمية بشكل كامل، حيث أن تواطؤ شركات التواصل الاجتماعي مع سياسات دولة الاحتلال القمعية للحقوق الرقمية للفلسطينيين يعني بشكل صريح تمييز هذه الشركات لصالح الجلاذ على حساب الضحية؛ ففي حين يعاني الفلسطينيون من الاحتلال على أرض الواقع، تعزز شبكات التواصل الاجتماعي هذا الاحتلال رقمياً. وبنيت الدراسة أيضاً أن غياب العدالة الرقمية، واستمرار الاحتلال بالقمع الرقمي وانحياز مواقع التواصل الاجتماعي، تتوجب تكثيف الجهود لتعزيز التضامن الرقمي، والحقيقي لإسناد حقوق الإنسان الفلسطيني الرقمية التي تعد امتداداً لحقوق الإنسان. وهذا ما أكدته دراسة Trillò (2018) بأن عدم المساواة في الوصول إلى هذه الشبكات يعيق بشكل كبير إمكانات وسائل التواصل الاجتماعي كمساحة للمشاركة السياسية.

أما دراسة Sutkutè (2016) فقد هدفت إلى فهم تأثير الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي على المجتمع كنتيجة للتفاعل بين التكنولوجيا والهياكل الاجتماعية والسياسية والثقافية. بينت الدراسة أن وسائل التواصل الاجتماعي تُتيح الفرصة للمباردين والمشاركين في الحركات الاجتماعية لبناء مجتمعات جديدة على الإنترنت تشترك في الاهتمامات والمواقف والقيم المشتركة، حيث تعتمد الحركات الجديدة على نشاط وسائل التواصل الاجتماعي، وبالتالي فإن تمثيلها يعتمد على القدرة على التكيف مع قواعد مجال الإنترنت، وأن المباردين والمشاركين في الحركات الجديدة عبر الإنترنت يعملون على تحقيق أهدافهم بشكل خلاق للفرص التي توفرها وسائل التواصل الاجتماعي، وبالتالي يصبح المجال العام متجسداً في مشاركتهم المستقلة في التعبير عن اهتماماتهم في مناقشات المجتمعات الافتراضية.

وبشكل مشابه مع اختلاف السياق المكاني هدفت دراسة المدهون ووافي (٢٠١٦) إلى معرفة دور مواقع التواصل الاجتماعي في تعبئة الرأي العام الفلسطيني لدعم حقوقه السياسية من خلال استخدام المنهج الوصفي بالاعتماد على أداة الاستبانة، حيث تكون مجتمع الدراسة من طلبة الجامعات الفلسطينية النظامية في قطاع غزة (الأقصى، والإسلامية، والأزهر)، فيما تشكلت عينة الدراسة من ٤٠٠ مبحوثاً باستخدام العينة العشوائية، وتوصلت الدراسة إلى أن تداول الحقوق السياسية الفلسطينية عبر مواقع التواصل كان منخفضاً وليس كافياً، وأن مواقع التواصل الاجتماعي تلعب دوراً إيجابياً في تعبئة الرأي العام الفلسطيني، وأن الرأي العام يتأثر بقضية ما من خلال كثافة تداولها على صفحات مواقع التواصل الاجتماعي.

وفي سياق استخدام وسائل التواصل الاجتماعي في المقاومة الرقمية، بينت دراسة Ruhanya و Matsilele (2020) أن وسائل التواصل الاجتماعي قد مكنت نوعاً جديداً من انتشار الكلمة التي تتحرك أسرع من عربات الشرطة وتعتبر الحدود، وتبني الشبكات، وتسمح بالتعاون لمقاومة الممارسات الاستبدادية بطرق مختلفة، لجعل السلطة قابلة للمساءلة وديمقراطية، حيث تغذي وسائل التواصل الاجتماعي بشكل مباشر رغبة المواطنين وشعورهم وإدراكهم والتواصل معهم.

أما دراستي Koa (2018، 2021) فقد بينت كيف تقدم الحركات الاجتماعية رواية مضادة ومقاومة لرواية السلطة في ظل الاحتدام السياسي، من خلال دراستها لحالة الإخوان المسلمين في مصر ما بعد الرئيس السابق محمد مرسي، حيث أطلقت الجماعة حملة اتصال سياسي متطورة لتلميع صورتها بعد سقوطها في تموز ٢٠١٣ بهدف كسب قلوب وعقول الجمهور، حيث استخدمت عدة استراتيجيات لزيادة التعاطف العام، والحفاظ على علاقتها مع الجماهير المحلية، من خلال تصوير الحركة نفسها على أنها قوة خير ضد الشر، مستغلة الثنائيات المتضادة. ولتعزيز هذه الفكرة، قارن الإخوان بين الممارسات السلبية للنظام المصري والسلوك الإيجابي للإخوان، حيث أن مثل هذه المقارنات تساعد الإخوان على الظهور كحركة مثالية. أما دراسة Akçali (2019) فقد هدفت إلى استكشاف الدور السياسي لوسائل التواصل الاجتماعي من خلال التركيز على حالة الفيسبوك ومطالبات تقرير المصير للقبازصة الأتراك تجاه تركيا، بالاعتماد على الإثنوغرافيا الافتراضية لمواقع ومجموعات فيسبوك ذات الصلة، ومعرفة ما إذا كانت وسائل التواصل الاجتماعي تقدم منصة عامة مبتكرة لسياسات تقرير المصير أو المطالبات عبر الإنترنت كتلك التي يتم تشكيلها والتفاوض بشأنها في الواقع بنفس الطريقة مثل تلك الموجودة خارج الإنترنت، حيث بينت النتائج إلى أن نشاط القبازصة الأتراك على فيسبوك يهدف إلى تقوية مجتمعهم، وحماية خصائصهم المميزة عن تركيا القارية وزيادة احترامهم لذاتهم، بدلاً من الإشارة إلى مطالب بالحكم الذاتي الكامل بالمعنى السياسي التقليدي للدولة.

وعليه يمكن القول بأن معظم الدراسات السابقة ركزت على استخدام الحركات الاجتماعية لمنصات التواصل الاجتماعي في إيصال صوتها للجماهير المختلفة، بينما تتفرد هذه الدراسة بموضوعها وهدفها الذي يسعى إلى فهم الدور الذي يمكن أن تقوم به الصفحات الشخصية على وسائل التواصل الاجتماعي في مواجهة محاولات التهجير والتهويد، من خلال دراستها لصفحات منى الكرد وتناولها لقضية حي الشيخ جراح.

## الطريقة والإجراءات

### أدوات الدارسة

استخدمت الدراسة الحالية أداة التحليل الموضوعي (Thematic analysis) الذي يعرف بأنه طريقة لتحديد وتنظيم وتقديم نظرة ثاقبة لأنماط المعنى عبر مجموعة من البيانات بشكل منهجي من خلال التركيز على المعنى في الرسائل الإعلامية، وهو طريقة لتحديد القواسم المشتركة في المحتوى الاتصالي الذي من خلاله يتم الحديث عن الموضوع أو الكتابة عنه وفهم تلك القواسم (Braun & Clarke, 2012)، وتم استخدامه في هذه الدراسة لمعرفة آلية تناول وتأطير منى الكرد لقضية حي الشيخ جراح عبر صفحات الفيسبوك والإنستغرام وتويتر الخاصة بها.

### مجتمع الدراسة

يتكون مجتمع الدراسة من المنشورات والتغريدات التي تنشرها منى الكرد عبر صفحاتها الرسمية على كل من الفيسبوك والإنستغرام وتويتر.

### عينة الدراسة

تكونت عينة الدراسة من المنشورات والتغريدات التي نشرتها منى الكرد عبر صفحاتها الرسمية على كل من الفيسبوك والإنستغرام وتويتر فيما يتعلق بقضية حي الشيخ جراح في الرسمية في الفترة الممتدة ما بين ١ مارس/ آذار ٢٠٢١ وحتى ٣٠ نوفمبر/ تشرين ثاني ٢٠٢١، والبالغ عددها (١٩٤) منشوراً. أنظر جدول رقم (١).

القناة	التكرار	%
الفيسبوك	80 منشوراً	41.2%
الإنستغرام	67 منشوراً	34.5%
تويتر	47 منشوراً	24.3%
<b>المجموع</b>	<b>194 منشوراً</b>	<b>100%</b>

جدول رقم (١) عدد منشورات منى الكرد على الفيسبوك وتويتر وإنستغرام

يشير جدول رقم (١) إلى أن صفحة منى الكرد على الفيسبوك كانت أعلى نسبة من مجموع المنشورات التي تم تناولها خلال فترة الدراسة حيث بلغ عدد المنشورات ٨٠ منشور أي ما نسبته ٤١,٢٪، ويليه صفحة منى الكرد على الإنستغرام حيث بلغ مجموع المنشورات خلال فترة الدراسة ٦٧ منشور أي بنسبة ٣٤,٥٪، كما ونلاحظ أن أقل عدد منشورات خلال فترة الدراسة كان على صفحة منى الكرد على تويتر حيث بلغ عدد المنشورات ٤٧ منشوراً أي ما نسبته ٢٤,٣٪ من المنشورات التي تم تحليلها.

## النتائج

الموضوعات التي ركزت عليها منى الكرد عبر كل من الفيسبوك والإنستغرام وتويتر عند تناولها لقضية حي الشيخ جراح بعد تحليل محتوى منشورات منى الكرد على صفحاتها على منصات الفيسبوك وإنستغرام وتويتر توصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

الموضوع	التكرار	%
١ الدعوة للمشاركة والتظاهر والتضامن مع أهالي حي الشيخ جراح	32	25.4%
٢ التنديد في سياسية التطهير العرقي الإسرائيلي والاستيطان والتهجير القسري ضد سكان حي الشيخ جراح	25	19.8%
٣ صمود أهالي حي الشيخ جراح	22	17.5%
٤ اعتداءات الاحتلال والمستوطنين على أهالي حي الشيخ جراح	17	13.5%
٥ لا علاقة له في الشيخ جراح	12	9.5%
٦ وحدة الشعب الفلسطيني وأهالي حي الشيخ جراح	10	7.9%
٧ المشاركة في الحملة الرقمية ونشر هاشتاغ #انقذواحي_الشيخ_جراح	8	6.4%
<b>المجموع</b>	<b>126</b>	<b>100%</b>

جدول رقم (٢) الموضوعات التي تناولتها منى الكرد على صفحاتها على الفيسبوك

يشير جدول رقم (٢) إلى أن موضوع الدعوة للمشاركة والتظاهر والتضامن مع أهالي حي الشيخ جراح كان الأكثر تناولاً خلال فترة الدراسة على الفيسبوك حيث بلغ تكرار هذا الموضوع ٣٢ مرة أي بنسبة ٢٥,٤٪، وأن موضوع التنديد في سياسية التطهير العرقي الإسرائيلي والاستيطان والتهجير القسري ضد سكان حي الشيخ جراح بلغ تكراره ٢٥ مرة أي بنسبة ١٩,٨٪، وكذلك بلغ تكرار موضوع صمود أهالي حي الشيخ جراح ٢٢ مرة بما نسبته ١٧,٥٪، ويليه موضوع اعتداءات الاحتلال والمستوطنين على أهالي حي الشيخ جراح بتكرار ١٧ مرة أي بنسبة ١٣,٥٪، فيما كان تكرار المنشورات التي لا علاقة لها في الشيخ جراح (أي منشورات عامة، مثل المعاديات، والحديث عن موضوعات عامة، وانتهاكات دولة الاحتلال في فلسطين) ١٢ مرة، بما نسبته ٩,٥٪، وبلغ تكرار وحدة الشعب الفلسطيني وأهالي حي الشيخ جراح ١٠ مرات، بنسبة ٧,٩٪، والمشاركة في الحملة الرقمية ونشر هاشتاغ #انقذواحي\_الشيخ\_جراح كان الأقل تناولاً على قناة الفيسبوك خلال فترة الدراسة حيث بلغ تكرار هذا الموضوع ٨ مرات أي بنسبة ٦,٤٪.



## تأطير منى الكرد للموضوعات أثناء تناولها لقضية حي الشيخ جراح على كل من الفيسبوك والإستغرام وتويتر

الإطار	التكرار	%
1 إطار الاهتمامات الإنسانية	58	65.9%
2 إطار الصراع	17	19.3%
3 إطار المسؤولية	11	12.5%
4 الإطار الأخلاقي	2	2.3%
5 إطار النتائج الاقتصادية	0	0%
6 الإطار الاستراتيجي	0	0%
<b>المجموع</b>	<b>*88</b>	<b>100%</b>

**\*\*** يختلف عدد الأطر في الجدول أعلاه عن عدد المنشورات في جدول (1) وهي 80 منشوراً فيسبوكياً تم تحليلها، بسبب أن هناك بعض المنشورات لمنى الكرد تم تصنيفها في أكثر من إطار في الجدول (5).

جدول رقم (5) تأطير منى الكرد لقضية الشيخ جراح على الفيسبوك

يشير جدول رقم (5) إلى أن إطار الاهتمامات الإنسانية الأكثر تكراراً حيث بلغ التكرار 58 أي نسبة 65,9٪، ويليه إطار الصراع حيث بلغ التكرار 17 أي بنسبة 19,3٪، ويليه إطار المسؤولية حيث بلغ التكرار 11 أي بنسبة 12,5٪، وكان الأقل تكراراً إطار الأخلاقية حيث بلغ التكرار 2 أي بنسبة 2,3٪، ولم تستخدم أي من الإطار الاستراتيجي وإطار النتائج الاقتصادية.

الإطار	التكرار	%
1 إطار الاهتمامات الإنسانية	45	75%
2 إطار الصراع	8	13.3%
3 إطار المسؤولية	5	8.3%
4 الإطار الأخلاقي	2	3.3%
5 إطار النتائج الاقتصادية	0	0%
6 الإطار الاستراتيجي	0	0%
<b>المجموع</b>	<b>*60</b>	<b>100%</b>

**\*** يختلف عدد الأطر في الجدول أعلاه عن عدد المنشورات في جدول (1) وهي 67 منشوراً على تطبيق إنستغرام تم تحليلها، بسبب أن هناك بعض المنشورات لمنى الكرد تم تصنيفها في أكثر من إطار في الجدول (6).

جدول رقم (6) تأطير منى الكرد لقضية الشيخ جراح على الإستغرام

يشير جدول رقم (6) إلى أن إطار الاهتمامات الإنسانية كان الأكثر تكراراً حيث بلغ التكرار 45 أي بنسبة 75٪، ويليه إطار الصراع حيث بلغ التكرار 8 أي بنسبة 13,3٪، ويليه إطار المسؤولية حيث بلغ التكرار 5 أي بنسبة 8,3٪، وكان الأقل تكراراً إطار الأخلاقية حيث بلغ التكرار 2 أي بنسبة 3,3٪، ولم تستخدم أي من الإطار الاستراتيجي وإطار النتائج الاقتصادية.

الإطار	التكرار	%
1 إطار الاهتمامات الإنسانية	16	29.1%
2 إطار المسؤولية	15	27.3%
3 إطار الصراع	12	21.8%
4 لا إطار	7	12.7%
5 الإطار الأخلاقي	5	9.1%
6 إطار النتائج الاقتصادية	0	0%
7 الإطار الاستراتيجي	0	0%
<b>المجموع</b>	<b>*55</b>	<b>100%</b>

**\*** يختلف عدد الأطر في الجدول أعلاه عن عدد المنشورات في جدول (1) وهي 47 منشوراً على صفحة منى الكرد في تويتر، بسبب أن هناك بعض المنشورات لمنى الكرد تم تصنيفها في أكثر من إطار في الجدول (7).

جدول رقم (7) تأطير منى الكرد لقضية الشيخ جراح على تويتر

الموضوع	التكرار	%
1 صمود أهالي حي الشيخ جراح	20	18.7%
2 الدعوة للمشاركة والتظاهر والتضامن مع أهالي حي الشيخ جراح	19	17.7%
3 التنديد في سياسية التطهير العرقي الإسرائيلي والاستيطان والتهمير القسري ضد سكان حي الشيخ جراح	17	15.9%
4 وحدة الشعب الفلسطيني وأهالي حي الشيخ جراح	17	15.9%
5 اعتداءات الاحتلال والمستوطنين على أهالي حي الشيخ جراح	14	13.1%
6 لا علاقة له في الشيخ جراح	13	12.1%
7 مطالب أهالي حي الشيخ جراح	7	6.6%
<b>المجموع</b>	<b>*107</b>	<b>100%</b>

**\*** يختلف عدد الموضوعات في الجدول أعلاه عن عدد المنشورات في جدول (1) وهي 67 منشوراً على تطبيق إنستغرام تم تحليلها، بسبب أن هناك بعض المنشورات لمنى الكرد تناولت أكثر من موضوع من المواضيع الواردة في الجدول (3).

جدول رقم (3) الموضوعات التي تناولتها منى الكرد على صفحتها على الإستغرام

يشير جدول رقم (3) إلى أن موضوع صمود أهالي حي الشيخ جراح كان الأكثر تناولاً خلال فترة الدراسة على الإنستغرام حيث بلغ تكرار هذا الموضوع 20 أي بنسبة 18,7٪، والدعوة للمشاركة والتظاهر والتضامن مع أهالي حي الشيخ جراح كان تكراره 19 مرة بما نسبته 17,7٪، فيما حاز موضوع التنديد في سياسية التطهير العرقي الإسرائيلي والاستيطان والتهمير القسري ضد سكان حي الشيخ جراح وموضوع وحدة الشعب الفلسطيني وأهالي حي الشيخ جراح على نسب متساوية حيث بلغ تكرار كل موضوع 17 مرة بنسبة 15,9٪، ويليهما موضوع اعتداءات الاحتلال والمستوطنين على أهالي حي الشيخ جراح بتكرار 14 مرة بما نسبته 13,1٪، فيما كان تكرار المنشورات التي لا علاقة لها في الشيخ جراح 13 مرة بما نسبته 12,1٪ وأن موضوع مطالب أهالي حي الشيخ جراح كان الأقل تناولاً على قناة الإنستغرام خلال فترة الدراسة حيث بلغ تكرار هذا الموضوع 7 أي بنسبة 6,6٪.

الموضوع	التكرار	%
1 التنديد في سياسية التطهير العرقي الإسرائيلي والاستيطان والتهمير القسري ضد سكان حي الشيخ جراح	16	26.2%
2 صمود أهالي حي الشيخ جراح	11	18%
3 اعتداءات الاحتلال والمستوطنين على أهالي حي الشيخ جراح	9	14.8%
4 مطالب أهالي حي الشيخ جراح	7	11.5%
5 المشاركة في الحملة الرقمية ونشر هاشتاغ #انقدوا_حي_الشيخ_جراح	7	11.5%
6 الدعوة للمشاركة والتظاهر والتضامن مع أهالي حي الشيخ جراح	6	9.8%
7 مقابلات مع أهالي حي الشيخ جراح	5	8.2%
<b>المجموع</b>	<b>*61</b>	<b>100%</b>

**\*** يختلف عدد الموضوعات في الجدول أعلاه عن عدد المنشورات في جدول (1) وهي 47 منشوراً على صفحة منى الكرد في تويتر، بسبب أن هناك بعض المنشورات تناولت أكثر من موضوع من المواضيع الواردة في الجدول (4).

جدول رقم (4) الموضوعات التي تناولتها منى الكرد على صفحتها على تويتر

يشير جدول رقم (4) إلى أن موضوع التنديد في سياسية التطهير العرقي الإسرائيلي والاستيطان والتهمير القسري ضد سكان حي الشيخ جراح كان الأكثر تناولاً خلال فترة الدراسة في تويتر حيث بلغ تكرار هذا الموضوع 16 أي بنسبة 26,2٪، وأن موضوع صمود أهالي حي الشيخ جراح بلغ تكراره 11 مرة بنسبة 18,8٪، وموضوع اعتداءات الاحتلال والمستوطنين على أهالي حي الشيخ جراح بتكرار 9 مرة أي بنسبة 14,8٪، فيما حاز موضوع مطالب أهالي حي الشيخ جراح وموضوع المشاركة في الحملة الرقمية ونشر هاشتاغ #انقدوا\_حي\_الشيخ\_جراح بنسب متساوية حيث كان تكرار كل موضوع 7 بنسبة 11,5٪، ويليه موضوع الدعوة للمشاركة والتظاهر والتضامن مع أهالي حي الشيخ جراح حيث بلغ تكراره 6 وبنسبة 9,8٪، وموضوع مقابلات مع أهالي حي الشيخ جراح كان الأقل تناولاً على قناة تويتر خلال فترة الدراسة حيث بلغ تكرار هذا الموضوع 5 أي بنسبة 8,2٪.

يشير جدول رقم (٧) إلى أن إطار الاهتمامات الإنسانية كان الأكثر تكراراً حيث بلغ التكرار ١٦ أي بنسبة ٢٩,١٪، ويليه إطار المسؤولية حيث بلغ التكرار ١٥ أي بنسبة ٢٧,٣٪، ويليه إطار الصراع حيث بلغ التكرار ١٢ أي بنسبة ٢١,٨٪، ونلاحظ أن هناك منشورات كانت بلا أطر حيث بلغ التكرار ٧ أي بنسبة ١٢,٧٪، وكان الأقل تكراراً إطار الأخلاقية حيث بلغ التكرار ٥ أي بنسبة ٩,١٪، ولم تستخدم أي من الأطر الاستراتيجية وإطار النتائج الاقتصادية.

## ملخص النتائج

توصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

- استخدمت منى الكرد الفيسبوك بشكل كبير في تناولها لقضية حي الشيخ جراح حيث نشرت خلال فترة الدراسة على الفيسبوك ما نسبته ٤١,٢٪ من إجمالي مجموع منشوراتها على الفيسبوك والإنستغرام وتويتر، وكان استخدامها لتويتر هو الأقل حيث أنها نشرت خلال فترة الدراسة ما نسبته ٢٤,٣٪ من إجمالي منشوراتها على المواقع آنفة الذكر.
- ركزت منى الكرد عند حديثها عن قضية حي الشيخ جراح على الفيسبوك على موضوع الدعوة للمشاركة والتظاهر والتضامن مع أهالي هذا الحي بنسبة ٢٥,٤٪ من إجمالي مجموع منشوراتها عليه، بينما كان تركيزها على موضوع المشاركة في الحملة الرقمية ونشر وسم أنقذوا\_حي\_الشيخ\_جراح قليل جداً بما نسبته ٦,٤٪ من منشوراتها على الفيسبوك.
- ركزت منى الكرد على موضوع صمود أهالي حي الشيخ جراح عند تناولها للقضية على الإنستغرام بنسبة ١٨,٧٪ من إجمالي مجموع منشوراتها عليه، فيما كان تركيزها على موضوع مطالب أهالي حي الشيخ جراح هو الأقل بما نسبته ٦,٦٪.
- سلطت منى الكرد الضوء في تويتر على موضوع التنديد بسياسية التطهير العرقي الإسرائيلي والاستيطان والتهمير القسري بشكل كبير بنسبة ٢٦,٢٪ من إجمالي مجموع منشوراتها عليه، بينما كان تركيزها على موضوع نشر مقابلات مع أهالي حي الشيخ جراح هو الأقل بما نسبته ٨,٢٪ من إجمالي منشوراتها عليه.
- كان هناك فروقات في ترتيب الموضوعات التي تناولتها منى الكرد على مواقع التواصل الاجتماعي قيد الدراسة عند تناولها لقضية حي الشيخ جراح حيث كان موضوع الدعوة للمشاركة والتظاهر والتضامن مع أهالي هذا الحي الأعلى على الفيسبوك بنسبة ٢٥,٤٪ من إجمالي مجموع منشوراتها عليه، بينما حاز موضوع صمود أهالي حي الشيخ جراح على المرتبة الأولى على الإنستغرام بما نسبته ١٨,٧٪، وكان موضوع التنديد بسياسة التطهير العرقي الإسرائيلي والاستيطان والتهمير القسري الأهم على تويتر بنسبة ٢٦,٢٪.
- استخدمت منى الكرد إطار الاهتمامات الإنسانية بشكل كبير وبارز عند تأطير قضية حي الشيخ جراح على الفيسبوك والإنستغرام وتويتر بما نسبته ٦٥,٩٪، ٧٥٪، ٢٩,١٪.
- أطر منى الكرد قضية حي الشيخ جراح بإطار أخلاقي بشكل قليل جداً على كل من فيسبوك وإنستغرام وتويتر بما نسبته ٢,٣٪، ٣,٣٪، ٩,١٪.
- لم تستخدم منى الكرد إطاري النتائج الاقتصادية والاستراتيجية في تأطيرها لقضية حي الشيخ جراح على كل من فيسبوك وإنستغرام وتويتر.
- ليس هناك فروقات في الأطر التي استخدمتها منى الكرد على مواقع التواصل الاجتماعي قيد الدراسة عند تناولها لقضية حي الشيخ جراح حيث كان إطار الاهتمامات الإنسانية في المرتبة الأولى على فيسبوك وإنستغرام وتويتر، بينما كان الإطار الأخلاقي الأقل على هذه المنصات.
- اعتمدت منى الكرد على النص والصورة بشكل كبير في منشوراتها على مواقع التواصل الاجتماعي قيد الدراسة عند تناولها لقضية حي الشيخ جراح.

## مناقشة النتائج

كشفت الدراسة الحالية بأن منى الكرد تطرح عبر صفحاتها على وسائل التواصل الاجتماعي المتمثلة في فيسبوك وتويتر وإنستغرام عدة أطر تتمثل في إطار الاهتمامات الإنسانية، وإطار الصراع، وإطار المسؤولية، والإطار الأخلاقي بنسب مختلفة وفقاً لترتيبها في الجداول (٥، ٦، ٧) وهذا يتفق بشكل كبير مع تصنيفات كل من Sumiko و Valkenburg للأطر الإعلامية في نظرية التأطير الإعلامي (الحمود وآخرون، ٢٠١٦)، ويتناسب أيضاً مع الفكرة

العامة لتشكيل الإطار الإعلامي التي تقوم على أنها عملية هادفة تعتمد فيها وسائل الإعلام والقائمون بالاتصال على إعادة المحتوى الإخباري ووضعه في إطار اهتمامات المتلقين وإدراكهم أو الاقتناع بالمعنى أو المغزى الذي تستهدفه بعد إعادة التنظيم (السعيد وأمين، ٢٠٢٠).

وعند تحليل الموضوعات التي تناولتها منى الكرد على مواقع التواصل الاجتماعي قيد الدراسة فقد كانت ١٥ موضوعاً في الفيسبوك تم تنظيمها ودمجها لتصبح ٧ مواضيع، وكذلك كانت في الإنستغرام ١٩ موضوعاً تم تنظيمها ودمجها لتصبح ٧ مواضيع، وموضوعات تويتر كانت ١٣ موضوعاً تم تنظيمها ودمجها لتصبح ٧ مواضيع، ومن ناحية أخرى كشفت الدراسة بأن منى الكرد تتناول على صفحاتها على مواقع التواصل الاجتماعي المتمثلة في فيسبوك وتويتر وإنستغرام سبعة موضوعات متشابهة في المضمون ولكنها مختلفة في نسبها على كل منصة تتمثل في الدعوة للمشاركة والتظاهر والتضامن مع أهالي حي الشيخ جراح، والتنديد في سياسة التطهير العرقي الإسرائيلي، والاستيطان والتهمير القسري ضد سكان حي الشيخ جراح، وصمود أهالي حي الشيخ جراح، واعتداءات الاحتلال والمستوطنين على أهالي حي الشيخ جراح، ووحدة الشعب الفلسطيني وأهالي حي الشيخ جراح، والمشاركة في الحملة الرقمية ونشر وسم #أنقذوا\_حي\_الشيخ\_جراح.

وهذا الأمر يتفق بشكل واضح مع تعريف جيمس واستون لنظرية وضع الأجندة على أنها «مجموعة من الموضوعات عادة يكون ترتيبها حسب أهميتها» (حسونة، ٢٠١٥، ص. ٥). ومن منطلق نظرية وضع الأجندة النظرية فإن الكرد سعت إلى تنمية معارف الجمهور بهذه القضايا، بحيث تصبح من القضايا التي يفكرون فيها، فبحسب النظرية فإن القائم بالاتصال لا يستطيع أن يقدم جميع الموضوعات والقضايا التي تقع في المجتمع، وإنما يختار بعض الموضوعات التي يتم التركيز عليها بشدة والتحكم في طبيعتها ومحتواها، وهذه الموضوعات تثير اهتمام الناس تدريجياً وتجعلهم يدركونها ويفكرون فيها، ومن ثم تمثل هذه الموضوعات لدى الجماهير أهمية أكبر نسبياً من الموضوعات التي لا يتم طرحها (حسونة، ٢٠١٥، ص. ٧). فمن خلال المنصات الثلاثة سعت الكرد إلى ترتيب أجندة الجمهور المتابع لحساباتها على منصات التواصل الاجتماعي حول قضايا تخدم قضيتها الأساسية كونها من ضمن العائلات المهتدة بالتهجير، وهذا يتفق مع الدراسات التي بينت أن وسائل التواصل الاجتماعي ذات صلة ليس فقط بالاتصال السياسي بشكل عام، ولكن أيضاً في وضع جدول الأعمال، بسبب الانتشار السريع لوسائل الإعلام الاجتماعية التي توفر سبل جديدة لوضع جدول أعمال الجمهور (Lewandowsky, Jetter & Ecker, 2020).

وبالتالي يمكن القول أن وضع أجندة الجمهور لم يعد محصوراً بوسائل الإعلام التقليدية، بل أن الأفراد يمكنهم المساهمة بذلك، فقد بينت الدراسات أن وسائل التواصل الاجتماعي أدت إلى زيادة عدد وأنواع الجهات الفاعلة التي قد تكون قادرة على تشكيل الخطاب السياسي وترتيب أولويات الجمهور المستخدم لهذه المنصات (Jung Herr, Poseg- (2019). وعلى الرغم من أن الدراسة الحالية لم تدرس مدى تفاعل الجمهور مع منشورات الكرد إلا أن العديد من الدراسات التي ناقشت تأثير وسائل التواصل الاجتماعي في وضع الأجندة، ومنها دراسة King, Schner & White (2017)، بينت أن الجمهور يتأثر بشكل كبير بما يتم نشره على منصات التواصل الاجتماعي، وهذا يتماشى أيضاً مع دراسة Fezell (2018) التي بينت أن الناس يرون أن المشكلات تكون أكثر بروزاً إذا تعرضوا لها على منصات التواصل الاجتماعي.

وأما بخصوص نتائج هذه الدراسة في ضوء الدراسات السابقة المذكورة آنفاً، فاستندت هذه الدراسة على منصات التواصل الاجتماعي على الإنترنت كسابقاتها من الدراسات ولكنها بحثت في الموضوعات والأطر التي ركزت عليها منى الكرد عند حديثها عن قضية حي الشيخ جراح على صفحات الفيسبوك والإنستغرام وتويتر الخاصة بها في حين ركزت الدراسات السابقة على دور مواقع التواصل الاجتماعي في تشكيل الرأي في القضايا السياسية وعلى الصراع السبيرياني، إلا أن الدراسة الحالية اختلفت في أنها ركزت على مواقع التواصل الاجتماعي وقضية حي الشيخ جراح، وكانت نتائج هذه الدراسة مختلفة عن نتائج الدراسات السابقة حيث أنها كشفت أن منى الكرد استخدمت منصة الفيسبوك أكثر من إنستغرام وتويتر بنسبة ٤١,٢٪ استخدمت الفيسبوك بشكل أساسي للدعوة للتظاهر والتضامن مع أهالي حي الشيخ جراح، وإنستغرام للتأكيد على صمودهم، وتويتر للتنديد بالتطهير العرقي الإسرائيلي والاستيطان والتهمير القسري، وأحد نتائج هذه الدراسة تشابهت بشكل كبير مع دراسة المدهون ووافي (٢٠١٦) التي تفيد بأن الفيسبوك كان الأكثر استخداماً ما بين الشباب الفلسطيني بنسبة ٩٨,٢٪، ومع دراسة Koa (2021) التي بينت أن وسائل التواصل الاجتماعي تقدم للحركات الاجتماعية فرصة لتقديم رواية مضادة ومقاومة لرواية السلطة في ظل الاحتدام السياسي.



على العكس من دراسة Akçali (2019) التي بينت أن نشاط القبارصة الأتراك على فيسبوك يهدف إلى تقوية مجتمعهم، وحماية خصائصهم المميزة عن تركيا القارية وزيادة احترامهم لذاتهم، بدلاً من الإشارة إلى مطالب بالحكم الذاتي الكامل بالمعنى السياسي التقليدي للدولة، ترى الدراسة الحالية أن منصات التواصل الاجتماعي قد تكون أداة فعالة في المقاومة الرقمية في ظل المعوقات والقيود التي يفرضها الاحتلال الإسرائيلي على أرض الواقع، بالرغم من وجود قيود تفرضها سياسات وسائل التواصل الاجتماعي والرقابة الإسرائيلية على المحتوى الفلسطيني والتي بينتها دراسة الكوع وأبو حسن (٢٠٢٢).

وفي هذه الدراسة كان موضوع الدعوة للمشاركة والتظاهر والتضامن مع أهالي حي الشيخ جراح حصة الأسد على منصة الفيسبوك من منشورات منى الكرد بما نسبته ٢٥,٤٪ وهذا يدل على اهتمام منى الكرد في الحصول على التضامن الشعبي وتواجد المتضامنين الفلسطينيين في حي الشيخ جراح بشكل يومي. فيما نجد بأن هناك اختلافاً على الإنستغرام في الموضوع الأكثر أهمية الذي تناولته منى الكرد حيث حاز موضوع صمود أهالي حي الشيخ جراح على ما نسبته ١٨,٧٪ من إجمالي الموضوعات وهذه إشارة واضحة إلى أن منى الكرد أرادت إيصال رسالة للجمهور بأن أهالي حي الشيخ جراح صامدون في بيوتهم ولن يخرجوا منها مهما ضيقت عليهم سلطات الاحتلال والمستوطنين. فيما كان موضوع التنديد بسياسة التطهير العرقي الإسرائيلي والاستيطان والتطهير القسري ضد سكان حي الشيخ جراح الأكثر بروزاً على تويتر بنسبة ٢٦,٢٪ من إجمالي الموضوعات، وهذا يدل على رغبة منى الكرد بالتأكيد على أن ما يحدث في حي الشيخ جراح هو جريمة حرب وتطهير عرقي وتهجير قسري.

أما بالنسبة للأطر الخيرية المستخدمة في منشورات منى الكرد على صفحات الفيسبوك والإنستغرام وتويتر الخاصة بها فقد استخدمت كل من إطار الاهتمامات الإنسانية، والصراع، والمسؤولية، والإطار الأخلاقي، في حين لم تستخدم أبداً الإطارين الاستراتيجي والنتائج الاقتصادية، وهذا يدل على رغبة منى الكرد في التركيز على الجانب الإنساني والعاطفي في قضية حي الشيخ جراح، بالإضافة إلى الحديث عن الصراع الدائم ما بين الفلسطينيين والاحتلال والمستوطنين في القدس بشكل عام وحي الشيخ جراح بشكل خاص، وكذلك تحميل المسؤولية للمجتمع الدولي عن ما يحدث في هذا الحي.

استخدمت منى الكرد إطار الاهتمامات الإنسانية بشكل كبير جداً في منشوراتها على صفحات الفيسبوك والإنستغرام وتويتر الخاصة بها حيث كانت النسبة ٦٥,٩٪، ٧٥٪، ٢٩,١٪، وذلك من أجل إظهار معاناة أهالي حي الشيخ جراح من الاستيطان والمستوطنين وإثارة عواطف العالم. فعلى سبيل المثال، نشرت منى الكرد على الإنستغرام بتاريخ ٢٥ آب/ أغسطس ٢٠٢١ منشوراً يحتوي على قصيدة كتبها ميسون الكرد أم منى بعد اعتقال قوات الاحتلال الإسرائيلي لجارهم في حي الشيخ جراح مراد عطية، وفي هذا المنشور كم من المشاعر والعواطف الإنسانية من خلال الحديث عن حب والدة منى الكرد لمراد كحبها لأبنائها، والحديث عن عواطف وإحساس أم مراد بعد اعتقال ابنها، وهذا يدل على استخدام منى الكرد لإطار الاهتمامات الإنسانية في أنسنة قضية حي الشيخ جراح.

وبخصوص إطار الصراع فقد استخدمته منى الكرد في منشوراتها على صفحات الفيسبوك والإنستغرام حيث كان في المرتبة الثانية بنسبة ١٩,٣٪، ١٣,٣٪، وعلى تويتر المرتبة الثالثة بنسبة ٢١,٨٪، وركزت منى الكرد على إطار الصراع في منشوراتها لتوضيح طبيعة الصراع الوجودي ما بين المقدسيين والاحتلال والمستوطنين في القدس بشكل عام وحي الشيخ جراح بشكل خاص. فعلى سبيل المثال نشرت منى الكرد منشوراً على الفيسبوك بتاريخ ٢٦ حزيران/ يونيو ٢٠٢١ يظهر تحرش لفظي لجندي من قوات الاحتلال على أصالة القاسم من أهالي حي الشيخ جراح أثناء عودتها لمنزلها مروراً بحاجز على مدخل الحي، وتوضح منى الكرد بأنها عندما حاولت فضح الجندي تم الاعتداء عليهم بالضرب واعتقالها وإرسالها إلى مركز الشرطة، حيث أن هذا المنشور يدل على وجود صراع دائم ما بين الاحتلال وأهالي حي الشيخ جراح. وأما فيما يتعلق باستخدام منى الكرد لإطار المسؤولية في منشوراتها فقد جاء في المرتبة الثالثة على الفيسبوك وإنستغرام بما نسبته ١٢,٥٪، ٨,٣٪، وفي المرتبة الثانية على تويتر بنسبة ٢٧,٣٪ حيث كان هدف الكرد من استخدام هذا الإطار تحميل بعض الجهات المختصة المسؤولية عن حماية وما يجري لسكان الحي كالأونروا، والحكومة الأردنية، والمجتمع الدولي، والسلطة الفلسطينية، وحكومة الاحتلال. فعلى سبيل المثال نشرت الكرد على الفيسبوك بتاريخ ٢ تشرين ثاني/ نوفمبر ٢٠٢١ بياناً صادراً عن أهالي وحدات حي الشيخ جراح يحتوي في فقرته الأخيرة على تحميل لكل

من حكومة الاحتلال والأونروا، والحكومة الأردنية، والمجتمع الدولي، والسلطة الفلسطينية مسؤولية سرقة بيوتهم. أما بخصوص الإطار الأخلاقي فقد استخدمته منى الكرد بشكل قليل جداً في منشوراتها على صفحات الفيسبوك وإنستغرام وتويتر الخاصة بها، حيث جاء في المرتبة الرابعة على كل من الفيسبوك وإنستغرام وتويتر بما نسبته ٢,٣٪، ٣,٣٪، ٩,١٪، وقد استخدمته من أجل الحديث عن بعض القضايا الأخلاقية التي تتعلق بوحدة الشعب الفلسطيني والتكاتف الشعبي وسياسات الفيسبوك للأخلاقية في التحيز للجانب الإسرائيلي من خلال تقييد المحتوى الرقمي الفلسطيني. على سبيل المثال نشرت الكرد على صفحتها على الإنستغرام بتاريخ ٦ حزيران/ يونيو ٢٠٢١ منشوراً يحتوي على دعوة لمستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي للمشاركة في حملة #فيسبوك\_يعدمنا حيث تتحدث في هذا المنشور عن الجانب للأخلاقي في الفيسبوك الذي يعمل على إعدام محتوى القضية الفلسطينية.

## الخاتمة

هدفت الدراسة الحالية إلى تحليل تناول وتأثير منى الكرد لقضية حي الشيخ جراح عبر صفحات الفيسبوك، والإنستغرام، وتويتر الخاصة بها في الفترة الممتدة ما بين ١ آذار/مارس ٢٠٢١، وحتى ٣ تشرين ثاني/ نوفمبر ٢٠٢١، باستخدام أداة التحليل الموضوعي، وقد بينت نتائج الدراسة بأن منى الكرد اعتمدت على الفيسبوك بشكل أساسي في الحديث عن موضوع قضية الشيخ جراح، وحاز موضوع الدعوة للمشاركة والتضامن مع أهالي حي الشيخ جراح على المرتبة الأولى في المواضيع التي ركزت عليها على الفيسبوك بما نسبته ٢٥,٤٪، فيما كان موضوع صمود أهالي حي الشيخ جراح هو الأعلى على الإنستغرام بنسبة ١٨,٧٪، وكان موضوع التنديد بسياسة التطهير العرقي الإسرائيلي والاستيطان والتطهير القسري الأهم على تويتر بما نسبته ٢٦,٢٪، وكذلك كان إطار الاهتمامات الإنسانية هو الأكثر نسبة في الفيسبوك وإنستغرام وتويتر. وبالتالي يمكن القول أن الكرد حاولت ترتيب أولويات متابعتها بما يعكس رؤيتها كأحد الفاطنين في الحي. وهذا ما يتوافق مع ما جاء به جيلارد وآخرون في أن المنصات الرقمية قللت من قوة حراسة البوابة للوسائط التقليدية، وزادت من قدرة أنواع مختلفة من الجهات الفاعلة على تشكيل جدول الأعمال (Gilardi, Gessler, Kubli, & Müller 2022)، ومع دراسة Matsilele وRuhanya (2020) في أن وسائل التواصل الاجتماعي قد مكنت نوعاً جديداً من انتشار الكلمة التي تنتشر بسرعة وتعبر الحدود، وتسمح بالتعاون لمقاومة الممارسات الاستبدادية بطرق مختلفة، ومع دراسة Sutkutè (2016) التي بينت أن وسائل التواصل الاجتماعي تُتيح الفرصة للمباردين والمشاركين في الحركات الاجتماعية على تحقيق أهدافهم بشكل خلاق للفرص التي توفرها وسائل التواصل الاجتماعي، وبالتالي يصبح المجال العام متجسداً في مشاركتهم المستقلة في التعبير عن اهتماماتهم في مناقشات المجتمعات الافتراضية.

## الاستنتاجات

مما سبق نستنتج الآتي:

- إن تركيز الكرد على استخدام الفيسبوك للدعوة والمشاركة والتضامن مع أهالي حي الشيخ جراح، وهو المنصة التي يستخدمها أكثر من ٩٥٪ من مستخدمي الإنترنت في فلسطين، وتركيزها على قضية التطهير العرقي من خلال تويتر، وهو المنصة الموجهة للجماهير غير الفلسطينية، وتركيزها على نشر معاناة أهالي حي الشيخ جراح من خلال الصور على إنستغرام؛ ينم عن وجود استراتيجية نشر واعية لديها، حيث تم توجيه المنشورات بما يتلاءم مع طبيعة جمهور كل منصة.
- قد يكون تأثير الصفحات الشخصية للناشطين الفلسطينيين على مواقع التواصل الاجتماعي أكثر من وسائل الإعلام والقنوات الحزبية، حيث يكون تأثيرها أكثر على جيل الألفية، الذي بات قليل الثقة بوسائل الإعلام الرسمية.
- استخدام الناشطين الفلسطينيين لأكثر من منصة على مواقع التواصل الاجتماعي يساهم في إيصال رسائلهم إلى أكبر عدد من الجمهور.

- Feezell, J. T. (2018). Agenda setting through social media: The importance of incidental news exposure and social filtering in the digital era. *Political Research Quarterly*, Vol. 72, No. 2, pp. 482–494.
- Fazekas, Z., Popa, S. A., Schmitt, H., Barberá, P., & Theocharis, Y. (2021). Elite-public interaction on Twitter: EU issue expansion in the campaign. *European Journal of Political Research*, Vol. 60, No. 2, pp. 376–396.
- Gillespie, T. (2018). *Custodians of the Internet: Platforms, content moderation, and the hidden decisions that shape social media*. London, England: Yale University Press.
- Gilardi, F., Gessler, T., Kubli, M., & Müller, S. (2022). Social media and political agenda setting. *Political Communication*, Vol. 39, No. 1, pp. 39-60.
- Goodman, M. K., McNatt, M. B., & Boykoff, M. T. (2023). Communicating climate change in the Anthropocene: The dynamic cultural politics of climate change news coverage and social media around the world. *In The Routledge Handbook of Environment and Communication*, pp. 253-271. Routledge.
- Hill, M. L. (2018). "Thank you, Black Twitter": State violence, digital counterpublics, and pedagogies of resistance. *Urban Education*, Vol. 53, No. 2, pp. 286-302.
- Jackson, S. J., Bailey, M., & Welles, B. F. (2020). *#HashtagActivism: Networks of race and gender justice*. Cambridge: Mit Press.
- Jungherr, A., Posegga, O., & An, J. (2019). Discursive power in contemporary media systems: A comparative framework. *The International Journal of Press/Politics*, Vol. 24, No. 4, pp. 404–425.
- Kelsch, S. M. (2022). *Digital resistance: #SaveSheikhJarrah and the role of Palestinian activism on social media* [Dissertação de mestrado, Iscte - Instituto Universitário de Lisboa]. Repositório Iscte. <http://hdl.handle.net/10071/26366>
- King, G., Schneer, B., & White, A. (2017). How the news media activate public expression and influence national agendas. *Science*, Vol. 358, No. 6364, pp. 776–780.
- Koa, M. (2021). Communication strategies of winning hearts and minds: The case of the Muslim Brotherhood's political communication campaign post Morsi's downfall. *Global Media and Communication*, Vol. 17, No. 1, pp. 87-120.
- Koa, M. (2018). Techniques of strategic political communication: The Egyptian Muslim Brotherhood's persuasive devices. *International Journal of Strategic Communication*, Vol. 12, No. 5, pp. 571-598.
- Lewandowsky, S., Jetter, M., & Ecker, U. K. H. (2020). Using the president's tweets to understand political diversion in the age of social media. *Nature Communications*, Vol. 11, No. 1, pp. 1–12.
- Li, Y., Bernard, J.-G., & Luczak-Roesch, M. (2021). Beyond Clicktivism: What Makes Digitally Native Activism Effective? An Exploration of the Sleeping Giants Movement. *Social Media and Society*, Vol. 7, No. 3. <https://doi.org/10.1177/20563051211035357>
- Lev-On, A. (2018). The Anti-Social Network? Framing Social Media in Wartime. *Social Media and Society*, Vol. 4, No. 3, pp. 1-12.
- Matsilele, T., & Ruhanya, P. (2021). Social media dissidence and activist resistance in Zimbabwe. *Media, Culture & Society*, Vol. 43, No. 2, pp. 381-394.

## التوصيات

يوصي الباحثون بالآتي:

- ضرورة إجراء بحوث مستقبلية حول أساليب المقاومة الرقمية الفلسطينية التي تستخدمها الصفحات الفلسطينية غير المؤطرة حزبياً كصفحة إهد ١٩٤ على الفيسبوك وتويتر.
- ضرورة أن يكون هناك دراسات متخصصة في تأطير وتناول الجانب الإسرائيلي لقضية حي الشيخ جراح على مواقع التواصل الاجتماعي.
- ضرورة استخدام منى الكرد للفيديوهات والإنفوجرافيك بشكل أكبر عبر صفحات الفيسبوك وإنستغرام وتويتر الخاصة بها عند الحديث عن قضية حي الشيخ جراح.
- ضرورة دعم الجهات الرسمية للقنوات الدبلوماسية الشعبية، وخاصة تلك المتعلقة بدبلوماسية المواطن الرقمية، والمتمثلة في صفحات الأفراد الناشطين.
- ضرورة تبني المؤسسة الرسمية الفلسطينية لمؤثرين فلسطينيين يتحدثون لغات مختلفة، وإعدادهم ليكونوا سفراء رقميين لمجتمعهم وقضيتهم.

## قائمة المراجع

### المراجع العربية

- بوشهري، سعود؛ عبدالله، هداية؛ وأشرف، سنجر (٢٠٢١). دور وسائل التواصل الاجتماعي في التأثير على صنع القرار بدولة الكويت. *مجلة البحوث المالية والتجارية*، ٢٢، ص ص. ٣٠٦-٣٤٤.
- الحمود، عبد الله بن ناصر؛ الشامى، علاء؛ وبن صفيه، عبد اللطيف (٢٠١٦). *أطر المعالجة الإعلامية للمشروعات الاقتصادية الكبرى في الدول العربية دراسات حالة لمشروعات «الهيئة الملكية للجيبيل وينع» بالسعودية*. -قناة السويس الجديدة» بمصر «إقلاع للنهوض بقطاع الصناعة»، السعودية، الرياض.
- السعيد، غانم؛ وأميين، رضا عبد الواحد (٢٠٢٠). الأطر الإخبارية لجائحة كورونا في الصحافة العربية دراسة تحليلية. *مجلة البحوث الإعلامية*، ٤(٥٥)، ص ص. ٢١٣٣-٢٢٢٤.
- القحطاني، مريم (٢٠٢٠). بناء مقياس لقيم المواطنة الرقمية لدى مستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي. *الجامعة الأردنية*، ٤٧(٤)، ص ص. ١٧٨-١٩٤.
- الكوع، معين؛ وأبو حسن، حلا (٢٠٢٢). تأثير سياسات شركات التواصل الاجتماعي وانتهكات الاحتلال الإسرائيلي على الحقوق الرقمية الفلسطينية. *المجلة الجزائرية لبحوث الاعلام والرأي العام*، ٥(٢)، ص ص. ١٦٧-١٨٨.
- المدهون، محمد إبراهيم؛ ووافي، عبدالله جمعة (٢٠١٦). دور مواقع التواصل الاجتماعي في تعبئة الرأي العام الفلسطيني لدعم حقوقه السياسية. *مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الانسانية*، ٢٤(٢)، ص ص. ١٩٠-٢١٢.

### المراجع الأجنبية

- Akçalı, E. (2019). Facebook: An Emerging Arena for Politics of Self-Determination in northern Cyprus?. *South European Society and Politics*, Vol. 24, No. 4, pp. 513-533.
- Braun, V. & Clarke, V. (2012) Thematic analysis. In Cooper, H. (Ed.), *The Handbook of Research Methods in Psychology*. Washington, DC: American Psychological Association.
- Creswell, J. & Creswell, D. (2018). *Research design*. London, England: Sage Publications.
- Eschmann, R. (2021). Digital Resistance: How Online Communication Facilitates Responses to Racial Microaggressions. *Sociology of Race and Ethnicity*, Vol. 7, No. 2, pp. 264–277.
- Eghbariah, R., & Khoury, M. (2022). Interview with Muna El-Kurd: "As Palestinians, We All Have the Same Struggle, the Same History". *Journal of Palestine Studies*, Vol. 51, No. 3, pp. 58-67.



## الوساطة والمفاوضات الإلكترونية كوسائل بديلة لفض منازعات عقود التجارة الدولية الإلكترونية

رامز عاشور

### الملخص

لعب التطور التكنولوجي دوراً حيوياً في حياة البشر الذي امتدت آثاره إلى كافة قطاعات الحياة العلمية والاجتماعية والاقتصادية، وقد أفرز هذا التطور في مجال الاتصالات إلى استخدام تقنيات الوسائل الإلكترونية في إبرام عقود التجارة الدولية الإلكترونية، ومنها التعاقد عبر الإنترنت، وإقدام الدول على إبرام وتنفيذ العديد من تلك العقود مع الأشخاص المعنوية العامة أو الطبيعية أو المعنوية الخاصة، وما قد تثيره هذه العقود من منازعات. وقد اتجه الفقه للبحث عن وسائل حديثة سريعة وأكثر فاعلية تستخدم نفس هذه التقنيات لفض المنازعات التي قد تنشأ في المعاملات والتعاقدات الإلكترونية دون التواجد المادي لأطراف النزاع، وبعيداً عن إجراءات التقاضي العادية التي تديره الدولة ببطء ويؤدي إلى التراخي في حل ما يثار من منازعات عقود التجارة الدولية، هذه الوسائل التقليدية هي الوساطة والمفاوضات الإلكترونية وغيرها.

وتبرز أهمية هذه الدراسة في التعريف بماهية الوساطة والمفاوضات الإلكترونية كوسائل بديلة لحل منازعات التجارة الإلكترونية، وأوجه الاتفاق والاختلاف بينهما، وما تحققه من مزايا، وبيان الآثار المترتبة على الوساطة والمفاوضات الإلكترونية. وقد أثار الموضوع إشكالية من حيث وجود دور للوساطة والمفاوضات الإلكترونية في حل منازعات عقود التجارة الدولية الإلكترونية. وللإجابة على تلك الإشكالية اعتمدت الدراسة على المنهج التحليلي وذلك من خلال بيان وعرض ماهية الوساطة والمفاوضات الإلكترونية وبيان الآثار المترتبة على الوساطة والمفاوضات الإلكترونية.

**الكلمات المفتاحية:** المعاملات الإلكترونية، الوساطة، المفاوضات، الوساطة الإلكترونية، المفاوضات الإلكترونية، النزاعات، العقد، التجارة الدولية.

- Sutkutė, R. (2016). Social media as a tool of resistance or a new form of slacktivism?. Tiltas į ateitį [elektroninis išteklius]= The bridge to the future. *Kaunas: Technologija*, Vol. 10, No. 11, pp. 1-7.
- Robert, H. (2013). *Encyclopedia of Public Relations*. London, England: Sage Publications.
- Shalhoub-Kevorkian, N. (2011). E-resistance among Palestinian women: Coping in conflict-ridden areas. *Social Service Review*, Vol. 85, No. 2, pp. 179-204.
- Shapiro, M. A., & Hemphill, L. (2017). Politicians and the policy agenda: Does use of Twitter by the US congress direct New York Times content? *Policy & Internet*, Vol. 9, No. 1, pp. 109-132.
- Trillò, T. (2018). Can the subaltern tweet? Reflections on Twitter as a space of appearance and inequality in accessing visibility. *Studies on Home and Community Science*, Vol. 11, No. 2, pp. 116-124.
- Watson, J. (2008). *Media communication: An introduction to theory and process*. London, England: Macmillan International Higher Education.

### المواقع الإلكترونية

- إبراهيم، أوميد (٢٠٢١، مايو ١٣). الشيخ جراح قصة الحي الذي أشعل المواجهات الفلسطينية الإسرائيلية. صحيفة اليوم للذبي للخليج. تم الاسترجاع من /٢٠٢١-٥-١٣/ <https://www.alkhaleej.ae/>
- أرناؤوط، عبد الرؤوف (٢٠٢١، يونيو ١١). منى الكرد: فاجأني التفاعل العالمي مع قضية حي الشيخ جراح مقابلة. وكالة الأناضول. تم الاسترجاع من / <https://www.aa.com.tr/ar/>
- آر تي (٢٠٢١، مايو ٢١). «سيف القدس» ضد «حارس الأسوار».. هل من منتصر؟ تم الاسترجاع من <https://ar.rt.com/qg23>
- الجريدي، عبد الحليم (٢٠١٦، نوفمبر ٤). المقاومة الرقمية أو حين يطل عليك أفيخاي. العربي الجديد. تم الاسترجاع من <https://www.alaraby.co.uk>
- حسونة، نسرين (٢٠١٤، إبريل ٨). الاعلام الفلسطيني ١٨٧٦-١٩٤٨. الألوكة الثقافية. تم الاسترجاع من <http://www.alukah.net/culture/٦٨٩٨٤/>
- سكاى نيوز عربية (٢٠٢١، مايو ٢١). وقف إطلاق النار بين إسرائيل وقطاع غزة يدخل حيز التنفيذ. تم الاسترجاع من <https://www.skynewsarabia.com/middle-east/٤٣٨٨٨٤/>
- عامر، محمد حسن (٢٠٢١، يونيو ٦). من هي منى الكرد؟.. تملك عائلتها أغرب قصص حي الشيخ جراح في فلسطين. تم الاسترجاع من <https://www.elwatannews.com/news/details/5520037>
- فريد، مها (٢٠٢١، مايو ٢٠). «المقاومة الرقمية» تجرد العربية من نقاطها للتحييل على خوارزميات مواقع التواصل الاجتماعي وتفادي حظر الدعم للفلسطينيين. فرنسا ٢٤ <https://amp.france.24.com/a>
- هيومان رايتس ووتش (٢٠٢١، يوليو ٢٧). غزة: جرائم حرب على ما يبدو خلال قتال مايو/أيار. تم الاسترجاع من <https://www.hrw.org/ar/news/٣٧٩٢٩.٢٧.٧/٢٠٢١>

## Electronic Mediation and Negotiations as Alternative Means of Dispute Resolution of International Electronic Trade Contracts

### Abstract:

Jurisprudence has tended to search for modern, fast and more effective means to use these same techniques to resolve the disputes that may arise in electronic transactions and contracts. This, without the physical presence of the parties in dispute and away from the normal and slower litigation procedures of the state. Subsequently this leads to laxity in resolving the disputes arising in international trade contracts the means of which include mediation and electronic negotiations.

The importance of this study lies in defining the nature of mediation and electronic negotiations as alternative means for resolving electronic commerce disputes. This, as well as the aspects of agreements and differences between them, the advantages achieved and the statement of the effects of mediation and electronic negotiations. Our topic raises the problem of how mediation and electronic negotiations have a role in resolving international electronic trade contract disputes.

To address this problem, the study relied on the analytical method by explaining and presenting the nature of mediation and electronic negotiations, and by clarifying the effects of mediation and electronic negotiations.

**Keywords:** Electronic Transactions, Mediation, Negotiations, Electronic Mediation, Electronic Negotiations, Disputes, Contract, International Trade.

### مقدمة

اعتمدت التجارة الدولية في دول العالم على تطور اقتصادها الوطني، الذي ازدهر نتيجة ازدياد العلاقات الاقتصادية والتجارية وتبادل الاستثمارات وانتقال رؤوس الأموال وكثرة إبرام تلك الدول للعقود التجارية الدولية، فضلاً عن أن هذه العقود أضحت تنحني مُنحى آخر وذلك نتيجة للتطور الحاصل في مجال التكنولوجيا والاتصالات واستخدام الحاسب الإلكتروني وغيره من الوسائل الإلكترونية، التي أدت إلى كثرة إبرام هذه الدول لعقود التجارة الدولية (جميعي، حسن عبد الباسط، . . . ٢٠٠٧، ص. ٧)، فظهر ما يعرف بـ (التجارة الدولية الإلكترونية) والتي تتم كافة إجراءاتها ابتداءً من مرحلة التفاوض على العقد ونهايةً بتسوية النزاع وتنفيذ العقد في عالم افتراضي إلكتروني لا يتطلب الحضور المادي لأطراف النزاع.

ونتيجة لإقدام العديد من تلك الدول على إبرام وتنفيذ الكثير من تلك العقود، سواء على مستوى التجارة الدولية التقليدية أو الإلكترونية وكثرة المنازعات حولها، الأمر الذي دفع التجار ورجال الأعمال وأصحاب المشاريع والشركات، للبحث عن سبل أخرى لتسوية منازعاتهم تكون أقل تكلفة وأكثر سرعة ومرونة، بعيداً عن اللجوء إلى القضاء العادي الذي يتميز بطول وتعقيد إجراءاته، والذي أصبح لا يتلاءم مع إجراءات التجارة الدولية الإلكترونية ورغبات التجار (موقع المنظمة العالمية للتجارة: www.wto.org).

لذلك اتجه التفكير بالبحث عن وسائل مرنة بسيطة غير معقدة لاقضائية وحتى تحكيمية، تتماشى مع التطور الحاصل في مجال التجارة الدولية الإلكترونية، ومنها حتى الدول المتقدمة مثل اليابان وأمريكا والصين وغيرها، والتي تميز نظامها القضائي بالسهولة (أباريان، علاء، ٢٠٠٨، ص. ٦٠ وما بعدها). الأمر الذي شجع الفقه القانوني إلى اللجوء إلى وسائل سلمية بديلة تكون أكثر تطوراً تلاءم طبيعة وخصائص تلك العقود وقادرة على تسوية النزاع بصورة سريعة، لذلك ظهرت الوساطة والمفاوضات الإلكترونية والتوفيق والتحكيم الإلكتروني كوسائل بديلة لفض منازعات التجارة الدولية الإلكترونية.

ولعل ما شهدته دول العالم من تطوراتٍ تكنولوجية وتحول التجارة الدولية إلى التجارة الدولية الإلكترونية وكثرة المنازعات الدولية قد أعطت دافعاً نحو تبني التشريعات الوطنية والعربية والعالمية الوساطة والمفاوضات والتحكيم الإلكتروني (Paulson, 1995, p. 232). لذلك ومما سبق، فإن هذه الدراسة تسلط الضوء على بعض هذه الوسائل، التي منها الوساطة والمفاوضات الإلكترونية كوسائل بديلة عن القضاء، وبيان ما تحققه تلك الوسائل من مزايا، وما يترتب من آثار عن تلك الوسائل في حل منازعات عقود التجارة الدولية الإلكترونية، كوسائل قانونية إلكترونية تستخدم عبر شبكة الإنترنت لحل المنازعات التي تنشأ نتيجة قيام التجار ورجال الأعمال وبعض الشركات بإبرام وتنفيذ الكثير من عقود التجارة الدولية الإلكترونية بينهم.

### أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة في تسليط الضوء على أهمية الوساطة والمفاوضات الإلكترونية كوسائل بديلة لحل منازعات التجارة الدولية الإلكترونية بطرق إلكترونية متطورة وبسيطة غير معقدة ولاقضائية، تحافظ على استمرار العلاقات التجارية بين الدول، حيث أن مواكبة المنجزات التكنولوجية والتقنية من الناحية القانونية فرضتها الظروف الاقتصادية والتطورات التكنولوجية، وبصفة خاصة في مجال التجارة الدولية الإلكترونية.

يأتي الاهتمام المتزايد في مختلف الأنظمة القانونية والقضائية بالوساطة والمفاوضات، لما توفره من مرونة وسرعة في البت، وما تقتضيه من مشاركة الأطراف في إيجاد حلول لمنازعاتهم. ولذلك تساهم هذه الدراسة في تحفيز الدول والتجار ورجال الأعمال والشركات لاستخدام هذه الوسائل ولإزالة أي مخاوف لديهم من إبرام وتنفيذ عقودهم بالطرق الإلكترونية، وتبسيط إجراءات فض أي منازعات ناشئة أو قد تنشأ بعد إدخال تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات التي تتسم بالسرعة وتقليل للجهد والنفقات، كما يمكن أن يساعد ذلك على تحقيق النمو الاقتصادي.

### السؤال البحثي:

تأتي هذه الدراسة لتناقش السؤال البحثي الرئيسي وهو: ما هي ماهية الوساطة والمفاوضات الإلكترونية؟ وهل تعتبر وسيلة من الوسائل الناجعة في تسوية منازعات التجارة الدولية الإلكترونية؟ ويندرج عنه الأسئلة الفرعية التالية:

- هل وسائل الوساطة والمفاوضات الإلكترونية كفيلة بتسوية النزاعات الناشئة بين المتخاصمين العاملين في التجارة الدولية الإلكترونية؟
- ما هي سبل الوصول إلى العدالة المنشودة عن طريق الوساطة والمفاوضات الإلكترونية دون اللجوء إلى عدالة القضاء؟
- ما هي الآثار المترتبة على استخدام هذه الوسائل في فض ما ينشأ من منازعات بين المتنازعين؟ وما مدى تطبيق إجراءاتها التقليدية على الإجراءات الإلكترونية.

### منهج الدراسة:

تعتمد الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي، لما يقتضيه موضوع البحث من ضرورة التعرض لشتى جوانبه بالتحليل والتمحيص وتهدف للوصول لوضع أسس لفهم الوساطة والمفاوضات كوسائل بديلة لفض ما ينشأ من منازعات عن

التجارة الدولية الإلكترونية. ولتحقيق هدف الدراسة تم تقسيم البحث إلى الأجزاء التالية:

أولاً: ماهية الوساطة والمفاوضات الإلكترونية كوسائل بديلة لحل منازعات عقود التجارة الدولية.

ثانياً: الآثار المترتبة على الوساطة والمفاوضات الإلكترونية.

ثالثاً: أهم النتائج والتوصيات.



## أولاً: ماهية الوساطة والمفاوضات الإلكترونية كوسائل بديلة لحل منازعات عقود التجارة الدولية

ظهرت الوساطة والمفاوضات الإلكترونية وغيرها من الوسائل البديلة كالتحكيم الإلكتروني مع بداية التسعينات، عندما أصبح اللجوء للقضاء طريقاً ليس مقبولاً لفض ما يثار من منازعات التجارة الدولية الإلكترونية التي امتازت بالمرونة والسرعة في الإجراءات (عوض، ٢٠١٢، ص. ٣٣٩ - ٣٤٠). واحتلت الوساطة والمفاوضات مكانة بارزة في الفكر القانوني والاقتصادي على المستوى العالمي، لما تمثله هذه الوسائل في الحاضر من فعل مؤثر على صعيد التقاضي، فكان من الطبيعي أن تعمل الدول جاهدة لإيجاد إطار ملائم لتقنينها، ثم تطبيقها لتكون أداة فاعلة لتحقيق وتثبيت العدالة وصيانة الحقوق (قصعة، ٢٠٢٠).

ونظراً لفعاليتها كوسائل بديلة في حل كثير من المنازعات التجارية، حظيت باهتمام كبير من طرف المنظمات والدول، لما توفره من مرونة وسرعة البت في المنازعات وإيجاد الحلول لها، كما وحظيت بمكانة رفيعة على مستوى القانون الدولي، وهو ما أكدته ميثاق الأمم المتحدة (منشورات الأمم المتحدة)، والمواثيق الإقليمية كميثاق الاتحاد الإفريقي، وميثاق جامعة الدول العربية، كما وضعت اتفاقية المؤسسة العربية لضمان الاستثمار، باعتبار الوساطة والمفاوضات وسائل لحسم النزاعات، يُرجع إليها لفض النزاع قبل اللجوء إلى التحكيم.

وكذلك فُعلت اتفاقية البنك الدولي بشأن تسوية منازعات الاستثمار، إضافة لنظام المصالحة والتحكيم التابع لغرفة التجارة الدولية، والذي نص على نظام المصالحة الاختيارية. وكذلك نص الأونسيترال «لجنة الأمم المتحدة لقانون التجارة الدولية» على قواعد للتوفيق، والتي كان لها وقع إيجابي في المنازعات الدولية، وكذلك أُنز في نشر التوفيق كوسيلة لحسم المنازعات الدولية (مؤسسة التمويل الدولية، ٢٠١٦). ونصت هذه الاتفاقيات والمواثيق بشكل صريح على نجاعة هذه الوسائل، على إيجاد الحلول الودية والعادلة لأي منازعات دولية تنشأ، حيث تبرز الحاجة إلى هذه الوسائل عندما تتأزم الأوضاع بين الأطراف المتنازعة (بوسعيدا، بومدين، ٢٠١٦، ص. ٢).

وإذا كانت الوساطة والمفاوضات هي وسائل استثنائية لفض منازعات عقود التجارة الدولية الإلكترونية، فمن المتصور حل تلك المنازعات حل مرضي، عن طريق استخدامها للاستفادة مما تتمتع به من مميزات، ويناقش هذا الجزء من البحث التساؤلين التاليين: ماهية الوساطة الإلكترونية كوسيلة بديلة لحل منازعات عقود التجارة الدولية، و ماهية المفاوضات الإلكترونية كوسيلة بديلة لحل منازعات عقود التجارة الدولية.

### ماهية الوساطة الإلكترونية كوسيلة بديلة لحل منازعات عقود التجارة الدولية:

تعتبر الوساطة الإلكترونية أحد أهم الوسائل البديلة لحسم المنازعات التي تنشأ في الفضاء الإلكتروني، حيث أنها تتواءم مع طبيعة التجارة الإلكترونية، وتساهم بصورة أكثر فاعلية في التخفيف من الزيادة المطردة في منازعاتها على النحو الذي يحقق النجاح المطلوب لحسمها. وللحديث عن مفهوم الوساطة الإلكترونية يقتضي أولاً النظر إليها من خلال مصطلحين، الأول هو التقليدي، والثاني هو الإلكتروني، ومن ثم استعراض مزايا وعيوب الوساطة الإلكترونية.

١- مفهوم الوساطة التقليدي: الوساطة في اللغة اسم وَسَط، والجمع أَوْسَاط، وَسَطُ الشَّيْءِ: ما بين طَرَفَيْهِ وهو منه، الوَسَطُ: المعتدلُ من كل شيء، والفعل وَسَطَ، وَسَطَ (يُوسِطُ) وَسَاطَةً، وَسَطَ الشَّيْءِ: جعله في الوسط، ومصطلح الوساطة الفقهي بين المتخاصمين: دخول طرف بين طرفين متخاصمين لإنهاء الخصومة بينهما صلحاً (معجم اللغة العربية، ٢٠٠٨). أي أن الوساطة هي التوسط بين أمرين أو شخصين لفض نزاع بينهما قائم بالتفاوض (معجم اللغة العربية، ٢٠٠٠)، والوسط من كل شيء أعدله، ومنه قوله تعالى «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا» (سورة البقرة، ١٤٨). أما في الاصطلاح تأتي بمعنى «السعي والتوسط بين المتخاصمين لأجل رفع الخصومة والاختلاف عن طريق التراضي والمسالمة تجنباً لحدوث البغضاء والتشاحن». ويأتي مصطلح الوساطة عند الفقهاء لفظاً ومعنى بذات المفهوم المعاصر، فهي «وسيلة لتحقيق الصلح والتوفيق الرضائي بين المتنازعين» (الدخيل، ص. ١٨١)، وعرفها جانب من الفقه بأنها: «أسلوب من أساليب الحلول البديلة لفض النزاعات، يقوم بها شخص محايد يهدف إلى مساعدة الأطراف

المتنازعة للحوار وتقريب وجهات النظر لمحاولة التوصل إلى حل وسط يقبله الطرفان» (الطائي، ٢٠١٣، ص. ٢٦-٢٩). وعرفها مركز القاهرة الإقليمي للتحكيم التجاري بأنها: «وسيلة اختيارية لتسوية المنازعات بحل ودي بمساعدة ثالث، تعتمد على الحوار والمشاورات المتبادلة لإقناع طرفي النزاع بحلول مقترحة، والتوصل إلى حلٍ نابع منهم للنزاع القائم بينهم بعد فحص طلباتهم وإدعاءاتهم» (مركز القاهرة للتحكيم يونكتاد، ص. ٤٥).

وحدد قانون الأونسيترال النموذجي للتوفيق التجاري الدولي في المادة 3/1 مصطلح «الوساطة» أو «التوفيق» أي عملية، سواء أُشير إليها بتعبير التوفيق أو الوساطة أو بتعبير آخر ذي مدلول مماثل، يطلب فيها الطرفان إلى شخص أو أشخاص آخرين، «الوسيط أو الموقِّق»، مساعدتهما في التوصل إلى تسوية ودية لنزاعهما الناشئ عن علاقة تعاقدية أو علاقة قانونية أخرى أو المتصل بتلك العلاقة. ولا يكون للموقِّق فرض حل للنزاع على الطرفين (قانون الأونسيترال، ٢٠٠٠). وعدد فقهاء القانون الدولي للوسيط أو الجهة الوسيطة شروطاً ومواصفات ينبغي توفُّرها لأجل النجاح في مهمّته، نبينها على النحو التالي ( حيدر، ٢٠١١):

- أن يكون الوسيط أو الجهات المتوسطة، حيادية بين الطرفين المتنازعين ومقبولة منهما، وتتوفر الرغبة لديهم بإجراء الوساطة من جانب طرف متوافق عليه.
- أن يقدم الوسيط وساطته بملء إرادته، دون أن يكون مرغم على ذلك.
- أن يكون الوسيط أو الدولة، أو الجهة المعنيّة بالنزاع، حرة في قبول الوساطة أو رفضها.
- أن نتيجة الوساطة ليست إلزاميّة، ولا يمكن فرضها على الطرفين المتنازعين.
- أن يسعى الوسيط لتهدئة الأمور مقرباً وجهات نظر الطرفين المتباينة، والتقدم بحلول قد يقبل بها الطرفان دون ضغط أو إكراه، تاركاً لهما حرية الموافقة عليها.

ومما سبق، يتبلور مفهوم الوساطة في أنها: «عملية تطوعية تقوم على إرادة طرفي النزاع في اللجوء إليها، يعمل فيها الأطراف مع شخص ثالث سمي الوسيط، يتمتع بصفتي النزاهة والحياد لإيجاد حل مقبول للطرفين ينهي النزاع»، لذلك فهي لا يمكن أن تكون وسيلة فعالة جداً في حل المنازعات إلا إذا شارك طرفي النزاع في إجراء التساوي وكانوا راغبون فعلاً في التوصل إلى حل وسط ينتهي به النزاع.

٢- مفهوم الوساطة الإلكترونية: حُدّد مفهوم الوساطة الإلكترونية بأنها: «عملية تتم بشكل مباشر على شبكة الإنترنت وتهدف إلى تسهيل التعاون والتفاوض بين الأطراف المتنازعة للتوصل إلى حل عادل يقبله أطراف النزاع» ( كريم، وفايز، ٢٠١٦، ص. ٢٥١). ورغم اختلاف الفقه في تعريف الوساطة الإلكترونية إلا أن معظمها نابعة من تدخل واستعمال الوسائل الإلكترونية، حيث عرفها جانب من الفقه بأنها: «اتصال طرف ثالث محايد مع طرفي النزاع على شبكة الإنترنت للوصول إلى تسوية نهائية لهذا النزاع» (بدر، ٢٠١٨، ص. ٢٣). وتُعرف بأنها: «عملية تتم بشكل فوري ومباشر على شبكة الإنترنت، وتهدف إلى تسهيل التعاون والتفاوض بين أطراف النزاع، للوصول إلى حل عادل يقبله أطراف النزاع» (شعبان، ص. ٢٥١-٢٥٢).

فهي أسلوب من أساليب الوسائل البديلة تقوم على توفير ملتقى إلكتروني للأطراف المتنازعة للاجتماع والحوار وتقريب وجهات النظر بمساعدة شخص محايد، لمحاولة التوصل إلى تسوية ودية يقبلها أطراف النزاع، وهو ما يعني أن الوسيط يتدخل من تلقاء نفسه أو بناء على طلب الأطراف، مما يتبين منه أن الوساطة مرحلة متقدمة من التفاوض الإلكتروني، يعمل الوسيط على إيجاد النقاط الأكثر تقديراً ويقارنها مع النقاط الأكثر أهمية ويحاول مقارنتها بغرض الوصول إلى حل يرضي المتنازعين (Heuvel, 2008, p. 7).

وتختلف الوساطة عن التحكيم في أن المُحكّم يصدر قراراً نهائياً وملزماً ويخضع المتنازعون لتنفيذه، في حين أن الوسيط لا يملك سلطة إصدار قرار، بل أن سلطته إن وجدت سلطة أديبة وتتجسد في حث المتنازعين على قبول اقتراحاته وتوصياته والتي تشكل مدخلاً لتسوية النزاع القائم (آباريان، ٢٠١٢، ص. ٦٤-٦٥). ويتبين لنا مما سبق أن الوساطة الإلكترونية لا تختلف عن الوساطة التقليدية سواء في إطارها العام أو الهدف، إلا أنها تختلف عنها من حيث الوسيلة، فهي تتم باستخدام وسيلة إلكترونية، يكون الوسيط والأطراف المتنازعة متواجدين عادة في دول مختلفة يجتمعون ويتحاورون عن بعد باستخدام شبكة الإنترنت بخلاف ما يجري عليه العمل في الوساطة التقليدية التي يجتمع أطرافها وجها لوجه وفي مكان معين (قشي، ١٩٩٩، ص. ٨٤).

٣- مزايا وعيوب الوساطة الإلكترونية: توفر الوساطة الإلكترونية مجموعة من المزايا لاستخدامها التكنولوجية الحديثة ووسائل الاتصال الفورية، إلا أنها لا تخلو من العيوب والمثالب نعرض أبرزها على النحو التالي:

#### مزايا الوساطة الإلكترونية:

- 1- توفير الوقت والجهد لأن جلسات الوساطة تتم عبر شبكة الإنترنت، مما لا يضطر أطراف النزاع إلى تكبد عناء التنقل من مكان لآخر، وهو ما يوفر الكثير من الجهد والوقت (بومحراث، ٢٠١٩، ص. ٥٠٠).
- 2- قلة التكاليف (الجاف، ٢٠١٧، ص. ٤٠٠): إن التكاليف المالية التي يتحملها الأطراف عند اللجوء للوساطة قليلة جداً، إذا ما قورنت بالتكاليف القضائية أو التحكيم، يتقاسمها المتخاصمون إذا كان هناك اتفاق للجوء إلى الوساطة، وفي حالة عدم التوافق، فإن التكلفة تكون على عاتق الطرف الذي يبادر باللجوء إلى الوساطة.
- 3- تمتاز الوساطة بمرونة الإجراءات والسرية التامة، فجميع المسائل التي تتم مناقشتها في الوساطة وجميع الوثائق والبيانات الشفوية والخطية التي يتم تبادلها وتقديمها أثناء عملية الوساطة يغلب عليها الطابع السري، أي أنها عملية سرية ومصونة، وتحافظ على العلاقات الودية بين الأطراف (شعبان، ٢٠١٦، ص. ٢٨٥).
- 4- تتميز الوساطة بوجود طرف ثالث حيادي منصف يسعى إلى الوصول إلى تسوية نهائية من خلال محاولة التقريب بين وجهات النظر، بالإشراف على جلسات الوساطة عبر شبكة الإنترنت أو باستخدام مهارته وخبرته للوصول إلى حلول والخروج بمصالحة تزيل كافة الخلافات، وللأطراف الحرية في الانسحاب والعودة إلى التمسك بكافة الحقوق والدفع القانونية أمام القضاء (المزيني، ٢٠١٨، ص. ٥٣٩).

#### عيوب ومثالب الوساطة الإلكترونية:

رغم مزايا الوساطة الإلكترونية، إلا أنها لا تخلو من السلبيات ولعل أهمها ما يلي:

- 1- عدم إلزامية الوساطة، فالأطراف دائماً لهم حق رفض الاقتراحات التي يقدمها الوسيط، وهو ما يمكن أن يكون سبباً في إطالة أمد النزاع ومنع الوصول إلى تسوية (شعبان، ٢٠١٨، ص. ١٦٨).
- 2- تأثير المخاطر التقنية التي تتخذ أشكالاً متنوعة عبر شبكة الإنترنت، من التلاعب بمحتويات البرامج المستخدمة في آليات الوساطة، سواء عن قصد أو غير قصد، إضافة إلى الفجوة الرقمية والتي توجد داخل الدولة الواحدة، ناهيك عن الاتصالات الدولية، وهذا يؤثر على حق المواجهة والاستماع، بالإضافة إلى الحواجز اللغوية وقرصنة واختراق المواقع الإلكترونية (شعبان، ٢٠١٨، ص. ١٦٨).

ورغم هذه العيوب، تبقى الوساطة الإلكترونية وسيلة فاعلة يمكن الاعتماد عليها في فض ما ينشأ من منازعات تجارية، كونها وسيلة غير ملزمة للأطراف وتحافظ على العلاقات بين الأطراف إذا لم يتم عقد اتفاق التسوية، أما في حال تم عقد الاتفاق على التسوية ومُضي العقد يصبح ملزماً لطرفيه. أما الفجوة الرقمية فيمكن تجاوزها باستخدام البرامج الحديثة المتنوعة التي تحارب اختراق مواقع ومراكز تسوية هذه المنازعات.

#### ماهية المفاوضات الإلكترونية كوسيلة بديلة لحل منازعات عقود التجارة الدولية:

بعد أن أصبح التعاقد الإلكتروني أهم وسائل التجارة الدولية الإلكترونية، ظهرت سلسلة من الإشكاليات القانونية، منها المرحلة السابقة على التعاقد باستخدام تكنولوجيا الإعلام والاتصال، ولاستيعاب القواعد الكلاسيكية المنظمة للعقد لهذه الأنماط الإلكترونية الجديدة، ومدى جواز التفاوض بشأنها، ولخطورة ومشقة هذه المرحلة التي تسبق إبرام عقود الاستثمار الدولية، لا نبالغ القول بأن مصير العقد يتوقف على مدى نجاح عملية التفاوض، وقد أتاحت شبكة الإنترنت المجال واسعاً للمفاوضات لإبرام تلك العقود، ولا شك أن التفاوض يقتضي معرفة الأسس التي يتسلح بها المفاوض قبل الدخول في هذه المرحلة (النمر، ص. ٢٧).

تتمثل هذه الأسس في التعرف على المتعاقد الآخر ومدى قدرته وكفاءته، والتأكد من جديته ومشروعية العرض، لأن التفاوض لم يعد مقتصرًا على نشاط معين أو علاقة معينة، بل أصبح علم وفن قائم بذاته يعين على حل كل المنازعات التي قد تحدث سواء منها الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية أو الثقافية، كما وأن المفاوضات لها من الدور الذي لا ينكر في تكوين العقد ومن ثم تنفيذه ( بلعقون، ٢٠٢٠، ص. ٨٠٥). وسنناقش في هذا الجزء ماهية المفاوضات الإلكترونية ومكانتها، وإعطاء تعريف واضح وشامل للمفاوضات الإلكترونية، لابد من النظر إليها من خلال مصطلحين، الجانب الأول هو التقليدي، والثاني هو الإلكتروني.

١- التعريف التقليدي للمفاوضات: التفاوض في اللغة، هو تبادل الرأي بين ذوي الشأن بغية الوصول إلى اتفاق أو تسوية ويقال تفاوضنا، أي فاوض كلاً صاحبه، والتفاوض من فوض إليه الأمر: صيره إليه وجعله الحاكم فيه، وفاوضه في أمره أي جراه، وتفاوضوا الحديث: أخذوا فيه (ابن منظور، ص. ٣٤٨٥). وتعرف اصطلاحاً بأنها: «عبارة عن أعمال مادية تتمثل بالتحاور وتبادل الآراء والأفكار والمساومة بالتفاعل بين الأطراف من أجل الوصول إلى اتفاق معين أو حل مشكلة» (عجيل، ٢٠٠٨، ص. ١٨٢). وتعددت التعريفات الفقهية للمفاوضات، عرفها جانب أنها: «عملية يمكن من خلالها حل النزاعات أو تسوية المعاملات بمختلف أنواعها، أو إنشاء اتفاقيات بين الأفراد والجماعات». وعُرفت بأنها: «وسيلة من وسائل تسوية المنازعات تتم بين أطراف النزاع مباشرة دون تدخل طرف ثالث» (معزوز، ٢٠٢٠، ص. ٢٨٣). ويعرفها جانب آخر أنها:

تبادل الاقتراحات والمكاتبات والدراسات والاستشارات القانونية التي يتبادلها أطراف التفاوض ليكون كل منهم على بينة من أفضل الأشكال القانونية التي تحقق مصلحة الأطراف وللتعرف على ما يسفره الاتفاق من حقوق والتزامات لطرفيه، من أجل الوصول إلى تسوية نهائية للنزاع المثار بينهم، وذلك بقاء مباشر بين طرفي النزاع أو من ينوب عنهم ودون تدخل طرف ثالث (الأهواني، ٢٠٠٠، ص. ٥٠).

٢- تعريف المفاوضات الإلكترونية: نتيجة التطور المتسارع في مجال الاتصالات وظهور الشبكة العالمية للإنترنت، أصبحت المحاورات والمناقشات وتبادل الآراء تتم عن طريق الوسائل الإلكترونية لتوائم بذلك التطور التجاري، وبذلك برزت أهمية مرحلة المفاوضات خاصة في عقود التجارة الدولية. فجاءت المفاوضات لمواكبة التطور التكنولوجي، ولتسهيل إبرام المعاملات التجارية الإلكترونية بصورة سريعة وسهلة، لأنه من غير المنطقي تسوية منازعات العقود الإلكترونية بالوسائل التقليدية، كون ذلك يتنافى مع طبيعة العقود الإلكترونية، وقد تركت مرحلة التفاوض كمرحلة تمهيدية لإبرام العقد للفقهاء والقضاء (معزوز، ٢٠٢٠، ص. ٢٨٤). ورغم أهمية المفاوضات إلا أننا نلاحظ أن هناك عدم اهتمام تشريعي من قبل أغلب القوانين العربية وتركت الأمر للفقهاء والقضاء الذي يستند إلى بعض النصوص الغير مباشرة في تشريعات أخرى، بخلاف بعض القوانين الأجنبية التي أفردت تنظيمًا خاصاً لتلك المرحلة (الأنباري، ٢٠٠٩، ص. ٩٩).

كما أن المشرّع الفلسطيني لم يتطرق لتعريف صريح للمفاوضات الإلكترونية كأحد الوسائل البديلة لفض المنازعات كما المفاوضات التقليدية، لكن باستقراء قانون المعاملات الإلكترونية رقم 6 لسنة 2013 نجد أنه أجاز إبرام العقود الدولية بوسائل إلكترونية (المادة رقم ١) متضمناً في ذلك أن يتم التعبير عن الإرادة بوسائل إلكترونية، أي أنه أجاز أن يتم تسوية ما يثار من المنازعات إلكترونياً بالوسيلة نفسها التي تم انعقاد العقد فيها. وأجمع الفقهاء بأن مضمون وإجراءات المفاوضات واحدة سواء أكانت بشكلها التقليدي أو الإلكتروني، وعرف جانب من الفقهاء التفاوض الإلكتروني أنه: «تبادل للحوار دون حضور مادي لطرفي التفاوض وذلك باستخدام وسيلة سمعية بصرية للاتصال عن بعد، يتبادل فيها أطراف التفاوض الاقتراحات والمساومات والمكاتبات والتقارير والدراسات، ليكون كل منهما على بينة من أفضل الأشكال القانونية التي تحقق مصلحة الأطراف للتعرف على ما يسفر عليه الاتفاق من حقوق والتزامات» (علي جمال، ٢٠٠٤، ص. ٣٥). وعرفها جانب آخر أنها: «التحاور والمناقشة وتبادل الأفكار والمساومة بالتفاعل بين الأطراف من خلال الاتصال المباشر أو تبادل البيانات إلكترونياً عبر البريد الإلكتروني، للوصول إلى اتفاق معين» (علي، ٢٠١٢، ص. ١٣٨-١٩٣)، وعُرفت أيضاً بأنها: «إجراء محادثات من أجل الوصول إلى اتفاق» (إبراهيم، ٢٠٠٦، ص. ١٠٩). كذلك عرفته محكمة التحكيم بباريس أنه «عقد يتعهد بمقتضاه الطرفين بالتفاوض من أجل التوصل إلى إبرام عقد معين لم يتحدد موضوعه إلا بشكل جزئي لا يكفي جميع الأحوال لانعقاده» (إبراهيم، ٢٠٠٦، ص. ٢٩٣).



ويعد التفاوض الإلكتروني نظام من الأنظمة التي اهتمت إليها مركز الوساطة والتحكيم الإلكتروني كوسيلة لتسوية المنازعات التي تنشأ عن التعاقدات عن بعد، والتي وجدت إقبالاً كبيراً من قبل المتعاقدين عبر الإنترنت (علي، ٢٠١٢، ص. ١٣٩)، وقد تتجسد الخدمات التي تقدمها المراكز التي تتولى إدارة مثل هذه المفاوضات في تمكين الطرفين من استخدام برامج اتصال أو تسهيل دخولهم إلى مواقع إلكترونية مؤمنة أو تقديم برامج تدير الحوار بينهما وتطرح عليهم حلولاً نموذجية أو حلولاً تم التوصل إليها من قبل في منازعات مماثلة (علي، ٢٠١٢، ص. ١٤٠). ومن خلال هذه التعريفات يمكننا تعريف التفاوض الإلكتروني بأنه: «مناقشة تمهيدية بين الأطراف الدولية المتفاوضة عبر الوسائط الإلكترونية للمسائل الجوهرية المتعلقة بعقود التجارة الدولية الإلكترونية المزمع إبرامها في المستقبل».

٣- مكانة المفاوضات الإلكترونية: لاقت المفاوضات الإلكترونية مكانة هامة وذلك من خلال استخدام مراكز التسوية على شبكة الإنترنت، باعتبار المفاوضات وسيلة لفض منازعات التجارة الدولية الإلكترونية التي حققت نجاحاً واسعاً وإقبالاً هائلاً من قبل المتنازعين، وأيضاً فاعليتها في تسوية منازعاتهم، مع المحافظة في نفس الوقت على استمرار علاقات العمل بين التجار مع الشركاء (أبو الهيجاء، ٢٠١٠، ص. ٢٠). وهو ما أكدته إحدى الدراسات التي قام بإجرائها مركز تسوية المنازعات الإلكتروني (square trade)، حيث أعلن من خلالها أن ما نسبته 80% من مجموع منازعات التجارة الدولية التي تم التفاوض حولها عن طريق هذا المركز قد تم حلها عن طريق المفاوضات الإلكترونية المباشرة (<http://www.squaretrade.com>).

وتأتي أهمية مكانة المفاوضات الإلكترونية ليس فقط لأنها أحد وسائل تسوية منازعات التجارة الدولية الإلكترونية، بل لأن مكانتها برزت أيضاً من خلال الإعداد والتحضير والبحث في كافة الجوانب القانونية والفنية لإبرام عقود التجارة الدولية (المطالقة، ٢٠١١، ص. ٤٨)، إذ أنها وسيلة لتقريب وجهات النظر بين الأطراف، كما ولعبت المفاوضات دوراً وقائياً بالنسبة لمرحلة إبرام العقد والحد من أسباب النزاع المستقبلي، ومعرفة كل طرف بظروف العملية التعاقدية مع بيان حقوقه والتزاماته (إبراهيم، ٢٠٠٩، ص. ٢١٩). وتزداد أهمية مكانة المفاوضات الإلكترونية باعتبارها أحد الوسائل التي تجرى عبر شبكات الإنترنت والتحاوور والمناقشة من خلال الوسائط الإلكترونية لأجل الوصول إلى شروط إبرام العقود التجارية الدولية الإلكترونية بما فيها شرط اللجوء إلى المفاوضات الإلكترونية في حال حدوث أي نزاع عند إبرام تلك العقود.

رغم الاتفاق بين كل من الوساطة الإلكترونية والمفاوضات الإلكترونية في أن النظامين يقومان على التراضي والموافقة على اللجوء إليهما، وانتهائهما باتفاق يوقعه الطرفان، بالإضافة إلى أن كليهما يعتمد على وسائل الاتصال الحديثة لحل المنازعات المعروضة عليه، إلا أنه يوجد فروق بين الوساطة الإلكترونية والمفاوضات الإلكترونية تتمثل في أن الأخيرة تتم بإجراءات حل المنازعات دون تدخل طرف ثالث، في حين أن الأول يعتمد أساساً على وجود طرف ثالث هو الذي يتولى حل النزاع بين الطرفين، بينما المفاوضات تعتمد في حلها النزاع على قواعد عرفية غير مستمدة من قواعد قانونية محددة، تستقي من مجرد إجراء مقارنة حسابية بين عروض كل طرف للتوصل لحل وسط بينهما، في حين أن الوساطة يطبق فيها حل المنازعات قواعد قانونية تنتهي غالباً باتفاق ملزم يوقعه الطرفان ( يتوجي، ٢٠١٣، ص. ٨).

## ثانياً: الآثار المترتبة على الوساطة والمفاوضات الإلكترونية

أصبح اللجوء في وقتنا الحالي إلى الوساطة والمفاوضات الإلكترونية كوسائل وطرق بديلة لحل ما يثار من منازعات التجارة الدولية الإلكترونية أمراً مُلحاً، وذلك لتلبية متطلبات الحياة التكنولوجية المعاصرة والتي لم يعد باستطاعة القضاء والتحكيم بالتصدي لها بشكل منفرد، مما دفع مُشرعي الدول للبحث عن وسائل ناجعة لتسوية ما يثار من منازعات عقود التجارة الدولية الإلكترونية.

بعد نجاح الوساطة والمفاوضات الإلكترونية باعتبارها من الوسائل البديلة لتسوية منازعات التجارة الدولية الإلكترونية فإنها ساهمت بتخفيف العبء عن النظام القضائي، حيث أنه عند الوصول إلى اتفاق في الوساطة أو المفاوضات الإلكترونية فإن هذا التصرف ينتج عنه آثار قانونية إيجابية وسلبية قد تؤدي إلى إنهاء الوساطة أو المفاوضات الإلكترونية. ونبين في هذا الجزء تلك الآثار في جزئين، الأول نبين فيه الآثار المترتبة على الوساطة الإلكترونية، والثاني حول الآثار المترتبة على المفاوضات الإلكترونية.

## الآثار المترتبة على الوساطة الإلكترونية:

رغم ما ترتبه الوساطة التقليدية المُتعارف عليها دولياً في حل مُنازعات التجارة الدولية من سرعة وقلّة التكلفة المادية بالنسبة للأطراف، إلّا أنّها تبقى بالنسبة لمُعاملات التجارة الإلكترونية بطيئة ومُكلفة، لما تتطلب من مصاريف التنقل والتبادل المادي للبيانات وغيرها من إجراءات، الأمر الذي ينتج عنه تقاعس الأفراد والمُستهلكين وحتى التجار عن المُطالبة بحقوقهم، خاصةً في مجال التجارة الإلكترونية التي تقوم على السرعة في إبرام العقود وتنفيذها والتي ازدهرت وتطورت، وازدياد حجم العقود التجارية الإلكترونية التي يتم إبرامها عن طريق الإنترنت، فإن المنازعات بين أطرافها أضحت أمراً لا مفر منه، مما استدعى الأمر إلى ظهور فكرة الوساطة عن بعد أو الوساطة الإلكترونية (قصعة، ٢٠٢٠). وتعتبر الوساطة الإلكترونية وسيلة من الوسائل الأكثر فعالية لتسوية منازعات عقود التجارة الدولية، حيث تؤكد إحدى الدراسات أنه أكثر من 87% من منازعات التجارة الدولية قد تم تسويتها عن طريق الوساطة، كما وتشير الدراسات الأمريكية إلى أن 75% من منازعات العمل الدولية قد تم تسويتها عن طريق اللجوء إلى الوساطة (شعبان وأحمد، ٢٠٢٠، ص. ٢٥٨).

حيث ترتب على اللجوء إلى الوساطة الإلكترونية كوسيلة لفض منازعات التجارة الدولية، في ظل عجز الطرق التقليدية عن إيجاد حلول تتلاءم وظروف التجارة الإلكترونية وما تتطلبه السرعة في إنجاز الصفقات، عدة آثار إيجابية تتمثل في إيجاد الحلول الخلاقة التي تنسم بها من خلال الوصول إلى حلول غير اعتيادية قائمة على أساس الحقوق القانونية والوقائع والمصالح المشتركة لأطراف النزاع دون الاقتصار على الحقوق القانونية التي تعتمد عليها الأحكام القضائية، (الوساطة هي (صلح) والصلح لا يجوز في ما يتعلق بالمسائل المتعلقة بالنظام العام والآداب العامة)، الأمر الذي ينعكس إيجاباً على المشاريع التجارية والاستثمارية المساهمة في التنمية المستدامة، حيث نالت الوساطة الإلكترونية بريقها في الساحة التجارية نظراً لآثارها الإيجابية التي نجملها على البيان التالي:

١- نجاح الوساطة الإلكترونية: بعد إجراء الوسيط أو مركز الوساطة للاتصال مع طرفي النزاع وبمساعدة الوسيط بعد عقدهما اتفاق متين يتم سماع طلباتهم وادعائهم من خلال إحدى الوسائط الإلكترونية، لأجل الوصول ودياً إلى تسوية لموضوع النزاع التجاري ونجاح ذلك، ويقوم طرفا النزاع بالتوقيع على اتفاقية تسوية النزاع إلكترونياً تنتهي عملية الوساطة لحظة المصادقة على اتفاق التسوية (حمادنة، ٢٠١٦، ص. ٦). ويكون هنا قد تم الوصول ودياً إلى فض النزاع التجاري بسرعة تفوق الإجراءات التي تُتبع في القضاء العادي.

يقوم الوسيط بالبحث عن حلول تحافظ على المصالح المتقاطعة بين التجار لإصدار أحكام تكتسب درجة القطعية، حيث يعتبر اتفاق التسوية بعد مصادقة الأطراف عليه ملزماً وواجب النفاذ قانونياً، وبمثابة حكم قطعي لا يخضع لأي طريق من طرق الطعن (شيعان، ٢٠١٦).

وجاء القرار بقانون رقم (9) لسنة 2011م بشأن الغرف التجارية والصناعية في فلسطين مؤكداً على أهمية خدمة مصالح أعضاء الغرف التجارية في فلسطين وإقامة علاقات مع غرف عربية ودولية، وحددت الفقرة (1/ج) من المادة (8) بأنه يتعين على الغرف التجارية تعيين لجنة من أعضائها تختص في الفصل بالنزاعات والخلافات التجارية بطريق الوساطة أو التحكيم (القرار بقانون رقم (٩) لسنة ٢٠١١م، المادة ٨)، وهو ما أقره أيضاً قرار مجلس الوزراء الفلسطيني رقم (2) لسنة 2013 في فصله 9 على أن تتولى لجنة من أعضاء الغرف التجارية فض النزاعات التي تنشأ بين الأطراف بمحاولة تقريب وجهات النظر وتسوية النزاع بطريقة ودية مقبولة لدي طرفي النزاع، وفي حال تعذر ذلك تنظر اللجنة هذا النزاع باعتبارها هيئة تحكيم.

وبات من المستقر عليه لجوء التجار والمتعاملين بالتجارة الدولية إلى الوساطة التجارية الدولية لتسوية منازعاتهم بدلاً من اللجوء إلى القضاء العادي، لما تحققه الوساطة من مميزات عديدة، تتمثل في سرعة الفصل في المنازعات، وقلّة التكلفة، وحفظ الأسرار، وعدم قطع العلاقات بين الأطراف بسبب المنازعات، بل الأخذ في الاعتبار استمرار هذه العلاقات في المستقبل (عاشور، ٢٠٢١).

ومن هنا فإن الوساطة ليست عملية قضائية أو عملية تكميلية، ولا عملية تجعل أطراف النزاع يعيشون في حالة من التوتر والقلق وعدم الارتياح، وإنما هي مصممة لإعطاء الأطراف المتنازعة أدواراً ومسؤوليات متساوية من خلال المحافظة على المصالح المتقاطعة بين التجار.

يتبن لنا مما سبق، أن في حال نجاح الوسيط في مهمته من خلال التوصل إلى تسوية نهائية للنزاع المعروض أمامه تنتهي الخصومة بشكل كلي (الزاهي، ص. ٥٩٥)، ويقوم الوسيط بتقديم تقريره النهائي للمصادقة عليه من قبل القاضي، ولا يمكن للقاضي رفض التصديق عليه إلا إذا تعلق النزاع بمسألة تتعلق بالنظام العام، وهذه المصادقة بمثابة حكم قطعي غير قابل للطعن، وتبدأ بعد ذلك عملية التنفيذ ودفع رسوم الوسيط.

٢- فشل الوساطة الإلكترونية: تُعد الوساطة الإلكترونية طريقاً هاماً لحل نزعات التجارة الإلكترونية، إلا أن هذا السبيل يُثمر في حال توصل الوسيط التجاري إلى حل ينهي النزاع بشكل نهائي، أما في حال فشل الوسيط خلال المدة القانونية التي تحددها قوانين كل دولة، معلناً ذلك بعد تشاوره مع أطراف النزاع بأنه لا مُسوغ من القيام بمزيد من الجهود وأن مساعي الوساطة وصلت إلى طريق مسدود، تبدأ أطراف النزاع بالبحث عن وسيلة أخرى لحل نزاعهم أو باللجوء إلى القضاء.

وبعد انتهاء إجراءات الوساطة بأحد الأسباب المذكورة، يقع على عاتق الوسيط إعداد تقريره الختامي الذي يذكر فيه فشل عملية الوساطة الإلكترونية، وعدم توصل الأطراف إلى تسوية لنزاعهم، موضحاً أسباب عدم التوصل لحل للنزاع المنظور سواء عدم التزام أطراف النزاع ووكلائهم بحضور جلسات الوساطة، أو كان السبب تغيب الخصوم أو أي منهم عن جلسات الوساطة (حمادنة، ٢٠١٦، ص. ٧). ويتم إرسال نسخه من تقرير الوسيط إلى الأطراف المتنازعة، ويجب على الوسيط إعادة كافة الوثائق والمستندات التي بحوزته والمحافظة على سريتها.

#### الآثار المترتبة على المفاوضات الإلكترونية:

تعتبر مرحلة التفاوض الإلكتروني من المراحل الهامة والخطيرة جداً شأنها شأن مرحلة إبرام العقد فهي ترتب على الطرفين المتفاوضين عدة التزامات، فمجرد الإخلال بها يرتب مسؤولية، علماً أن هذه الالتزامات مبنية جميعها على مبدأ حسن النية في التفاوض. ولخطورة ومشقة المفاوضات في هذه المرحلة التي تسبق إبرام عقود الاستثمار الدولية، لا تُبالغ القول بأن مصير العقد يتوقف على مدى نجاح عملية التفاوض، وقد أتاحت شبكة الإنترنت المجال واسعاً للمفاوضات لإبرام تلك العقود، ولا شك أن التفاوض في مجال عقود التجارة الدولية يقتضي معرفة الأسس التي يتسلح بها المفاوض قبل الدخول في هذه المعركة القانونية (النمر، ص. ٢٧).

تتمثل هذه الأسس في التعرف على المتعاقد الآخر ومدى قدرته وكفاءته، والتأكد من جديته ومشروعية العرض، وما قد يثيره ذلك من تخوف لدى الأطراف في التفاوض الإلكتروني خاصة عدم وصول المتفاوضين إلى غايتهم، لأن التفاوض لم يعد مقتصرًا على نشاط معين أو علاقة معينة، بل أصبح علم وفن قائم بذاته يعين على حل كل المنازعات التي قد تحدث سواء منها الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية أو الثقافية، كما وأن المفاوضات لها من الدور الذي لا ينكر في تكوين العقد ومن ثم تنفيذه.

يترتب على لجوء الأطراف إلى التفاوض الإلكتروني عدة التزامات على طرفي النزاع، وذلك لأن ولوج طرفي التفاوض إلى العملية التفاوضية أنشأ علاقة قانونية، رتبت هذه العلاقة التزامات قانونية على الطرفين، نبين ما ترتب من آثار بناء على التزامات طرفي التفاوض، وآثار إخلال أحد الطرفين بالتزاماته وذلك على النحو التالي:

١- التزامات الأطراف خلال مرحلة التفاوض: متى دخل الطرفان المتفاوضان إلى إجراء المفاوضات الفعالة فإنه يلقي على عاتقهما جملة من الالتزامات تقع على كليهما وهي على البيان التالي:

- 1- الالتزام بالدخول والاستمرار في التفاوض: إذ أن عملية التفاوض مستمرة الأجل وتستغرق فترات زمنية طويلة، أي أن مجرد دخول الأطراف للتفاوض يشكل ذلك اتفاق مبدئي على التفاوض لغرض الوصول إلى اتفاق نهائي يرتب التزامات على طرفي التفاوض، كالاتفاق على تنظيم سير المفاوضات

وتحديد الأهداف التي يراد منها، وتحديد شروط سير المفاوضات كالمدة وشكل وصيغة النقاش المطروح، ويترتب على هذا الاتفاق التزام بالاستمرار في المفاوضات (جاسم وعامر، ٢٠١٨، ص. ٧٥١).

وهذا ما جعل بعض الفقه يقترح وجوب التأكيد على أن مرحلة التفاوض جزء لا يتجزأ من العقد النهائي واعتبارها شرطاً أساسياً لإبرام التعاقد لا مجرد مرحلة سابقة تخضع للاجتهادات والتقلبات (العجلوني، ٢٠٠٢، ص. ١٠٣).

- 2- الالتزام بحسن النية والاعتدال والجديّة: يعتبر الالتزام بالتفاوض بحسن النية التزام أساسي وجوهري في مرحلة المفاوضات السابقة للتعاقد، كما يُعد مطلباً ضرورياً لنجاحها، فيتوجب على الطرف المتفاوض أن يتسم بسلوك الرجل الشريف والأمين وبالتعاون، لأن حسن النية هو شكلاً إيجابياً وليس من أشكال السلوك السلبي، فهو إذن مجموعة من الالتزامات الإيجابية المتمثلة في الولاء وصدق التعاون والمعلومات، بهدف الوصول بالمفاوضات إلى نهاية منطقية وانعقاد العقد المنشود (دليلة، ٢٠٢٠، ص. ٢٨١).

وتكمن أهمية مبدأ حسن النية في المفاوضات الإلكترونية في المنازعات التجارية على بذل العناية اللازمة لإنجاحها للوصول إلى نتيجة وهي إبرام العقد النهائي، لذا يمنع كل ما هو من شأنه إعاقة المفاوضات أو فشلها أو اتباع المراوغة والحيلة بغية الإضرار بالطرف الآخر.

واهتم القانون الأوروبي بهذا المبدأ، ونص عليه في المادة ٥، كما كرس في اتفاقية فيينا للبيع الدولي لسنة ١٩٨٠ في المادة ١/٧ (Pour l'interprétation de la présente Convention)، وجاء فيها: «يلتزم الأطراف باحترام مقتضيات حسن النية في التجارة الدولية عند ممارسة التزاماتهم»، كما نظم القانون المدني الفرنسي هذا المبدأ ونص عليه في المادة ١٣٤/٣ (Elles doivent être exécutées de bonne foi). ونص عليه القانون المدني المصري في المادة ٢/١٥، وتقرر هذا المبدأ في المعاملات كمبدأ عام يمكن الاستناد إليه كما هو الشأن في القانون المدني الفلسطيني الذي أوجب تنفيذ العقد طبقاً لما اشتمل عليه وبحسن نية. لذا نرى أن مبدأ حسن النية في العقود عامة والعقود الإلكترونية خاصة يجد مجالاً واسعاً في مرحلة التفاوض وتزيد أهمية هذه المرحلة في حال كون أحد الطرفين محترف والآخر مستهلك الذي لا يملك المعرفة والعلم الكافي حول مجال التعاقد وكذا محل التعاقد، مما ستوجب حمايته قانوناً.

- 3- إن للتفاوض دوراً هاماً في تفسير العقد، وذلك من خلال استطاعة القاضي على استنباط المقاصد الحقيقية للمتعاقدين في حالة غموض أو نقص في شروط العقد بالمفاوضة، باعتباره وسيلة لتهيئة أنسب الظروف وأكثرها ملائمة لإبرام العقد النهائي (الأنباري، ٢٠٠٩، ص. ٢٠١).
- 4- الالتزام بالتعاون والإعلام: يلتزم المتفاوض إلكترونياً في مرحلة التفاوض بإعلام الطرف المتفاوض معه على محل التعاقد، كما يلتزم بالتعاون معه من أجل الوصول إلى مرحلة إبرام العقد، حيث يعد هذا الالتزام من أهم الضمانات القانونية، لأن التفاوض عبر الإنترنت لا يستند إلى الحماية التقليدية العامة للإدارة العقدية بل يحتاج إلى حماية خاصة وناجعة خشية من أن يكون أحد المتفاوضين محترفاً لذلك وجب الإعلام للطرف الآخر (النكاس، ١٩٩٦، ص. ٢٩١). ويرى الفقهاء القانونيين أن الحق في الإعلام يجب أن يتضمن ثلاث نقاط رئيسية: وهي التوضيح والتبصير بالخصائص المميزة بالسلع والخدمات، وثمان السلع والخدمات، وبعض البيانات اللازمة منها ضمان العيوب الخفية، وعدم جواز الاتفاق على الإغفاء من هذا الشرط، وقد حرصت معظم القوانين على تكريس هذا الالتزام (العيد، ٢٠٠٩، ص. ٤).
- 5- الالتزام بالسرية: تلتزم الأطراف المتفاوضة بكتتمان الأسرار أثناء مرحلة التفاوض التي لا يعلمها الغير، والتي يؤدي الكشف عنها إلى المساس بالمركز الاقتصادي لكاشفها، وينطبق هذا المبدأ على الأشياء التي فيها خطورة وتهدد سلامة وأمن الأشخاص سواء كانت هذه الأشياء بطبيعتها أو بسبب دقة تشغيلها، كأجهزة الحاسوب وغيرها من الأجهزة المنزلية أو شراء الأدوية وغيرها، حفاظاً على الكم الهائل من المعلومات المتعلقة بالطرف الآخر أثناء وقوع المفاوضات على العقد، ويترتب على الإخلال بهذا الالتزام تعويضاً يشمل حتى المنافع التي كان سيحصل عليها الطرف الآخر (موسى، طالب ٢٠٠١).



وقد شددت مجموعة من مبادئ عقود التجارة الدولية التي اعتمدها المعهد الدولي لتوحيد القانون الخاص بروما سنة ١٩٩٤، حيث نصت المادة الثانية في الفقرة ١٦ على «يلتزم الطرف الذي يتلقى أثناء المفاوضات معلومة معينة ذات طابع سري من الطرف الآخر سواء أبرم العقد أم لم يبرم بعدم إنشائها أو استخدامها بغير حق لأغراض شخصية، ويترتب الإخلال بهذا الواجب تعويض يشمل في هذه الحالة، المنافع التي كان سيحصل عليها الطرف الآخر».

٢- الآثار المترتبة عند الإخلال بالتفاوض الإلكتروني: امثالاً للقواعد العامة فإن أحد أطراف التفاوض الإلكتروني بتنفيذ الالتزامات المترتبة على عاتقه، سوف يتحمل هذا الطرف مسؤولية هذا الإخلال، غير أن المتفق عليه فإن القانون لا يترتب على المفاوضات الابتدائية أثراً قانونياً، فكل متفاوض حر في قطع المفاوضات في الوقت الذي يريته مادام لم يصل إلى اتفاق قائم، لأن المفاوضات هو في مرحلة المفاوضات من أجل إبرام العقد لاحقاً، ولا مسؤولية على من عدل عن ذلك.

إن الهدف من التفاوض الإلكتروني هو القضاء على التردد لدى طرفي التفاوض وتهيئة أنسب الظروف وأكثرها ملائمة لإبرام اتفاق على حل نزاعهما بالتفاوض الإلكتروني، وعند إخلال أحد طرفي التفاوض بالتزاماتهم المترتبة على عاتقه، يتحمل هذا الطرف مسؤولية هذا الإخلال، فكل متفاوض له الحق في قطع المفاوضات في الوقت الذي يريته ما دام لم يصل إلى اتفاق قائم، لأن التفاوض هو مرحلة تشاورات تسبق التعاقد، رغم أن هناك من يرى بأن الأصل في التفاوض أنه لا يترتب أثراً قانونية، غير أنه في بعض الأحوال يترتب على العدول عن التفاوض مسؤولية تقصيرية تلزم التعويض (السنهوري، ٢٠٠٠، ص. ٢٢١). ويكون ذلك في حال قطع المفاوضات للمفاوضات دون مبرر مقبول أو شرعي، وهذا بعد وصول هذه المفاوضات إلى مرحلة متقدمة من النقاشات والحوارات الهادفة لإبرام العقد، وبذلك يكون الخطأ فعلاً موجب للمسؤولية إذا ألحق ضرراً بالطرف الآخر، كالشخص الذي قام بتقديم معلومات خاطئة أو غامضة عن سلعة ما أو خدمة معينة، علماً أن هذه المعلومات ضرورية للمتفاوض الآخر كونها تشكل محلاً للتعاقد في المستقبل.

## ثالثاً: النتائج والتوصيات

مما سبق نبين نتائج وتوصيات هذه الدراسة كالآتي:

### النتائج:

- 1- ظهرت الوساطة والمفاوضات الإلكترونية كوسائل بديلة لفض منازعات التجارة الدولية كتطور طبيعي ومنطقي نتيجة للتطور الهائل في شتى مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وقد اهتمت إليها مركز الوساطة والتحكيم الإلكتروني كوسيلة لتسوية المنازعات التي تنشأ عن التعاقدات عن بعد في عمليات التجارة الدولية الإلكترونية، ووجدت إقبالاً كبيراً من قبل المتعاقدين عبر الإنترنت وما نتج عن ذلك من تطور في الآليات الخاصة بحمايتها.
- 2- تُعرف الوساطة الإلكترونية بأنها أسلوب من أساليب الوسائل البديلة لتسوية المنازعات عبر الإنترنت، التي تقوم على توفير ملتقى إلكتروني للأطراف المتنازعة للاجتماع والحوار وتقريب وجهات النظر بمساعدة شخص محايد وبسرية تامة، وذلك لمحاولة التوصل إلى تسوية ودية يقبلها أطراف النزاع، أما المفاوضات الإلكترونية تعرف بأنها مناقشة تمهيدية بين الأطراف الدولية المتفاوضة عبر الوسائط الإلكترونية للمسائل الجوهرية المتعلقة بعقود التجارة الدولية الإلكترونية المزمع إبرامها في المستقبل.
- 3- لا تختلف كلاً من الوساطة الإلكترونية والمفاوضات الإلكترونية كوسائل لتسوية المنازعات عن الوسائل البديلة التقليدية لفض تلك المنازعات سوى أنها تتم باستخدام وسيلة من وسائل الاتصال الإلكترونية.
- 4- إن المشرع الوطني الفلسطيني لم يشرع قانون مستقل خاص في الوساطة الإلكترونية وأيضاً المفاوضات الإلكترونية، وإنما جاء ذكر تلك الوسائل في نصوص قانونية ببعض التشريعات الوطنية كقانون التحكيم في فلسطين رقم 3 لسنة 2000، وغيره من القوانين الأخرى.

- 5- إن التفاوض الإلكتروني كما يترتب التزامات على المتفاوض، فإنه يترتب كذلك آثاراً قانونية عند الإخلال بهذه الالتزامات مما تستوجب مسؤولية عليه لتقدير التعويض للطرف المتضرر.
- 6- تتميز الوساطة والمفاوضات الإلكترونية كوسائل بديلة لفض منازعات التجارة الدولية الإلكترونية بعدة مميزات هامة كسرعة ومرونة إجراءاتها، وحفاظها سرية عملية فض النزاع كونها تتم بإجراءات خاصة، وحفاظها على بقاء العلاقات التجارية بين الأطراف المتنازعة.

### التوصيات:

- 1- نوصي مراكز ومؤسسات التحكيم الفلسطينية والعربية وجهات البحث العلمي بتبني أسلوب الوساطة والمفاوضات الإلكترونية كأساليب لفض منازعات التجارة الدولية، لأنها تحقق العديد من المميزات في فض المنازعات التحكيمية بصفة عامة والإلكترونية منها بصفة خاصة، من خلال تشجيع المحكمين من اللجوء إليه، وإعطاء دورات للمحكمين والمحكمين والقانونيين تساعد على تبني هذه الوسائل في فض الكثير من المنازعات التجارية.
- 2- نهيىب بالمُشرع الفلسطيني الإسراع في سن وتقنين قانون الوساطة والمفاوضات الإلكترونية الفلسطيني كوسائل بديلة لفض منازعات التجارة الدولية الإلكترونية، لأهميته في حل كثيراً من المنازعات التي تنشأ من التعاقدات التي تتم عبر الوسائل الإلكترونية، وتعديل قانون التحكيم الفلسطيني رقم 3 لسنة 2000 ليلائم ويواكب هذا التطور التكنولوجي.
- 3- عقد المؤتمرات العلمية في مجال الوسائل البديلة كالوساطة والتحكيم والمفاوضات والتوفيق، وشتى الطرق الحديثة لفض المنازعات الإلكترونية، وإطلاق يد الباحثين والفقهاء وتشجيعهم لوضع التصورات الملائمة لحل المشاكل التي تعترض سير تلك الوسائل الإلكترونية، وإحاطة المشرع الوطني والعربي علماً –إن أمكن- بالإشكاليات الموجودة أو التي قد توجد، مع بيان سبل حلها فقهاً وتشريعاً وقضاءً.
- 4- ضرورة تطوير مراكز وهيئات حل النزاع في فلسطين والوطن العربي لضمان نجاح الحلول في التشريع على استخدام الوسائل البديلة لحل النزاع، وتقديم استشارات نموذجية أو حلولاً تم التوصل إليها من قبل مراكز دولية مختصة في منازعات مماثلة، وإبراز مميزات ونجاعة هذه الوسائل في فض المنازعات التجارية.

## قائمة المراجع

### المراجع العربية:

- آباريان، علاء، (٢٠٢١). *الوسائل البديلة لحل النزاعات التجارية «دراسة مقارنة»*، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت.
- إبراهيم، خالد ممدوح، (٢٠٠٦). إبرام العقد الإلكتروني «دراسة مقارنة»، دار الفكر الجامعي، الاسكندرية.
- إبراهيم، خالد ممدوح، (٢٠٠٩). *التحكيم الإلكتروني في عقود التجارة الدولية*، دار الفكر الجامعي، الاسكندرية.
- ابن منظور، *لسان العرب*، تحقيق «عبد الله علي الكبير، محمد احمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي»، المجلد الثاني، دار المعارف، القاهرة، بدون سنة طبع.
- أبو الهيجاء، محمد إبراهيم، (٢٠١٠). *الوسائل الإلكترونية لفض المنازعات (المفاوضات المباشرة)*، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان.
- الأنباري، وعود كاتب، (٢٠٠٩). *المفاوضات العقدية عبر الإنترنت، مجلة رسالة الحقوق، جامعة كربلاء، كلية الحقوق، المجلد الأول، العدد الثاني*.
- الأهواني، حسام الدين كامل، (٢٠٠٠). *النظرية العامة للالتزام*، دار النهضة العربية، القاهرة.
- بدر، معتز حمدان، (٢٠١٨). *الوساطة ودورها في تسوية منازعات التجارة الدولية*، دار الجامعة الجديدة للنشر، الطبعة الأولى، الاسكندرية مصر.

- بلعقون، آية (٢٠٢٠). المفاوضات الإلكترونية، *مجلة الباحث للدراسات الأكاديمية*، جامعة باتنة ١ الحاج لخضير الجزائر، المجلد ٧، العدد ١.
- بوسعيداو، عثمان، بومدين، ليلي (٢٠١٦). *الوساطة كوسيلة من وسائل حل النزاعات الدولية*، رسالة ماجستير، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة مولود تيزووزو، الجزائر.
- بومحراث، ليندة (٢٠١٩). *تسوية منازعات التجارة الإلكترونية دراسة مقارنة بين الفقه الإسلامي والقانون الوضعي*، دار الجامعة الجديدة للنشر، الطبعة الأولى، الإسكندرية، مصر.
- البيضان، فراس كريم شيعان وهند فايز أحمد (٢٠١٤). *الوساطة في المنازعات الإلكترونية. مجلة المحقق الحلبي للعلوم القانونية والسياسية*، مجلد ٦، العدد ٣، ص ١٦٢-١٨٢. <https://search.emarefa.net/detail/bim-592461>.
- جاسم، مها نصيف، وعامر، رشا (٢٠١٨). *التفاوض الإلكتروني، مجلة مداد الآداب*، العدد ١٦ الجامعة العراقية، كلية القانون والعلوم السياسية.
- الجاف، علاء عمر محمد (٢٠١٧). *الآليات القانونية لحماية المستهلك في عقود التجارة الإلكترونية*، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.
- جميعي، حسن عبد الباسط (٢٠٠٠). *إثبات التصرفات القانونية التي تم إبرامها عن طريق الإنترنت*، دار النهضة العربية.
- حمادنة، عبد الله (٢٠١٦). *التجربة الأردنية في الوسائل البديلة في حل النزاعات*، ورقة عمل مقدمة للمؤتمر السابع لرؤساء المحاكم العليا في الدول العربية، سلطنة عُمان، ٢٣-٢٦/١٦١٠٢٠١٦.
- حيدر، محمود (٢٠١١). *الوساطة*، مقالة منشورة على صفحة البيان اللبنانية بتاريخ ٢٣/١١/٢٠١١، على الرابط: <https://www.albayan.ae/opinions/articles/2011-02-23-1.1390381>.
- الدخيل، سليمان بن صالح، الوساطة وأثرها في حل المنازعات، *مجلة القضاء*، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد السادس.
- دليلة، معزوز (٢٠٢٠). *التفاوض الإلكتروني كمرحلة سابقة للتعاقد «دراسة سابقة»*، *مجلة جامعة أوكلبي محند أولجه*، البويرة الجزائر.
- الزاهي، عمار، الطرق البديلة لحل النزاعات، *مجلة المحكمة العليا الأردنية*، عدد خاص، ج٢.
- سلامة، أحمد عبد الكريم، *النظام القانوني لمفاوضات العقود الدولية*، بحث منشور على الموقع الإلكتروني: [www.arablawninfo.com](http://www.arablawninfo.com).
- السنهوري، عبد الرزاق أحمد (٢٠٠٠). *الوسيط في شرح القانون المدني*، المجلد الأول، نظرية الالتزام بوجه عام، مصادر الالتزام، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، لبنان.
- شعبان، حسام أسامة (٢٠١٨). *الاختصاص بمنازعات التجارة الإلكترونية بين القضاء الوطني والتحكيم عبر الإنترنت دراسة تحليلية تأصيلية مقارنة*، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، الطبعة الأولى.
- الطائي، حيدر أدهم، (٢٠١٣). *الوساطة كطريقة لتسوية المنازعات الدولية*، جامعة النهدين، كلية الحقوق، العدد ٤.
- عاشور، رامز مهدي (٢٠١٢). *إجراءات التحكيم الإلكتروني في منازعات العقد الإداري الإلكتروني «دراسة تحليلية»*، *مجلة جامعة الإسراء للعلوم الإنسانية*، غزة، العدد العاشر، يناير، رابط المجلة الإلكتروني <https://israa.edu.ps/iug>.
- عبد الله، رجب كريم (٢٠٠٠). *التفاوض على العقد «دراسة تأصيلية تحليلية مقارنة»*، دار النهضة العربية، القاهرة.
- العجلوني، أحمد خالد (٢٠٠٢). *التعاقد عبر الإنترنت (دراسة مقارنة)*، دار العلم والثقافة، دون ذكر بلد النشر.
- عجيل، طارق كاظم، (٢٠٠٨). *التنظيم الاتفاقي للمفاوضات العقدية، مجلة المؤتمر العلمي الأول، كلية القانون، جامعة القادسية، ٥-٦ تشرين الأول*.
- علي، جمال عبد الرحمن محمد، (٢٠٠٤). *المسؤولية المدنية للمتفاوض، نحو تطبيق القواعد العامة على مسؤولية المتفاوض عبر الإنترنت*. دراسة مقارنة بين القانون المصري والفرنسي، دون ذكر دار النشر.
- علي، محمد حسن محمد، (٢٠١٢). *التحكيم الإلكتروني في منازعات التجارة الدولية*، رسالة دكتوراه، كلية الحقوق جامعة حلوان، مصر.
- عوض، يوسف سيد سيد، (٢٠١٢). *خصوصية القضاء عبر الوسائل الإلكترونية*، رسالة دكتوراه، حقوق عين شمس.
- العيد، حداد، (٢٠٠٩). *الحماية المدنية والجنائية للمستهلك عبر شبكة الإنترنت*، مداخلة قدمت في المؤتمر المغربي الأول حول المعلوماتية والقانون، أكاديمية الدراسات العليا، طرابلس، ليبيا، ٢٧/٩٣/٢٠٠٩.
- قانون الأونسيترال النموذجي للتوفيق التجاري الدولي والذي تبنته منظمة الأونسيترال في سنة ٢٠٠٠.
- قانون المعاملات الإلكترونية الفلسطينية رقم (٦) لسنة ٢٠١٣م، منشور في الجريدة الرسمية، نشر في العدد ٨٩ من الوقائع.
- قانون رقم (٩) لسنة ٢٠١١م بشأن الغرف التجارية والصناعية الفلسطينية، منشور في الجريدة الرسمية.
- القرآن الكريم.
- قشبي، الخير، (١٩٩٩). *المفاضلة بين الوسائل التحكيمية وغير التحكيمية في تسوية المنازعات الدولية*، ط١، بيروت، لبنان.
- قصعة، سعاد، (٢٠٢٠). *الوساطة الإلكترونية كوسيلة بديلة لحل منازعات التجارة الإلكترونية، مجلة كلية الشريعة والاقتصاد*، جامعة عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، تاريخ النشر، ٢٨/١٢/٢٠٢٠، على رابط المجلة الإلكتروني <https://www.asjp.cerist>.
- مجمع اللغة العربية، (٢٠٠٠). *المعجم الوجيز*، طبعة وزارة التربية والتعليم، مصر.
- مركز (square trade) <http://www.squaretrade.com>.
- مركز التجارة الدولية يونكتاد، موقع المركز على الإنترنت <https://www.un.org/ga/acabq/documents/all>.
- مركز القاهرة الإقليمي للتحكيم التجاري الدولي، موقع المركز على الإنترنت <https://crica.org>.
- المزيني، غازي بن فهد بن غازي، (٢٠١٨). *الحماية القانونية للمستهلك في عقود التجارة الإلكترونية دراسة تأصيلية تطبيقية مقارنة*، دار الكتاب الجامعي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.
- مسعودي، يوسف، وأزوا، محمد، (٢٠١٨). *الوساطة الإلكترونية كآلية لتسوية منازعات الاستهلاك المبرمة بوسائل إلكترونية، المجلة الإفريقية للدراسات القانونية*، جامعة أحمد دراية، الجزائر، المجلد: ٢، العدد: ٢.
- المطالقة، محمد فواز، (٢٠١٠). *الوجيز في عقود التجارة الإلكترونية (أركانها... اثباتها)*، دراسة مقارنة، ط٣، دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- معجم اللغة العربية، (٢٠٠٨). *باب وسط*، الطبعة الرابعة، مكتبة الشروق الروائية.
- معزوز، دليلة، (٢٠٢٠). *التفاوض الإلكتروني كمرحلة سابقة للتعاقد «دراسة مقارنة»*، *مجلة الباحث للدراسات القانونية والسياسية*، جامعة باتنة ١ الحاج لخضير، الجزائر، المجلد ٥، العدد ١.



## اللغة والعمارة: دراسة سميولسانية في مكونات اللغة المعمارية وخصائصها

ابراهيم مهديوي

### الملخص

تناقش هذه المقالة موضوع العلاقة التكاملية بين العمارة واللغة استنادا إلى أسس لسانية ومنطلقات سميائية ثقافية، لتبيّن أن العمارة شكل من أشكال التواصل الإنساني الذي يبعث رسائل خفية تُعطيها الاعتبارات النفعية وتحجبها الخصائص الجمالية؛ إذ ينتظم النسق المعماري - كغيره من الأنساق التعبيرية - بصفته نسقا من العلامات المختلفة المعبرة عن أفكار لا تنفصل عن هوية الفضاء السميائي، ومعايير الثقافة، وذاكرته التاريخية. وقد توصلت هذه المقالة إلى تأكيد أن النسق المعماري موضوع تواصل يملك لغة ثانوية مركبة المفردات ومعقدة البناء قادرة على توصيل المعلومات وتبادلها، والإخبار عن القيم والمعتقدات، والتعبير عن الهوية، وبناء الذاكرة الثقافية الجمعية، وتقديم صورة عن العالم والتأخر والزمن والفضاء.

**الكلمات المفتاحية:** سميائيات معمارية، لسانيات، لغة معمارية ثانوية، تواصل معماري، هوية.

### Language and Architecture: A Semio-Linguistic Study of the Components and Characteristics of the Architectural Language

#### Abstract

This article discusses the subject of Architecture and Language based on integrated linguistic foundations and cultural semiotic premises, showing that Architecture is a form of human communication that sends hidden messages that are shrouded by utilitarian considerations and aesthetically obscured. The Architectural system - like other expressive systems- is organized as a system of different signs expressing ideas that are inseparable from the identity of the semiosphere, its cultural norms and historical memory. This article concluded that the architectural system is a communicative object that possesses a secondary Language with complex vocabulary and complex structure capable of communicating and exchanging information, telling about values and beliefs, expressing identity, constructing collective cultural memory, and presenting an image of the world, the Other, time and space.

**Keywords:** Architectural Semiotics, Linguistics, Secondary Architectural Language, Architectural Communication, Identity.

- البلوي معلا، محمد بن فريخ، الإصلاح بين الناس أحكامه وآدابه وقواعده وخطواته، منتدى قبائل بلي الرسمي على الإنترنت، ص٧، www.bluwe.com.

- المنازعات الإلكترونية، مجلة المحقق الحلي للعلوم القانونية والسياسية، العدد الثالث، السنة السادسة،  
http://mouhakiq.com/papers/law\_2016\_3251180pdf.2017.

- مؤسسة التمويل الدولية، www.fic.org.

- موسى، طالب حسن، (٢٠١٠). قانون التجارة الدولية، الطبعة الأولى، دار الثقافة، الأردن.

- موقع المنظمة العالمية للتجارة، www.wto.org.

- النكاس، فاخر، (١٩٩٦). العقود والاتفاقيات الممهدة للتعاقد وأهميته التفرقة بين العقد والاتفاق في المرحلة السابقة على العقد، مجلة الحقوق، جامعة الكويت، السنة ٢٠، العدد الأول مارس.

- النمر، أبو العلا علي أبو العلا، (٢٠٠٢). مفاوضات عقود التجارة الدولية، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية، القاهرة.

- النمر، أبو العلا علي أبو العلا، مهارات المستشار القانوني في عقود التجارة الدولية، القاهرة، بدون تاريخ نشر.

- وسيليكو، كارل، (١٩٩٩). عندما يتقدم الصراع دليل عملي لاستخدام الوساطة في حل النزاعات، «ترجمة د. علاء عبد المنعم»، القاهرة، الدار الدولية للنشر والتوزيع.

- يتوجي، سامية، (٢٠١٣). أهمية التحكيم الإلكتروني كوسيلة لفض منازعات التجارة الإلكترونية، العلوم القانونية، المجلد ٧، العدد ١٤ (٣٠ يونيو/حزيران).

### المراجع الأجنبية:

- Art 1134/3 ccf: "Elles doivent être exécutées de bonne foi".
- Art 7/1 "Pour l'interprétation de la présente Convention, il s'en est tenu compte de son caractère interne et de la nécessité de bonne foi dans le commerce international." Convention de Vienne 1980, Conclue a' Vienne le 11 avril 1980.
- Gara, N. (2001). Le consentement de l'Etat à l'arbitrage relatif à l'investissement international (Contribution à l'étude des grandes tendances de la jurisprudence du CIRDI), Thèse de doctorat d'état en droit, Faculté de droit et des sciences politiques de Tunis.
- Heuvel, Esther Van Den (2008). Online dispute resolution as solution to cross-border E-disputr.
- Hopt, K. J. and Steffek, F. (2008). Mediation – Rechtstatsachen, Rechtsvergleich, Regelungen, Mohr Siebeck, Tübingen.
- Paulson, J. (1995). Arbitration without privity, ICSID Review, Foreign Investment Law Journal.

استثمر سيميائيّو مدرسة تارتو موسكو السيميائية (Tartu-Moscow Semiotic School) بالإضافة إلى ذلك الأصول اللسانية والسيميائية السابقة من أجل صَوْغ سيميائيات ثقافية تأويلية تجعل فعل النمذجة (Modeling) أساس التبدليل السيميائي. فقد ناقشوا العلاقة بين أنساق النمذجة الأولية (Primary Modeling Systems) كاللغتين العربية والإنجليزية، وأنساق النمذجة الثانوية (Secondary Modeling Systems) كالشعر والرقص والموسيقى، مُبرزين أن ما هو ثانوي مبنّي على أساس ما هو أولي؛ فنحن نصف، ونؤوّل، ونتفكر، ونتحدث عن أيّ نسق نمذج ثانوي اعتمادا على قدرات النسق المنمذج الأولي، ذلك أن اللغة الطبيعية «لغةً أولية، سواءً من وجهة نظر محايدة أو وظيفية؛ إذ تُنظّم اللغة بوصفها نسقا مركبا (من وجهة نظر محايدة)، وهذا هو المثال الذي يمكن أن يتَّخذ، على حد تعبير لوتمان، بوصفه عيّنةً أو نموذجا، وهي أيضا (من منظور وظيفي) الأداة الأكثر سهولة التي يسهل الوصول إليها لوصف الأنساق الآخري» (Lorusso, 2015, p. 70).

إن مفهوم النمذجة السيميائية (Semiotic Modeling) أحد الملامح المميّزة للبحث السيميائي والتحليل الثقافي عند مدرسة تارتو موسكو السيميائية. فقد أكد «توماس سيبوك» (Thomas Sebeok) - في مقاله الموسوم بـ: «بأي معنى تعد اللغة نسقا منمذجا أوليا» (1988) - أن «التمييز بين أنساق النمذجة الأولية والثانوية تمّ تقديمه لأول مرة من قبل «أندريه زاليزنيك» (Andrey Zaliznyak)، و«فياتشسلاف إيفانوف» (Vyacheslav Ivanov)، و«فلاديمير طوبوروف» (Vladimir Toporov) في مقال مشترك عام (1962) بعنوان: «دراسة بنيوية تصنيفية لأنساق النمذجة السيميائية» (Semenenko, 2012, p. 37). يقصد بهذا أن «التعبير عن نسق النمذجة الأولي- يقترن، بوصفه قاعدة عامة، تتقابل مع مفهوم نسق النمذجة الثانوي، الذي يؤكد طابعه الاشتقاقي في علاقته باللغة الطبيعية- كان مركزًا بالنسبة للسيميائيات الروسية لمدرسة تارتو- موسكو منذ 1962، عندما اقترحه «زاييليزنيك» وإيفانوف وطوبوروف» (Sebeok, 2001, p. 139).

للإشارة، لم توظف المدرسة السيميائية المذكورة مصطلح النمذجة إلا في مقال «يوري لوتمان» الموسوم بـ: «قضية المعنى في أنساق النمذجة الثانوية» عام (1965)، وهي المادة العلمية نفسها التي أعيد نشرها لاحقا في فصل من فصول كتابه: «بنية النص الفني» (1977)، بعنوان: «إشكالية المعنى في النص الفني». وقد حدّد إجرائيا العلاقة بين أنساق النمذجة السيميائية كالتالي: «نسق النمذجة الثانوي بنية مؤسسة على أساس اللغة الطبيعية. يأخذ النسق لاحقا بنيةً ثانوية إضافية قد تكون إيدولوجية، أو أخلاقية، أو فنية، إلخ. يمكن بناء المعاني في هذا النسق الثانوي وفقا للوسائل الكامنة في اللغات الطبيعية أو من خلال الوسائل المستعملة في أنساق سيميائية أخرى» (Monticelle, 2016, p. 440). إن «الأنساق التي تكون اللغة الطبيعية أساسا لها (...) تسمى أنساق النمذجة الثانوية. لهذا، تُفسّر اللغات الطبيعية، باختصار، على أنها أولية، أو البنية الرئيسة لجميع أنساق العلامات الإنسانية الآخري؛ وهذه الأخيرة- مثل الأسطورة والدين- بنياتٌ نشأت على أساس اللغات الطبيعية» (Sebeok, 2001, p. 140). وبصيغة أخرى، فإن النسق المنمذج الثانوي يُبنى على أساس النسق المنمذج الأولي؛ إما بكيفية مباشرة كما هي الحال في الأدب، أو بطريقة موازية كما هي الحال في الموسيقى والرسم وغيرهما. إن النمذجة السيميائية في السيميائيات الثقافية تُعبّر عن عملية مركزية في السيميائيات بصورة عامة؛ ويتعلق الأمر بالسيرورة المفضية إلى إنتاج ما لا حصر له من الدلالات، نظريا على الأقل. إذ تُمكّن هذه العملية الأنساق المنمذجة الأولية من وصف العلامة، وتعيينها، وتسميتها، وتحديد إحالتها المرجعية في الواقع، بينما تنزاح هذه العلامة في سياق الثقافة والمجتمع والتاريخ والفنون داخل الكون السيميائي المعنى عن معارفها الصريحة والمباشرة ووجودها الأولي، لتعانق خصيصة الإبداعية الدلالية أو التوليد الدلالي غير النهائي الذي يميز أنساق النمذجة الثانوية كافة.

تحدّث «بيتر طوروب» (Peeter Torop) - أيضا- عن صلة النسق الأولي بالنسق الثانوي في إطار النمذجة السيميائية، مُعْتَبِرًا أن اللسان نسق منمذج أولي، وأن الأنساق المنمذجة الثانوية هي أنساق الفنون والثقافات، وأن لغات ثقافية وفنية مركبة كالفيلم والموسيقى والرسم لغات محاكية للنموذج اللساني (Torop, 2015, p. 175). إننا نتحدث في السيميائيات الثقافية (Cultural Semiotics) عن لغات

«الفن، والدين، والمعمار، والرقص، والموضة. إذ يمتلك كل واحد من هذه الأكوان الثقافية (Cultural Spheres) أشكاله النموذجية، وقواعده، وفضاءاته، ويمكن استعمالها، بدورها، للتعبير عن جوانب محددة من الثقافة، لكن من أجل أن تتخذ هذه الأشكال تداولا سيميائيا فهي تحتاج إلى لغة طبيعية، يجب أن تصبح موضوع خطاب. بالإضافة إلى ذلك، نفكر في الفن، والموضة، والمعمار، وغيره، بصفتها لغات. لذلك، نَحْن عرضة للبحث في

تُعنى السيميائيات (Semiotics) بدراسة عمليات إنتاج المعنى وتداوله داخل التجربة الإنسانية من حيث هي أشكال رمزية متوسطة بلغة «إرنست كاسيرر» (Ernst Cassirer)، أو أنساق علامات وظيفية مختلفة على حد تعبير مدرسة تارتو موسكو السيميائية. وإذا كانت السيميائيات علم العلامات، فهذا معناه أنها تحليل يتتبع سيرورات الإنتاج والتلقي، وهو ما جعل السيميوزيس (Semiosis) موضوعا لهذا العلم الدلالي. من هذا المنطلق، تدرس السيميائيات حركية أنساق العلامات في اللغة والأدب والثقافة والفن في ضوء مقارنة تأويلية تشكل الوجه التطبيقي للنظرية السيميائية. لقد بيّن الدرس السيميائي أن الوجود الثقافي- أولا وقبل كل شيء- وجود سيميائي يتشكل من أنساق علامات ذوات طبائع جوهرية مختلفة: لسانية، واصطناعية، وثقافية فنية. لكن الثابت أن جميعها جزء من سيرورة سيميائية لتوليد الدلالات، وإبلاغ المعلومات.

تبنى هذه الأنساق السيميائية مجتمعة «كُونًا سيميائيا» (Semiosphere) بمصطلحية «يوري لوتمان» (Juri Lotman)، وتربطها داخله علاقات متنوعة. فقد رصد «فيرديناند دي سوسير» (Ferdinand De Saussure) هذه الارتباطات؛ وذلك حين جعل اللسان أرقى هذه الأنساق السيميولوجية، فهو مُؤوّل نفسه، ومُؤوّل جميع الأنساق غير اللسانية، ووجهها اللفظي، وهو أيضا «المصفاة» التي عبرها تحضر هذه الأنساق في الذهن (بنكّراد، 19، 2، ص. 45)، فلا يمكننا الحديث- مثلا- عن «المتحف» انطلاقا من مكوناته المتباينة (اللوحات الإرشادية، والآثار، وغيرهما)، بل نستعين بقدرات اللسان للتكلم عنه، ونصفه، ونحدّد مكوناته، ونُسَمِّيها، ونؤوّلها لتتعرف على حقيقته السيميائية.

انتبه «إميل بنفنيست» (Emile Benveniste) - أيضا- إلى طبيعة هذه العلاقات بين أنساق فضائنا السيميائي ووضّحها، مشيرا إلى أنه- وهذا أمر مؤكد حتما- لا يمكن بناء سيميائيات لنسق منمذج ثانوي (Secondary Modeling System) سواء تعلق الأمر بالصوت، أو اللون، أو الصورة، أو المسرح، أو المعمار، أو أيّ نسق سيميائي آخر غير لساني إلا باستعارة واقتراض إمكانات التأويل من اللغة الطبيعية (اللسان). وقد لخص هذه التعالقات في ثلاثة أنواع هي:

أ- علاقة توليدية (Relation d'engendrement): تعني إمكان توليد نسق سيميائي من نسق سيميائي آخر، ويُشترط أن يكونا معا من الطبيعة نفسها ومتزامنين أيضا، كي نتجنب الحديث عن تلك اللغة الاشتقاقية التي تميز أغلب أنظمة الكتابة (توجد علاقة اشتقاقية بين الكتابة الهيروغليفية والكتابة الديموطيقية). لهذا، فالتوليد، استنادا إلى ذلك، يمكن أن يشمل قواعد ونمط اشتغال اللغة الطبيعية وإكسابها نسقا سيميائيا آخر، كالعمار؛

ب- علاقة تناظر أو تماثل (Homologie) بين نسقين سيميائيين أو أكثر، وتعني أن ثمة مجموعة من العلاقات بين أجزاء نسقين سيميائيين، وهو ما غاب عن علاقة التوليد التي تحدث بين نسقين سيميائيين منفصلين على حد تعبير «إميل بنفنيست». يمكن اعتمادا على علاقة التماثل أن نفسر اشتغال أجزاء أو قواعد نسق سيميائي قياسا على نمط اشتغال نسق سيميائي آخر؛ كأنْ نفترض أن النسق المعماري يشتغل وفق آليات وقوانين لا تقل أهمية دلالية وتواصلية عن النسق اللساني من حيث مكوناته وآليات اشتغاله، وهي دراسة مقارنة تصل إلى درجة المماثلة والمحاكاة، لكنها لا تُعدّ استنساخا كليا للأصل اللساني؛

ه- تسمى العلاقة الثالثة علاقة تأويلية (Relation d'interprétance). نحتاج في هذه العلاقة إلى تمييز النسق المؤوّل (اللغة الواصفة أو الميثالغة) (Metalinguistic) عن النسق المؤوّل (موضوع الوصف)، أي التفريق بين الأنساق التي تُمفصل ذاتها بذاتها بفضل ما تحتوي عليه من قدرات سيميائية خاصة، والأنساق التي تظهر فقط من خلال تدخّل نمط آخر للتعبير. يمكن تسويغ هذا المبدأ بأن اللسان مؤوّل جميع الأنساق السيميائية، ووجهها اللفظي أيضا. إذ لا يوجد نسق آخر يمتلك «لسانا» يمكنه من خلاله تصنيف وتأويل ذاته وفُقا لملامحه السيميائية، بالمقابل، يمكن للسان، من حيث المبدأ، تصنيف وتأويل كل شيء، بما في ذلك ذاته (Benveniste, 1974, pp. 60- 62).



هذه الأشكال المختلفة للتعبير عن تنظيم العلامات المشابهة أو المماثلة للغة. لهذا، تشتغل اللغة الطبيعية بِعَدَّها أداة ونموذجاً للغات الثقافية الأخر التي تغدو من ثم ثانويةً. فنمذجتها و«قوتها» الوظيفية هي أن الثقافة ككل، في كل تعبير وَتَجَلِّ، يمكن تصوُّرها بوصفها لغة، ومن ثم، بصفتها تواصلًا» (Lorusso, 2015, p. 70).

تُشكِّل التصورات السيميائية المذكورة التي ناقشت علاقات الأنساق السيميائية داخل التجربة الإنسانية أسسا نظرية وأطرا منهجية لدراسة موضوع العمارة واللغة. وبناء على ذلك، فإننا نفترض أن ثمة ارتباطات وتمائلا منهجيا بين النسقين اللساني والمعماري داخل الفضاء الثقافي، فالمعمار (Architecture)- كما اللسان- نسق سيميائي مُعَبَّر عن أفكار معينة بواسطة لغة معمارية فنية ثانوية معقدة، وستكون مهمة التحليل السميولساني مناقشة هذه العلاقة من أجل تبيان مفردات اللغة المعمارية، وكشف خصائصها البنيوية والتركيبية والجمالية والسيميائية، وذلك استنادا إلى علاقات «التوليد»، و«التماثل»، و«التأويل» التي تجمع النسقين الأوّلي والثانوي.

#### دوافع البحث

إن هذه المقالة لا تدعي المماثلة المطلقة بين النسقين اللساني والمعماري، وإنما تُظهر بعض الملامح المشابهة للسان في العمارة. ويهدف هذا القياس المنهجي بين النسق اللساني والنسق المعماري إلى تبيان أن العمارة تمتلك لغة ثانوية مركبة المفردات ومعقدة البناء قادرة على مخاطبة المتلقي. فقد كان من بين أهم دوافع اختيارنا لهذا الموضوع تأكيد أن العمارة ظاهرة سيميائية تواصلية، أي واقعة ثقافية ناطقة ومعبرة عن هوية قاطنيها، إذ نسكن العمارة ونُشَيِّدها دون أن نتأمل في خطابها، ودون أن نتحاور معها أو نحادثها، في حين أنها تتكلم إلينا يوميا عبر أبسط وحداتها المعمارية وأكثرها ألفة. لذلك، وجب علينا أن نعي ما الذي تقوله العمارة من خلال تصميمها المعماري، ومكوناتها الوظيفية. ومن ثم، يتعين على أعضاء الثقافة أن يدركوا أن كل شيء في العمارة مؤشر دلالي يوحى بأكثر مما يُصرِّح؛ ذلك أن تصميمها المعماري، ومواد بنائها المستعملة، وزخارفها، وألوانها، واتجاهات نوافذها وأبوابها، وسقفها، وطرائق تشييدها، والأدوات المستعملة، هي ملامح مميّزة لممارسة العمارة التي ضمّنها الإنسان جزءا من قيمه، ومعارفه، ومعتقداته، وخبراته، وتصوره للعالم. وهو ما لا ينتبه إليه عامة الناس؛ بسبب التورية الثقافية التي تمارسها الخدمات النفعية والخصائص الجمالية.

#### مشكلة البحث

تراهن هذه المقالة على تقديم إضافة نوعية نظرية وتطبيقية في موضوع اللغة والعمارة؛ وذلك من خلال مناقشة لغة المعمار، وتحديد مفرداتها التعبيرية، ورصد ملامحها الفنية الفريدة، وتحليل نماذج مختارة من الأشكال المعمارية الشعبية. وعلى هذا، يمكن تلخيص مشكلة البحث في الأسئلة التالية:

- كيف فُسِّرت الثقافة في ضوء نظرية أنساق العلامات ضمن السيميائيات المعاصرة؟
- وكيف ناقشت سيميائيات الثقافة موضوع اللغة في الأنساق الثقافية والفنية الثانوية؟
- وكيف تساعد المقاربة السميولسانية على تحديد طبيعة لغة المعمار، والتعرف على مفرداتها التكوينية، وكشف مستوياتها التعبيرية، ورصد خصائصها المميّزة، وتأويل رسائلها المضمرة؟

#### منهج البحث ومنهجيته

تناقش هذه المقالة العلاقة بين اللسان والعمارة بصفتها نسقين ثقافيين تواصليين في ضوء التحليل السميولساني (Semio-Linguistic Analysis)، مُستنديين إلى إطار نظري متكامل يستثمر أدوات لسانية وسيميائية ثقافية من أجل البحث في لغة المعمار قياسا على اللسان من حيث مكوناته والآليات التي تحكمه. ومن أجل أن يكون بحثنا متنسق البناء، فقد اعتمدنا المنهجية التالية: عملنا في البداية على تفسير أن الثقافة- بمكوناتها المادية وغير المادية، وعناصرها اللسانية وغير اللسانية- نظامٌ تواصلِي، وقصدنا بهذا أن التواصل داخل فضاءنا الثقافي يحدث بواسطة أشكال رمزية توسطة متعددة تمثلها: العمارة، واللسان، والوشم، والمسرح، وما إلى ذلك. وقد اعتمدنا في توضيحنا لهذين البعدين الدلالي والتواصلِي المتواشجين على أطروحات: «فيرديناند دي سوسير» في مؤلفه: «دروس في اللسانيات العامة»، و«إميل بنفيسست» في كتابه: «مشاكل اللسانيات العامة»، و«أمبرتو إيكو» (Umberto Eco) في مشروعه السيميائي التأويلي ككل، و«يوري لوتمان» في كتابه: «بنية النص الفني» و«تحليل النص الشعري: بنية القصيدة»، و«إدوارد تي هول» (Edward T. Hall) في مؤلفه: «اللغة الصامتة» و«ما بعد الثقافة»، وغيرهم، مُبيّنين أن التواصل الثقافي «تواصل عالي السياق» يتم بكيفية مضمرة.

ذلك أن كل نسق ثقافي يسعى إلى إحداث تواصل بين طرفين يُعدُّ لغةً في سيميائيات الثقافة، يشترط أن ينتظم بوصفه نسقًا من العلامات المتّسقة القادرة على الدلالة على معنى تام وتوصيل رسالة مكتملة، وهو ما أتاح لنا الحديث عن لغات ثقافية متنوعة ومركبة تختلف مكوناتها وخصائصها من نسق ثقافي إلى آخر؛ والسبب أننا يمكن أن نُوصِل معلومات ونُبلِغ رسائل بلغات ثانوية متباينة: موسيقية، أو مسرحية، أو معمارية، أو احتفالية، إلخ. ناقشنا بعد ذلك لغة المعمار، ورصدنا مكوناتها، وأبرزنا ملامحها الفنية المعقدة، وكشفنا أنماطها اللغوية ومستوياتها التعبيرية، وذلك استنادا إلى تصورات «رولان بارت» (Roland Barthes)، و«ألكسندر كريستوفر» (Alexander Christopher)، وسيميائيي مدرسة تارتو موسكو، وسيميائيين معماريين مختلفين، مُؤكِّدين أن لغة العمارة نسق سيميائي مركب من أنساق علامات تعبيرية مختلفة المفردات اللغوية، ومعقدة البناء. ثم جسد الشق الأخير من الدراسة بُعْدًا تطبيقيا لإعمال إطارنا النظري بصفته أداة إجرائية لتحليل لغة المعمار، وتحديد مفرداتها اللغوية، ورصد خصائصها الفنية والتركيبية، وقد استهدف تحليلنا السميولساني نماذج معمارية مختارة من واحة تافيلالت بالمغرب؛ بغرض تبيان أن العمارة الطينية أعمق من كونها بنية سكنية وعمرانية؛ فهي نسق دلالي وموضوع تواصلِي يبعث برسائل إضافية لا تغفلت من هوية قاطنيها وقيمهم ومعتقداتهم وذاكرتهم، فكل شيء فيها علامة ولغة، من جدران، وأسقف، وواجهة، وتصميم، وزخرفة، ونوافذ، وأبواب، وألوان، إلخ.

#### أهمية البحث وأهدافه

تكمن أهمية هذا البحث في أنه يناقش موضوع الثقافة من وجهة نظر سيميائية صادرة عن مدرسة تارتو موسكو في سيميائيات الثقافة، مع دعم هذا التحليل بأطروحات سيميائيين ولسانيين وأثنوبولوجيين تأويليين شكلت منهجهم ونظرياتهم أدوات مساعدة على التفكير السيميائي في الثقافة برمتها. ومن ناحية ثانية، يركز البحث على ضرورة اعتماد مماثلة منهجية تُحلّل لغة العمارة قياسا على اللسان من حيث وظائف مكوناته وآلياتها؛ فالتعبيرات الثقافية والأنساق الفنية لا تقل أهمية عن التعبيرات اللسانية في بناء الحدث التواصلِي، وإنجاحه في الحياة الاجتماعية.

#### 1. الثقافة ظاهرة سيميائية تواصلية

حدّدت مدرسة تارتو موسكو السيميائية الثقافة (Culture) موضوعًا للتحليل السيميائي الثقافي؛ لأنها أعمق من أن تُختزَل في أبعادها الجمالية، وموضوعاتها المباشرة، ومعطياتها الأصلية التي يتيحها مستوى التقرير، ذلك أن حقيقتها تتجاوز هذه المرتبة إلى مستويات خطابية تُكثّف أنساقا ثقافية هي من صلب التوافق الاجتماعي والتداول اليومي. من هذا المنطلق، فليست اللغة، والتقاليد، والشعائر الدينية، والطقوس، والاحتفالات، والأسطورة، وغيرها، كُلاً مركبا يجعل الإنسان عضوا اجتماعيا فحسب، وإنما هي ما يجعله كائنا ثقافيا رامزا يُنتج أشكالاً رمزية توسطة، ويتداولها داخل فضائه السيميائي.

لقد فُسِّرت الثقافة استنادا إلى نظرية أنساق العلامات في السيميائيات المعاصرة بأنها نسق سيميائي عام يتكون من أنساق علامات فرعية وظيفية مختلفة هي مكوناتها المادية وغير المادية، وعناصرها اللفظية وغير اللفظية، التي تُعبّر عن هويتها، وتُصرِّف قيمها ومعتقداتها، وتبني ذاكرتها وسجلّها الحضاري. فلم يُعد المعيار البدهي، أو العَمَلِي، أو النفعي، أو الجمالي منتهى عملية التعرف (Recognition) على حقيقة العناصر الثقافية، لكن نُظِر إليها بصفتها «مدخلًا» و«مهادًا» لمطاردة السميوزيس الثقافي وتعقبه في مختلف أشكال توّغله؛ والسبب أن الدلالات النسقية تنسرب إلى أيّ موضوع ثقافي مهّمًا كانت طبيعته، وكيفما كانت طرائق انتظام أنساق علاماته. إن الملمح المميز للثقافة مائل في أنها ظاهرة سيميائية تتشكل من أشكال رمزية تتوسط أبسط معاملاتنا اليومية بدهاء واعتيادًا. ويعني هذا أنها عبارة عن حوامل دلالية تنقل المعلومات، والأخبار، والأحداث بواسطة أشكال ثقافية متعددة الصيغ والأشكال واللغات. في الواقع، إننا نتواصل داخل وسطنا الإنساني بواسطة علامات، فَنُبلِغ رسائلنا ونتلقى أخرى، ونفهم بعضها بعضا؛ لأننا نمتلك تجارب جمعية، وخبرات سابقة، وقواسم مشتركة تُسهّل التواصل والحوار فيما بيننا، ومن ثم تُحصّل الفهم. ولك أن تتأمل لِم لا تتمكن من فكّ شفرات رسائل لغوية أو غير لغوية لا تنتمي إلى فضائك الثقافي؛ لأنك لست جزءا منه، ولا تعرف قوانينه ومعاييرته الثقافية وقواعده التداولية، ولست على معرفة بذاكرته التاريخية والثقافية، ولا تمتلك أية تجارب سابقة تدعم حوارك وتفاعلك.

في هذا الإطار، يؤكد «أمبرتو إيكو» أن فهم الثقافة لا يقتصر على إدراك طبيعتها السميائية فحسب، «بالعكس: الثقافة كلّها يجب أن ندرسها بوصفها ظاهرة تواصلية تقوم على أنساق دلالية هدفها إنتاج المعنى. وهذا معناه أن الثقافة لا يمكن دراستها إلا بهذه الطريقة، وبهذه الطريقة وحدها يمكن فهم الآليات الأساسية في العمل الثقافي» (بريمي، ٢٠١٨، ص ٥٣ - ٥٤).

حدد «يوري لوتمان» في السياق ذاته الثقافة في ضوء عنصرين وظيفيين: «(أ) أنها تحتوي على معلومات؛ (ب) وأنه ينبغي تبادل هذه المعلومات وتناقلها» (Lorusso, 2015, p. 68). إذ يشير العنصر الأول إلى البعد التزامني في الثقافة المرتبط بعناصرها التكوينية المختلفة اللسانية والثقافية، وهو ما يلخصه مبدأ اللاتجانس (Heterogeneity) الذي يشير إلى تنوع مكوناتها البنوية من جهة، ووحدها وانسجامها ودينامياتها بسبب تواصلها الداخلي أو تنظيمها الذاتي من جهة أخرى. بينما يتعلق العنصر الثاني بالجانب الدياكروني (غير المتزامن) القائم على تداول العناصر الثقافية بشكل دائم عبر كل الأزمنة؛ فهي عناصر حية ثقافيا- عكس العناصر البيولوجية التي تنقرض داخل الكون الحيوي- تؤدي وظائف ثقافية (حتى إن تراجع دورها الرئيس فإنها تصير تراثا، أو عنصرًا داخل متحف يحكي حضارة شعب ما)، وتنقل معلومات، وتُعبّر عن انتمائها الهوياتي، وتبني الذاكرة الجماعية وتحفظها. إن هذا العنصر التعاقبي يجعل الثقافة مجالًا حركيًا يضم «مجموع المعلومات غير الوراثة التي تكتسبها، وتحفظها، وتنقلها جماعات عديدة في المجتمع البشري» (كوبلي، وجانز، ٢٠٠٥، ص. ١٤٢).

نفهم من تصوّرَي «أمبرتو إيكو» و«يوري لوتمان» أن مصنّعاتنا الثقافية (Artefacts)، وممارساتنا الاجتماعية أنساقٌ ثقافية واجتماعية وتاريخية حاملة لرسائل ومعلومات مخصصة لا تنفصل عن ذاكرة وحضارة وهوية أعضاء الثقافة. فنحن لا نتواصل بأشكال فارغة، بل بحوامل دلالية تحقق وظائف معلوماتية داخل كوننا السميائي، فَيبنى الحدث التواصلية داخل هذا الفضاء السميائي استنادًا إلى قوانينه وقواعده الجوهرية، فهذه الحوامل هي المحدد الرئيس لبناء الرسالة، وفكّ شفراتها، ومن ثم فهمها. يجب أن نعيّ أنه عندما نتحدث إلى بعضنا بعضًا، أو نتفاعل اجتماعيًا وثقافيًا فيما بيننا داخل أية وضعية حوارية حياتية، أو نبلغ معلومات معينة، أو نصف أشياء وموضوعات ما، أو نقوم بأية ممارسة أو أيّ نشاط داخل حياتنا الاجتماعية، فإننا نتوسّط- لزامًا- أنساقًا سميائية اعتباطية محكومة بالعرف والتوافق الاجتماعيّ، وأن دلالاتها وحداتٌ دلالية ثقافية- إذا استثمرنا تصورات «أمبرتو إيكو»- يتلوّن معناها من ثقافة إلى أخرى (السياق)، ومن قارئ إلى آخر (الموسوعة والخبرات)، ومن عصر إلى آخر (التحوّلات الثقافية والاجتماعية)، وأن وظائف هذه العلامات الثقافية اختلافية، إذا استعرنا مصطلحية «فيرديناند دي سوسير» في السيميولوجيا.

إن الثقافة تتشكل من نسيج علامي مركب يشترك في سيرورة بناء المعاني وتوصيل الرسائل؛ فأيّ شيء في الثقافة جزء من سيرورة سميائية للدلالة والإبلاغ. بهذه الكيفية، يمكن فهم الثقافة على نحو جيّد، ومن ثمّ يمكن تفسير البُعد السميائيّ في الوجود الثقافيّ والاجتماعيّ والتاريخيّ. ويُتيح تنوع الأنساق الدلالية والموضوعات التواصلية داخل كوننا الثقافيّ إمكانات تواصلية متعددة، وهو ما قاد «يوري لوتمان» إلى افتراض مفهوم مُوسّع للتواصل تندرج ضمنه جميع الأنساق السميائية التي تُحدث تواصلًا لا تقلّ أطرافه عن عنصرين، تأثرًا بدورة الكلام عند «فيرديناند دي سوسير» التي تستدعي- على الأقل- متكلّمًا ومستمعًا يتبادلان الأدوار. وعلى هذا، يحدث التواصل بالأنساق اللسانية كاللغتين العربية والإنجليزية وغيرهما، والأنساق الفنية الثقافية كالمسرح والمعمار والموسيقى وغيرها، والأنساق الاصطناعية العلمية المعتمّدة في وصف مجالات ضيّقة من النشاط الإنساني كالإشارات الطرقية والإشارات في علوم الجبر والفيزياء (لوتمان، ١٩٩٥، ص. ٣٩).

حدد الأنثروبولوجي «إدوارد تي هول» علاوة على ذلك أسلوبين جوهريين للتواصل في الثقافات هما: «السياق العالي»، و«السياق المنخفض»، واللّذين يمكن العثور عليهما بدرجات متفاوتة في كل الثقافات، إذ يذكر:

يمكن وصف أية معاملة بأنها عالية أو منخفضة أو وسيطة. تتميز المعاملات عالية السياق بالمعلومات المبرمجة مسبقًا في جهاز الاستقبال وفي الإعداد، مع الحد الأدنى فقط من المعلومات في الرسالة المرسلة. المعاملات منخفضة السياق هي عكس ذلك. يجب أن تكون معظم المعلومات في الرسالة المرسلة من أجل تعويض ما هو مفقود في السياق (الداخلي والخارجي). كثيرًا ما تستعمل التواصلات عالية السياق بوصفها أشكالًا فنية (Hall, 1976, p. 101).

وتعرف معاملاتنا اليومية تنوعًا كبيرًا في الرسائل التي تتحكم في بنائها وضيعاتنا الحوارية؛ إذ نحتاج إلى تواصل منخفض السياق حين نوّدّ تبليغ رسائل ذات محتويات تفسيرية، أو منطقية، أو حاجية، أو سببية، أو تبليغ معلومات مباشرة وأخبار، ويوفر هذا النمط من التواصل معرفة مباشرة وتقريرية لا تحتتمل أية تأويلات. بينما نحتاج إلى السياق العالي عندما نوّدّ التلميح إلى شيء ما، أو نضمّن الكلام أشياء إيحائية، أو ننتج أشكالًا ثقافية رمزية كالتشكيل والوشم والعمارة وغيرها لتُعبّر بلغاتها الفنية المركبة عن رسائل تضمينية عميقة، وتُصرّف قيمًا وأحكامًا وتصنيفات، وتُكثّف تصورات حول العالم والآخِر والزمن والفضاء. تَفهّم من ذلك أن المعطيات المقامية والسياقية تؤثر بشكل فعال في عملية فك شفرات الرسائل الفنية، ومن ثم فهمها والتواصل معها.

## 2. اللغة في الأنساق المنمذجة الثانوية

تبيّن مما تقدم أن الثقافة سلسلة متصلة من الأنساق السميائية والموضوعات التواصلية، فمكوناتها المادية وغير المادية أنساق قيم وسلوك ومعارف تُحدث تفاعلات اجتماعية واتصالات ثقافية بين أفراد الثقافة؛ فهي تُسهّل عيشهم، وتحقق اندماجهم، وتضمن تكاملهم ووحدهم، ويتم تناقلها من جيل إلى آخر عبر التنشئة الاجتماعية والتفاعل مع العشيرة والأقران ضمن ذاكرة جمعية ممتدة زمنيًا. وذلك المقصود بأن الثقافة مجموعة من المعلومات والأخبار غير الموروثة بيولوجيًا، كما صاغت مفهومها مدرسة تارتو موسكو السميائية.

تحتوي الثقافة- بصفتها أنساقًا منمذجة ثانوية تضم النحت والموسيقى والتشكيل، في مقابل أنساق منمذجة أولية تجسدها اللغات اللسانية الطبيعية - على لغات ثقافية وفنية مركبة متعددة الأشكال، والصيغ، والأنساق. إذ تخاطبنا الطقوس، والاحتفالات، والزخرفة، والوشم، فتُوصل لنا معلومات ما مستعينة بلغات مختلفة (لوتمان، ١٩٨٩، ص ٥-٦): فنية، أو لسانية، على الرُّغم من تباين مفرداتها التعبيرية وطرائق انتظامها. فما يميز هذه اللغات جميعها أنها «نظام سميائي مُتّسق» (لوتمان، ١٩٨٩، ص. ٦)، بمعنى أنها نسق علامي يتكوّن من مجموعة العلامات المتعاضدة الدالة على أفكار ما، قياسًا على مفهوم اللسان عند «فيرديناند دي سوسير»؛ ذلك أن دراسة اللسان يمكن أن توازيها دراسات أُخر لأشكال تواصلية أخرى شبيهة به من حيث وظائف مكوناتها وآليات اشتغالها. إننا نصطلح مفردة «لغة»- بمفهومها الموسّع- على كل نسق سميائي يُنظّم عناصره الداخلية/النسقية وفق تنظيم بنيوي صارم ومحكم؛ فلا يمكن لرُكام من العناصر أن ينتج معنى تامًا، ويبلغ رسالة مكتملة، ولا قدرة لشظايا من المكونات المنفصلة- التي لا رابط بنيوي وفني يوحدّها- على تكوين حامل لمعلومات وأفكار.

لذلك، ليس غريبًا- حسب «يوري لوتمان»- أن يُخلق الفن «علاقة بين المرسل والمتلقي (في ظروف معينة يمكن الجمع بين كلتا الوظيفتين في شخص واحد، كما هي الحال في حالة وجود شخص يتحدث إلى نفسه فهو في الوقت نفسه متكلم ومستمع، لكن هذا لا يغير من الأمور شيئًا!) هذا يمنحنا الحق في تعريف الفن بوصفه لغة منظمة بكيفية مخصصة» (Lotman, 1977, p. 7). فبالنسبة له، «يمكن تعريف أيّ نسق يهدف في النهاية إلى إقامة تواصل بين شخصين أو أكثر بأنه لغة (كما هو مذكور فعلا، فإن حالات الاتصالات الإلكترونية تعني ضمينا أن فردًا واحدًا يشغل بوصفه عنصرين)» (Lotman, 1977). يشمل هذا التصور التواصل بين الحيوانات، والآلات (السيبرنطيقا)، لكنه «لا يعد أنساق التواصل داخل الفرد (على سبيل المثال، آليات التنظيم البيوكيميائي أو الإشارات المرسلة عبر الجهاز العصبي في الكائن الحي) لغة» (Lotman, 1977)؛ بدليل أن هذا النمط من التواصل لا يتوفر على طرفين مختلفين {أ-ب}، بل يحدث داخل الكائن الحي ذاته عبر جهازه العصبي {أ-أ}؛ لأنه يعكس التنظيم الذاتي للفرد بالدرجة الأولى، والتفاعل الذاتي لأجهزته فقط. وذلك سبب تفضيل «يوري لوتمان» للحوار التعدّدي كما صاغه «ميخائيل باختين» (Mikhail Bakhtin) في حواريته التي تُعدّ عيش الحياة مشاركةً في الحوار؛ لأن هذا الأخير عملية تواصلية تضم أطرافًا مختلفة كالشخوص الفعليين، والنصوص الثقافية، والممارسات الاجتماعية أيضًا، فهي حوارية غير محدّدة الأطراف.

إن مفهوم اللغة الذي يتبناه «يوري لوتمان» مفهوم سميائي مخصص، يقول:

نفهم أنّ اللغة تعني أيّ نسق تواصلية يستخدم علامات يتم ترتيبها بطريقة معينة. سيتمّ تمييز اللغات التي يتم النظر إليها بهذه الطريقة: (أ) عن الأنساق التي لا تشتغل بوصفها أداة للتواصل؛ (ب) وعن الأنساق التي تُستعمل بوصفها أداة للتواصل لكنها لا تُستعمل علامات؛ (ج) وعن الأنساق التي تُوظّف بصفتها أداة للتواصل وتستخدم علامات تامة أو شبه تامة (Lotman, 1977, p. 8).



وتستثني هذه التحديدات أيّ نشاط إنساني لا ينقل المعلومات ولا يروّجها داخل المجتمع، ولا يتعلق مفهوم اللغة- أيضا- بالأنشطة التي لا تستعمل العلامات وسيطا، كما يستبعد هذا التصور تلك العلامات التي تُوصف بأنها أنصاف أو أشباه علامات تُوظف في التواصل؛ أيّ تلك الأنساق الوسيطة (Intermediate systems)، مثل قسّمات الوجه والإيماءات، التي تنتمي- في مجملها- إلى صنف العلامات المصاحبة للغة (Prilinguistics) (Lotman, 1977, pp. 8- 9).

يحدث التواصل في السيميائيات الثقافية بأنساق أولية لسانية، وأخرى ثانوية ثقافية وفنية. إذُ

ينبغي أن نفهم عبارة الثانوية في علاقتها باللغة بمعنى أكثر من استعمال اللغة الطبيعية بوصفها مادة؛ إذا كانت العبارة لها هذه الإيحاءات والتضمينات، فإن إدراج الفنون غير اللفظية (اللوحة، والموسيقى، وغيرهما) سيكون أمرا غير مسموح به بوضوح. إن العلاقة هنا أكثر تعقيدا: فاللغة الطبيعية ليست فقط أصلا قريبا، لكنها أيضا أقوى نسق للتواصل الإنساني. ويحكم بنيتها، فهي تمارس تأثيرا قويا في النفس الإنسانية وفي العديد من نواحي الحياة المجتمعية. إن أنساق النمذجة الثانوية تُبنى، مثل جميع الأنساق السيميائية، على نموذج اللغة. وهذا لا يعني أنها تستنسخ جميع جوانب اللغات الطبيعية، فالموسيقى، على سبيل المثال، تتميز بوضوح عن اللغة الطبيعية بسبب الروابط الدلالية المنطقية، لكننا في الوقت الراهن، نجد وصفا لنص موسيقي بوصفه نوعا من الترتيب الاستبدالي التام (Lotman, 1977, p. 9).

لذلك، يحق لنا أن نتحدث عن لغات في المسرح، والموسيقى، والنحت، والمعمار، وما إلى ذلك، فجميعها تمتلك طاقات تعبيرية فريدة ناتجة عن اشتغال مكوناتها بصفتها نسقا علاميا مركبا معبّرا عن أفكار ما، ومن ثم يمكننا الحصول على إمكانات تعبيرية متنوعة ومتعددة، إذ بمقدورنا أن نقول أشياء بصيغ موسيقية، أو تشكيلية، أو مسرحية، وما إلى ذلك، لكنها أنساق تعبيرية ليست نسخًا حرفية للسان.

وعلى هذا الأساس، تناقش هذه المقالة المعمار بوصفه نسقا سيميائيا وموضوعا تواصليا؛ فهو يخاطبنا يوميا داخل فضائنا المعماري بلغة معمارية فنية معقدة البناء يتداخل في تكوينها ما هو لفظي وفني، ويوجّه إلينا رسائل لا يمكننا تجاهل محتوياتها الثقافية. لكن لا أحد منا استمع يوما إلى لغة المعمار وكلامه، لهذا يجب أن نُؤكد- منذ البداية- أنه يمتلك «لغة صامتة»- من حيث عدم امتلاكه لجهاز ناطق فعلي- تنتمي إلى نمط التواصل «عالي السياق» إذا اقتبسنا تصورات «إدوارد تي هول». فإذا كان المعمار «لغة تقدم رسائل، فإن التصميم المعماري يتكلم، ويتواصل من خلال هذه الرسائل» (Stamatovic, 2013, p. 69)، ولن يتأتى لنا التفاعل مع المعمار ما لم ندرك لغته ونتعرف على مفرداتها، أي امتلاكنا سننا لغوية وثقافية مشتركتين تُسهّلان حوارنا معه.

### 3. لغة المعمار نسق سيميائي مركب: المكونات والخصائص

#### 1.3. إسهامات «رولان بارت» في سيميائيات المدينة

ترجع أصول البحث والتساؤل عن «وجود أو وجود أن تكون لغة معمارية- أو أكثر من لغة- إلى العصور القديمة» (Fisher, 2015, p. 17). وقد اهتم بهذا الموضوع باحثون متعدّدو الاختصاصات (لسانيون، وسيميائيون، وعلماء اجتماع، إلخ) في مرحلة ما بعد الحداثة، لعل أبرزهم جهود وتنبؤات الباحث والناقد والصحافي والسيميولوجي الفرنسي «رولان بارت»، الذي انطلق بنويها، وصار إلى ما بعد البنيوية. لقد أسهم تحوّل المعرفي في تجديد وعيه النقدي والإدراكي لظواهر ثقافية مختلفة مثل: الموضة، والمطبخ، والرياضة، والإشهار، والمدينة. فقد قادته «مغامرته السيميائية» إلى اكتشاف أن ما يُوحّد شتات هذه المكونات المختلفة رابطٌ دلالي بالأساس، أي كونها جميعا: علامات (بارت، ١٩٩٣، ص. ٢٥). إن الحياة الإنسانية- في تصوّره- حياة للدلالات، ومطبخ للمعنى، حيث كل شيء يدلّ على موضوعات ديناميكية تتجاوز معارفه المباشرة، وقابل لأن يُقرأ سيميائيا في ضوء مقاربة تأويلية. فهذا المنظار السيميائي لا يُعير اهتماما للعقليّ، والجماليّ، والنفعيّ، والأصلي في الوقائع الإنسانية، إلا من حيث كوئها خطوات أولية لانطلاق عملية التعرف على مستوياتها الخطابية الكامنة في استعمالاتها الضمنية داخل فضائها السيميائي. وعلى هذا الأساس، خلص «رولان بارت» إلى أن «مشهد المدينة» (Landscape) موضوع سيميائي جذاب وغني يمكن أن تضطلع به «سيميائيات المدينة» (Semiotics of City) التي ستكون مهمتها تحليل خطاب علاماتها.

لقد تصور المدينة بأنها

خطاب، وهذا الخطاب هو حقًا لغة: تتحدث المدينة إلى سكانها، ونحن نتحدث إلى مدينتنا، المدينة التي نحن فيها، ببساطة من خلال العيش فيها، من خلال التجوّل داخلها، من خلال النظر إليها. ما يزال الإشكال يكمن في التعبير عن «لغة المدينة» في مستوى مجازي خالص. فمن السهل جدا الحديث مجازا عن لغة المدينة كما نتحدث عن لغة السينما أو لغة الزهور. سنتحقق قفزة علمية حقيقية عندما نتحدث عن لغة للمدينة دون مجاز. قد نقول إن هذا بالذات ما حدث مع فرويد حينما تحدث لأول مرة عن لغة الأحلام، مُفرغا هذا التعبير من معناه المجازي من أجل إعطائه معنى حقيقيا (Barthes, 1967, p. 168).

يصادف الانتقال من المجاز إلى التحليل والتأويل في التعاطي مع لغة المدينة إشكالات متعددة لصيقة بخصوصيات الظاهرة الحضرية التي يستدعي التعامل معها استحضار معارف ونظريات وعلوم متكاملة في العلوم الإنسانية والاجتماعية (الجغرافيا، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والديموغرافيا، إلخ)، وحتى تلك العلوم التي تبدو بعيدة جدا عن دراسة دلالات التمدن. إننا

«نفترق إلى تقنية أخيرة، هي الرموز، ومن ثم، نحن في حاجة إلى إشعاع علمي جديد من أجل تحويل هذه المعطيات، للانتقال من المجاز إلى وصف الدلالة؛ وعلى أساسه يمكن أن تكون السيميولوجيا (بالمعنى الشامل للمصطلح) من خلال تطوير تنبئي، يأتي لمساعدتنا. لا أنوي مناقشة إجراءات اكتشاف سيميولوجيا التمدن (Ur-ban Semiology). إذ يمكن أن تتكوّن هذه الإجراءات من خلال تفكيك النص الحضري (Urban Text) إلى وحدات، ثم توزيع هذه الوحدات إلى فئات شكلية، وثالثا، إيجاد قواعد لتأليف هذه الوحدات والنماذج» (Barthes, 1967).

يظهر أنّ «رولان بارت» كان تنبئيًا مثل «فريديناند دي سوسير» في أغلب دراساته السيميولوجية؛ فقد ربط تطور تحليل لغة المدينة بإشعاع علمي قادر على مفصلتها إلى مستوياتها التعبيرية الفرعية. فإذا كانت المدينة لغة، فإنه ينبغي لنا أن نعي جيدا أنها

لن تتكلمها إلا الجماعة وليس الأفراد. وهكذا فإذا كان الطابع الحضري (L'urbain) نسقا من العلامات، فإن المدينة هي خطاب المجتمع باستعماله لهذا النسق. ومن ثم، فالمدينة التي تمنح نفسها للخطاب أو للنص هي مدينة ناطقة ينبغي الإنصات إليها. ما الذي تقوله عبّر شتات وشظايا أصوات المنازل والمقاهي والطرق والساحات والسجون والبشر والحيوان؟ (نجمي، ٢٠٠٠، ص. ١٤٦).

وإذا أصررنا على كون المعنى لغويا- بصرف النظر عن خصيصة النسق السيميائي المدروس- وأن بناء الرسائل وتداولها يتم بهذا النسق اللغوي- بغض النظر عن طبيعته اللسانية أو الفنية- فإنه يتعين علينا أن نبحت عما يشير إلى تجليات اللغة في المعمار من حيث المكونات والوظائف قياسا على نسق اللسان.

إن دراسة اللسان يمكن أن تماثلها- منهجيًا- دراسات متعددة لأشكال تعبيرية فنية وثقافية مختلفة انتظمت أنساق علاماتها الوظيفية بكيفية مُتّسقة على شكل نسق قادر على توليد المعاني وإبلاغها. وقد اصطلح «يوري لوتمان» على هذه العملية المعرفية: «الترجمة»، التي تعني إمكان فهم اشتغال نسق سيميائي (المعمار) انطلاقا من إمكانات نسق سيميائي آخر (اللسان)، وهي المنهجية ذاتها التي وظّفها في تفسير اشتغال الكون السيميائي في سيميائيات الثقافة استنادا إلى مفهوم الكون الحيوي عند «فلاديمير فيرنادسكي» (Vladimir Vernadski) في الجيولوجيا والبيولوجيا، الذي صاغه بوصفه فضاء حيث الحياة ممكنة انطلاقا من تفاعل أنظمتها المختلفة التي تُكوّن بنية هرمية متفاوتة المستويات ومعقدة البناء، فلا يمكن تصوّره بصفته بيئة للحياة خارج هذه الوضعية الديناميكية؛ فهي المسؤولة عن تماسكه، وانسجامه، ووحدته. وقد أثار هذا التصور «يوري لوتمان»، فافتراض أن الكون السيميائي يتأسس على سلسلة متصلة من الأنساق السيميائية الوظيفية المختلفة التي تبني فضاء سيميائيا موحّدا، وحركيا، ومتماسكا، ومنسجما. وقد بلور تصوّره لهذا الفضاء السيميائي بصفته مجالا للعلاقات، وفضاء للمعنى والتواصل حيث أنساق العلامات المختلفة وظيفيةً ومترابطةً، ولا يمكن الحديث عن أي لغة، أو أيّ تواصل خارج سيرورته. وبما أنّ اللسان يمثّل النسق السيميائي الدلالي واللغوي الأكثر تعقيدا وتركيبا من الناحية البنيوية، والأداة التأويلية الواصفة لذاتها وباقي أنساق النمذجة السيميائية الثانوية من الناحية الوظيفية، فإنه يمكن أن نعد النموذج اللساني مدخلا لدراسة أنساق سيميائية غير لفظية.

الأمر نفسه انتبه إليه «يوري لوتمان» حينما عدّ اشتغال الأنساق السميائية المنمذجة الثانوية مبنياً على أساس نموذج ونسق اللغة الطبيعية داخل الثقافة المعنية. فلئن كان ما هو ثانوي (اللغات الثقافية والفنية) تابعا لما هو أولي (اللغات الطبيعية)، كان لا بد من أن يحمل شيئاً من سماته وملامحه لا استنساخا كاملا، أيّ أن يُعبّر عن رسالة مخصوصة اعتمادا على مفرداته التكوينية وخصائصه الفنية المميّزة، فما تتيح الموسيقى من إمكانات تواصلية فنية معقدة ومركبة، لا يتيحها التشكيل، وهكذا دواليك. إننا نستند إلى التحليل السميائي الثقافي من أجل

معالجة المعمار بوصفه نسقّ علامات من خلال المماثلة (Analogy) مع نسق اللغة. إذ يعد فيرديناند دي سوسير أحد الأوائل الذين كشفوا عن التوازي بين المدينة ونسق اللغة. في السّعي وراء المماثلة، تتشكل البنية التركيبية، والصرفية، والتداولية للعلامة. وقد عُقدت نقاشات حول اللهجات، واللهجات الفردية (Idiolects)، وحتى الخطاب المعماري الاجتماعي طُرح للنقاش أيضا. كما طُرح أيضا سؤال «الحواجز اللغوية» في الفهم وانعكاس ذلك على الهندسة المعمارية المعاصرة على نطاق واسع (Lazutina et al., 2016, p. 9992).

## 2.3. جهود «ألكسندر كريستوفر» في توصيف الأنماط العمرانية

بحَثّ المهندس المعماري الإنجليزي «ألكسندر كريستوفر» في لغة المعمار من خلال كتابه: «الأنماط اللغوية: البلدان، والمباني، والبناء» عام (١٩٧٧). فميّزَ في مُستهلّ هذا المؤلّف بين كتاب «طريقة البناء الخالدة» (١٩٧٩)، وكتاب «الأنماط اللغوية» المذكور، وأوضح أنّ هذين الكتابين هما، في الواقع، يكوّنان كتابا واحدا: إذ صاغ عام (١٩٧٧) الأسس النظرية لأنماط عمرانية مختلفة شملت البلدان، والمنازل، والحدائق، والغرف، بينما فسّر إجرائيا عام (١٩٧٩) الكيفية التي يتم بها تشييد هذه الأنماط العمرانية، وهو انتقال من التصور إلى الممارسة. لقد وصف في كتابه «طريقة البناء الخالدة»

الطبيعة الأساس للمدن والمباني. يظهر لنا، أن المدن والمباني لن تتمكن من البقاء على قيد الحياة، إلا إذا كان هؤلاء الأفراد يتقاسمون نمطا لغويا مشتركا، الذي يمكن من خلاله إنشاء هذه المباني، وأن يكون هذا النمط اللغوي حيّاً في حد ذاته. تقدّم، في هذا الكتاب، نمطا لغويا واحدا يمكننا يطلق عليه الطريقة الخالدة. هذه اللغة إجرائية للغاية. إنها لغة قمنا باستخلاصها من جهود البناء والتخطيط الخاصة بنا خلال الثماني سنوات الماضية. يمكنك استخدامها للعمل مع جيرانك، مع عائلتك، أو العمل على تصميم مكتب أو ورشة عمل أو مبنى عام كالمدرسة. يمكنك استخدامها لإرشادك في عملية البناء الفعلية. (...) فعناصر هذه اللغة كيانات تدعى أنماطا. يصف كل نمط إشكالا يحدث مع مرور الوقت مرة أخرى في محيطنا، ثم يصف جوهر الكل أكثر من مليون مرة، دون أن نفعل ذلك مرّتين بالطريقة نفسها (Alexander, 1977, pp. ix- x).

يتميز تعاطي «ألكسندر كريستوفر» مع لغة العمارة بالطابع الإجرائي؛ إذ تجلّى ذلك في استعماله لمفردة لغة من أجل صوّغ أسس وقواعد الهندسة المعمارية، وتوظيفه لمصطلح الأنماط اللغوية لتحديد المكونات التعبيرية داخل الفضاء المعماري، وكشف مستوياتها وفروعها، ورصد علاقاتها، وتفسير ارتباطاتها، متوصّلا إلى أن المدينة نسق عمراني عام يتشكل من أنماط عمرانية مختلفة متعاضدة؛ فداخلها «لا يوجد نمط معزول. يمكن لكل نمط أن يكون موجودا في العالم، فقط إلى الحدّ الذي تدعّمه الأنماط الأخرى» (Alexander 1977, p. iiix). إن هذه الأنماط اللغوية العمرانية أشكال هندسية، ومبانٍ معمارية، و وحدات معمارية مختلفة الأشكال والأحجام والمكونات والألوان والمواقع والاتجاهات، إذ تشمل «الأبنية والتصاميم والنوافذ والأبواب والشوارع والأزقة التي يمكن أن نعقد بينها وبين التركيب اللغوي مقارنات وتقابلات، من حيث تتصل الأولى (أي البنية العمرانية) في ما بينها وفق نسق قواعدي معين مثلما تتصل الثانية، وهي الكلمات والجمل والفقرات والفصول (أي البنية اللسانية) وفق نسق مماثل» (مقبول، ٢٠١٦، ص. ٥٠).

تتحقق تعبيرية فضائنا المعماري بواسطة أنماط معمارية متباينة من ثقافة إلى أخرى. فمثلا: يمتلك كل فرد إمكانات تواصلية وأشكالا تعبيرية متنوعة ومتعددة لِيُعبّر عن أفكار معينة بالطريقة التي يراها فعالة لإنجاح عملية التواصل، إذ سيكون أمام احتمالات متعددة ليستعمل مفردات لسانية منظمة تركيبيا لتُشكّل معنى تاما، وتؤدي رسالة مكتملة. وستختلف كيفيات التعبير عن مضمون هذه الرسالة باختلاف الباعث/ المرسل، دون أن نفعل ذلك مرتين بالطريقة ذاتها. كذلك في المعمار، تمتلك كل ثقافة إنسانية أساليب معمارية- طرازًا معماريا، أو هوية معمارية- متنوعة للتعبير عن هويتها وقيمها وذاكرتها، فلكل منها «نمط خاص في البناء والعمران، والذي لا شك أن كثيرا من مفرداته يتكرر في العالم، لكن بأساليب متباينة. هذه الأنماط هي كلها ما يشكل في النهاية المدينة بما هي أسلوب حياة يجمعنا لوجود فيه وجودا جماليا وفكريا من حيث إن العمارة تعكس فكرتنا عن الفضاء» (مقبول، ٢٠١٦، ص. ٥٠).

لكن إذا كان القياس اللغوي ربما لا مفرّ منه (صُمّمت النظرية السميائية لمعالجة كل الظواهر الثقافية، بما في ذلك المعمار) بطرائق معينة كامنة فعلا في النماذج السابقة للتأويل المعماري (تلك الخاصة بإميل فوكمان، وجون سومرسون، ورودولف فيكتور، على سبيل المثال)، فإنه ما يزال يتعين على المرء أن يُقرر على مستوى التماثل الأكثر صلة بين المعمار واللغة. هل العمل الفردي أم مجموع الأعمال هي التي تشبه اللغة؟ أم إن المعمار ككل هو المحاكى للغة؟ (...) لم تعد مهمة المؤول البحث فيما يعنيه العمل الفردي (أكثر من مهمة اللساني في تقديم معاني الجمل مفردة) بل إظهار كيف تشتغل وحدات المعمار لإنتاج المعنى (Baird, 1998, p. 36).

يمكننا التأكيد أن العمارة لغة فنية مركبة تتشكل من وحدات معمارية وظيفية مختلفة يُكوّنها السقف، والدّرج، والنوافذ، والألوان، والزخرفة، والأشكال الهندسية، والتصميم، وغيرها من المفردات المعمارية التي تتكامل فيما بينها لتبني كُلاً معماريا فنيا يدل على معنى ثقافي مخصوص هو الرسالة المعمارية المضمّرة التي لا يمكن أن تنفلت من هوية وذاكرة وقيم الفضاء المعماري المعني.

## 3.3. ثنائيات «فيرديناند دي سوسير» أدوات لتحليل لغة المعمار

تعد ثنائيات «فيرديناند دي سوسير» أدوات إجرائية لتفسير مظاهر اللغة في المعمار؛ إظهارا لمردوديتها التحليلية، وتبينا لقدراتها على الاشتغال خارج أصلها اللساني، مع تكييف وتعديل في المفاهيم. في هذا الصدد، يعد اللسان (Langue/ Tongue) والكلام (Speech) ثنائية رئيسة في لسانيات وسيميولوجيا سوسير، فقد حدد الأول بأنه نسق من العلامات المعبرة عن أفكار، ومجموعة من القيم والقواعد والمعايير الثابتة والموثّدة والمنسجمة خارج أي سياق معين، بمعنى أن اللسان يجسد البعد العرفي والاجتماعي المؤسّساتي. بالمقابل، عدّ الكلام تحققات فردية للنسق، وإنجازات مُتغيّرة ومختلفة دون أن نفعل ذلك مرّتين بالكيفية نفسها، فعلى الرغم من الحرية (المسؤولة) التي تميز العملية، فإننا نتصرف وفق اشتراطات اللسان، والقيود الاجتماعية والثقافية والدينية للكون السميائي المعني. ويقصد بهذا أن الظاهرة اللسانية امتداد من النسق إلى الإجراء.

بالعودة إلى الظاهرة المعمارية، يتّبع المعماري التقليدي بواحة تافيلالت جنوب شرق المملكة المغربية- على سبيل المثال- أعرافا معمارية تعتمد بالدرجة الأولى على مواد بنائية محلية من أجل ممارسة العمارة وُفق طراز معماري محلي يبني الهوية المعمارية المحلية. ويتشكل هذا الأسلوب المعماري من قواعد معمارية فنية تضبط عمليات البناء والتشييد، وتُنظّم توزيع الفراغات المعمارية الداخلية والخارجية، وتحكم اتجاهات النوافذ والأبواب، وتنتقي الزخارف والألوان والتصاميم، دون إغفال تأثير العوامل الجغرافية والمناخية والدينية. إن هذه القوانين المعمارية المنسجمة التي تُوحّد ممارساتنا للعمارة الطينية داخل الفضاء الواحي بتافيلالت هي ما يعد «لسانا معماريا»، بالنظر إلى طابعه التنظيمي بالدرجة الأولى. بينما تجسد العمارات الطينية الفعلية إنجازات معمارية متباينة، وبعبارة أخرى: تشكل الأشكال الخارجية «كلاما معماريا» يختلف باختلاف الثقافات، والأمكنة، والعصور، والخدمات النفعية، والإيحاءات. ذلك أن القصور والقصبات والعمارات الطينية داخل واحة تافيلالت- مثلا- «تتكلم» معماريا بلغات فريدة لا تشبه بالضرورة الأكوان الثقافية الأخرى أو المجاورة، وُلِك أن تتأمل مداخل القصور التي تختلف فيما بينها من جهة، وتتميز عن مداخل مدن مغربية أحرّ من حيث المواد المستعملة والتصاميم والزخارف والألوان من جهة أخرى.

تعد اللغة- بمفهومها الموسّع - بنيةً أيضا، ومعنى هذا أنها نسق من العلاقات التركيبية (Syntagmatic)، والاستبدالية (Paradigmatic). وتشير العلاقات التركيبية على مستوى محور التوزيع إلى علاقات أفقية خطية- لا تعد الخطية خطًا، لكن صنفا من العلاقات - تجعل معنى أي مفردة مرتبطا بسلسلة المفردات التي تجاورها يمينا ويسارا، في حين تدل العلاقات الاستبدالية على مستوى محور الاختيار على إمكانات استبدال مفردة بأخرى، بالنظر إلى حجم الاحتمالات المتاحة في ذهن المتكلم في أثناء دورة الكلام. وإذا بحثنا عما يقابل هذه العلاقات في النسق المعماري، يمكننا القول: تُبنى داخل المعمار علاقات تركيبية تحكم ترتيب وحداته المعمارية المختلفة التي تتداخل في انتظامها البنيوي الصارم قيود بنيوية وجمالية وجغرافية ظاهرة، وأخرى اجتماعية وثقافية ودينية وقيميّة باطنة؛ فتفاعل هذه المؤثرات جميعها هو ما يبني «هوية معمارية» (Architectural Identity) مميزة ذات «طراز معماري» (Architectural Style) فريد، وَيُنْتِى معنى أي علامة معمارية انطلاقا مما يجاورها من علامات داخل الكلّ المعماري من ناحية أولى، وعلاقة هذه العلامات مجتمعة مع البناء المعماري من ناحية ثانية، مع مراعاة المعطيات الاجتماعية والثقافية والتاريخية والجغرافية.



أُضِفَ إلى ذلك، أن بناء معنى الكل المعماري (واجهه العمارة الطينية على سبيل المثال) رهن سميوزيس متعاضدة العناصر، أي إن الرسالة المعمارية للواجهة المعمارية تُبنى اعتمادا على ما توحى به مفرداتها المعمارية المختلفة بوصفها أنساقا ثقافية تواصلية: الزخرفة، واللون، والإطار الفني، والارتفاع والانخفاض، والعتبة، وما إلى ذلك؛ فهذه أشبه بكلمات معمارية تُكوّن خطابا فنيا. أما العلاقات الاستبدالية في النسق المعماري، فتحيل على التنويعات الممكنة داخل البناء الفني، كأنّ نستبدل وحداته المعمارية بأخرى، أو نُغيّر موقعها التركيبي، دون أن ننسى ما يرافق هذا التركيب الفني الجديد من استجابات جمالية وحيوات دلالية متطورة، وما يمنحه- أيضا- من تنويع في الأشكال التعبيرية المعمارية على مستوى الكلام المعماري/ الخرج.

#### 3.4. المستويات اللغوية في المعمار

تُمكّننا العلاقات التوليدية التي تربط الأنساق السميائية فيما بينها داخل التجربة الإنسانية- كما وضحنا ذلك سابقا- من تفسير تجليات اللغة في المعمار انطلاقا من خصائصه الفنية الفريدة والمركبة. إن تفسير النسق المعماري قياسا على النسق اللساني بيانٌ لتعبيرية هذا الإنتاج الثقافي، وإظهارٌ لانخراطه في سميوزيس إنتاج الدلالات الثقافية وإبلاغها. بناء على ذلك، يحتوي أيّ بناء معماري على بعد قواعدي يحكم تركيب وحداته المعمارية المختلفة: طبيعةً، ولونا، وحجما، وشكلا، وترتيا، واتجاها. ويضمن هذا البعد التركيبي اتساق المفردات المعمارية النسقية، وتماسكها، ووحدتها، وانسجامها داخل كلّ فني ودلالي. إن هذا البعد النحوي يؤكد أن العمارة سلسلة متصلة من العلاقات المعمارية التي تُؤلّف وحداتها التكوينية، وليست شظايا من المفردات أو الوحدات المعمارية التي لا رابط بنيوي وجمالي ودلالي يحكم هندستها؛ بدليل أنه كلما حدث خلل في نسق العمارة، انهارت واندرت.

يتشكل نسق العمارة من أنساق تواصلية فرعية هي: النوافذ، والأبواب، والسقف، والجدران، والألوان، والتصميم المعماري، إلخ. إذ تُكوّن هذه الوحدات الدلالية والتواصلية المختلفة «قاموسا معماريا» (Architectural Dictionary) ينهل منه المعماري ما يحتاج إليه من أجل عمليات البناء والتشييد والزخرفة، وتختلف هذه الوحدات باختلاف الفضاء، والزمان، والمكان، والثقافة، والخدمات. وتتضح هذه المعطيات أكثر حينما نتأمل عمارات مختلفة من قبيل: المسجد، والسوق، والبنك، وملعب كرة القدم، والمتحف، لنكتشف لغات معمارية مختلفة ومركبة الأنساق مناسبة لطبيعة المعلومات التي تعبّر عنها رسالة الفضاء، وملائمة لتنوع الخدمات والوظائف التي تقدمها.

إن العمارة من وجهة نظر السميائيات المعمارية بناء فني ودلالي مركب؛ ذلك أن

الموضوعات المعمارية أو الأجزاء المكوّنة لها تحمل معاني. ولعل الدافع إلى هذا الرأي، هو أن الموضوعات المعمارية، مثلها في ذلك مثل أيّ موضوعات لأشكال فنية أخرى، تعبيرية (Expressive). مما يوحي بأن ما تعبّر عنه هو معنى. وتشير الموضوعات إلى المعاني المعمارية، الداخلية أو الخارجية للموضوع. إذ يخبرنا المعنى الأول بشيء عن الموضوع المعماري (وظيفته أو تكوينه الداخلي) أو كيفية ارتباطه بموضوعات معمارية أخرى (اصطلاحات أسلوبية)؛ ويخبرنا المعنى الأخير بشيء حول العالم، على سبيل المثال، الجمعيات الوطنية أو الثقافية (لكلّ تصميم جغرافي مفردات تخصّه)، أو اللاهوتية أو الروحية (مفردات التصميم الديني). إن هذه الموضوعات المعمارية لها القدرة على أن تظهر بوصفها ظواهر دلالية كالاستعارة، أو الكناية، أو الغموض (Fisher, 2015, p. 18).

وعلى هذا، تبدو ممارسة العمارة شبيهة بنشاط الكتابة؛ فهي عملية تشتغل من خلالها الوحدة المعمارية- اللفظية وغير اللفظية- كما الكلمة في النسق اللساني (النص الأدبي مثلا)، فهي الوحدة الرئيسة للقاموس المعماري.

ذلك أن «انتقاء الكلمة الصحيحة شأنه في ذلك شأن اختيار الطوب أو اللبنة الصحيحة. فثمة الحجم، والوظيفة، والنصية أو النسيج، واللون؛ فكلها عناصر تؤخذ بعين المراجعة» (Grice, 2010/2011, p. 16). فإذا كانت «الكلمات هي الطوب، فإن الترقيم هو الخرسانة أو الطين. يفصل بين الكلمات ويصل مجموعها بحيث يمكن أن تُكوّن بنية متينة» (Grice). لكن يجب أن نتذكر- دائما - أن ظاهر العمارة - كما مستوى التعيين في النص الأدبي - ليس منتهى التأويل، لكنه مدخل لعمليات التعرف وسيرورات القراءة النسقية.

لا نستمتع داخل فضاءنا المعماري إلى «أصوات معمارية» ناطقة بالفعل؛ والسبب أن لغة العمارة «لغة صامتة» من حيث الإسماع والتصويت لا التعبير والتوصيل؛ ذلك أن العمارة والمكان والزمان لا تشكل إلا وحدات فرعية ضمن نظام تواصلية عام حائل للمعلومات وناقل للرسائل تمثله الثقافة ككل، وهي أنظمة تواصلية تتكلم أعمق من الكلمات لعمليات التعرف وسيرورات القراءة النسقية. (Edward T. Hall, 1959). إذ نتلقى خطابها المعماري بعيننا المجردة عبر مفرداتها اللسانية والفنية المتعاضدة التي

تشتغل بصفتها وسيطا بين العمارة والمتلقي، ونفكّ شفراته اعتمادا على السنن الثقافية للكون السميائي المعني. ويظهر «المستوى الدلالي» في المعمار أن النشاط المعماري- أولا وقبل كل شيء- نشاط سميائي أعمق مما يوفره من خدمات نغمية صريحة؛ فهو «تمثيل (Exemplification) (دلالة حرفية أو صريحة)، أو تعبير مجازي عن طبيعة الأفكار، أو المشاعر، أو الموضوعات في العالم» (Grice, 2010/2011, p. 16). فقد ضمنّ الإنسان الزخرفة، واللون، والتصميم المعماري، والنقوش، واللغة، وما إلى ذلك، أنساقا مضمرة دالة عليه لا تنفلت من هويته وذاكرته: القيم، والأحكام، والانفعالات، والأهواء، والتصنيفات الاجتماعية، والدين، إلخ. ثم إن السياق الاستعمالي، وقوانين الكون السميائي المعني، وقواعده، وأعرافه هي المسؤولة عن تقييد عمليات توليد الدلالات الثقافية وانتقائها، وتلك معطيات يوفرها «المستوى التداولي» في المعمار. لقد قادنا هذا القياس المنهجي بين النسق اللساني والنسق المعماري إلى تحليل مستويات اللغة المعمارية على نحو إجرائي: أصواتنا، ونحوا، ومعجما، وتركيبا، ودلالة، وتداول؛ ذلك أن المعمار مثل جميع الظواهر الثقافية، يمتلك «عناصر إشارية تمفصلت وانتظمت كاللغة، وفق قوانين (أنساق) محددة» (مجموعة من المؤلفين، ١٩٩٧، ص. ٤).

في الختام، لا تدّعي هذه المقالة المماثلة الحرفية بين نسقَي اللسان والعمارة، على العكس: فهي لا تعدّ اللغة المعمارية نسخة طبق الأصل للسان، بل تناقش قدرات المعمار على إنتاج المعاني وإبلاغ الرسائل على الرغم من اختلاف طبيعة أنساق علاماته وطرائق تركيبها، ومن ثم فهو إجراء منهجي بالدرجة الأولى. تأكيدًا لذلك، عارض «مارتين دونوغو» (Martin Donougho) في مقاله: «لغة المعمار» (١٩٨٧) إمكان وجود لغة معمارية حقيقية كاللغات الطبيعية (اللسان)؛ بدليل أنّ المستوى التركيبي ملمح لساني مميّز بين اللغات، إذ يذكر: «يتميز المعمار ببعض الملامح ويظهر بعض الظواهر المشابهة للغة الطبيعية، لكن أوجه التشابه ليست شاملة ولا مقنعة تماما. قد يُظهر المعمار، على المستوى التركيبي، بعض السمات التركيبية لكن لا يبدو أن الأجزاء المختلفة للموضوعات المعمارية تشتغل كما تفعل العبارات أو الجمل» (Fisher, 2015, p. 19). علاوة على ذلك، فإنّ عدّ العمارة لغةً فنية رهنّ تعبيرها بالضرورة عن وظيفتها النغمية الأولية، بينما تتولد وظائفها السميائية الثانوية بعد تفاعل المؤلّل مع الموضوع المعماري استنادا إلى سياق الفضاء الثقافي المعني. وهو ما لا تقتضيه الكلمة في اللغة الطبيعية، فهي لا تشير في النص إلى معانيها الحرفية الصريحة؛ فقد تُستعمل المفردة اللسانية أحيانا استعمالا متعددة: مجازا، واستعارة، وكناية، أو نجعلها أحيانا أخرى تعبيرا عرضيا وهامشيا في النص. لذلك، فما هو مُتأصل في التعبير المعماري أن يشير شكله، وتصميمه، وترتيب مكوناته، وطبيعة مواده المستعملة إلى وظيفته العقلية لكونها المسؤولة عن تشكيل الأرضية الأولى للتفكير السميائي في العمارة؛ إذ لا يمكن تأويلها إلا بالانطلاق من معارفها المباشرة ووصفها البنيوي والتاريخي، على عكس اللغات الطبيعية التي يُؤوّل القراء تعبيراتها ومفرداتها في النص بما يناسب السياق دون التقيّد بمعانيها الحرفية الواردة في القواميس اللغوية من زاوية، ودون مراعاة أشكال حروفها وطبيعة موادها من زاوية أخرى (الجاذجي، ٢٠١٤، ص ص. ٣٣٩-٣٤١).

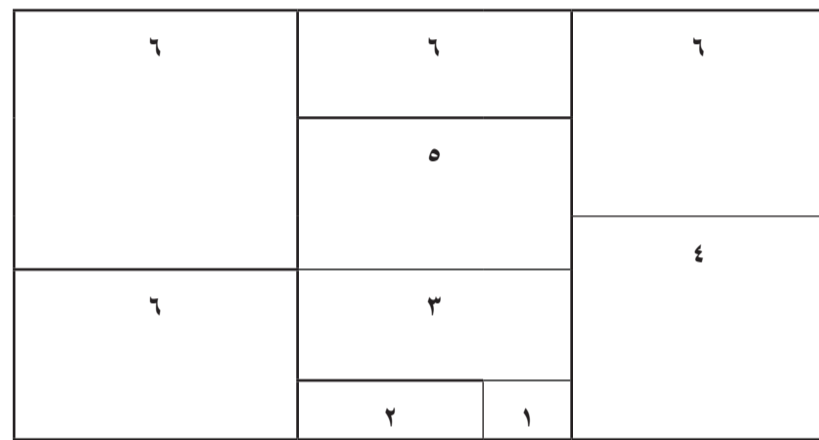
#### 4. العمارة ظاهرة ناطقة: العمارة الطينية الواحية نسق علامات معبّرة عن أفكار

يُثبِتُ ما سبق أن التواصل لا يحدث بالنسق اللساني فحسب، بل بأنساق ثقافية وفنية أخرى مثل العمارة؛ بدليل أنها نسق سميائي يتشكل من أنساق علامات مُنظمة وموحّدة ودينامية وتماسكة قادرة الانخراط في سيرورة إنتاج المعاني وتوصيل الرسائل. ولكي نمنح دراستنا بُعدًا إجرائيا تتضح من خلاله مناقشاتنا النظرية السابقة لعلاقة العمارة باللغة، نُحلّل أنموذج العمارة الطينية بفضاء واحة تافيلالت بالجنوب الشرقي للمملكة المغربية؛ وذلك بغرض كشف ما تُوصله من رسائل ومعاني غير مباشرة بواسطة لغة معمارية ثانوية فريدة.

إن العمارة الطينية ممارسة إنسانية دالة ابتغى من خلالها الإنسان بالواحة تمرير مجموعة من الرسائل الضمنية في السياق؛ لأنّ هذا الإنتاج المعماري علامة مركبة من مجموعة من الأنساق السميائية الفرعية الوظيفية المختلفة (التصميم، والألوان، والزخرفة، إلخ) التي تتفاعل فيما بينها من أجل التعبير عن معنى عام، وبناء رسالة منسجمة.

فقد تمّذَج الإنسان الواحي موضوعاته ومشاعره وأفكاره المُتصوّرة التي تمتلك معنى وغرضا ووظيفة ما في شكل خارجي يعد «ترجمة» و«تمثيلًا» (Representation) لما هو مُرتبم في الذهن (Sebeok& Danesi, 2000, p. 1). وهذا معناه أن العمارة أصلها مفهوم تصوري يتحول إلى شكل معماري في الواقع الفعلي، فيصير علامة في سياق

يعد تصميم العمارة الطينية لغةً أيضاً؛ لأنه ماثول يُعوّض معارف غير مباشرة تتجاوز أبعاده الظاهرة وقيمه الجمالية، أي هو علامة دالة على التماسك والانسجام الاجتماعيين. ولأن العمارة أحد الأنساق السميائية العاكسة، فإنه يمكننا إثبات أن الهوية الهندسية للمدينة والعمارة لا تنفصل عن طبيعة الهوية الهندسية للاجتماع والأسرة؛ إذ يقوم نظام العائلة ونسق الثقافة ونمط الاقتصاد بدور فاعل في اختيارنا المعمارية (مقبول، ٢٠١٦، ص. ٥٤). وهذا مغزاه أن الطابع الجغرافي والمناخ الصحراوي لواجهة تافيلالت أثراً في انتقاء الوحدات المعمارية وأوانها وطرائق ترتيبها (انتظامها) واتجاهات أبوابها ونوافذها وعلو أو انخفاض أسقفها، وأن النظام العائلي التقليدي انعكس على هندسة العمارة الطينية وتصميمها وتوزيع فراغاتها المعمارية وعدد مرافقها، وأن نمط الاقتصاد تبدى تأثيره في مستويات قلة الزخارف والألوان والنقوش. علاوة على ذلك، يشير التصميم بوصفه علامة إلى التدرج والخصوصية والتراثية؛ ذلك أن العمارة الطينية مكان اجتماعي مدني يقوم على «تراثية داخل تراثية» في تقسيم فراغاتها المعمارية الداخلية: تصادف باب (١) العمارة الطينية، والدرج طيني (٢)، فدهليز (٣) يصل الباب بالداخل، ونجد يمينا أو يسارا بالدهليز «غرفة الضيوف» أو «المصرية» (٤) التي تحد من حركة الضيف وتحفظ حرمة الداخل بينما توفر حرية لقاطنيه خاصة النساء، ويتوزع وسط العمارة (٥) على عُرف (٦) تتحكم فيه «وحدتان مجاليتان: وحدة الاستقرار، ووحدة الخدمات، وتتوزع هاتان الوحدتان أفقياً وعمودياً، وتخضع للتناوب والتعدد في الاستعمال يوميا وموسمياً» (بوعصب، ٢٠١٧، ص. ٢٣٧-٢٣٨).



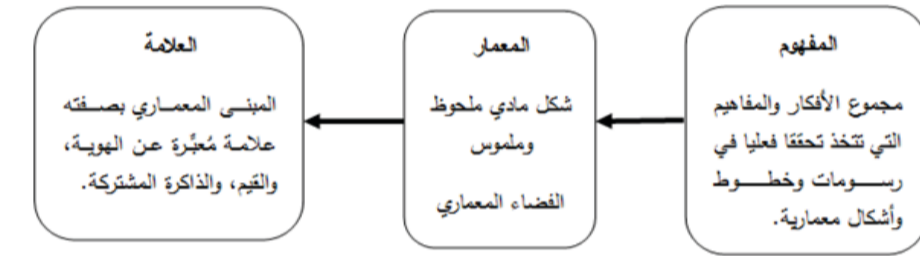
الشكل ٢: تصميم العمارة الطينية الواحية بصفته لغة ثانوية، المصدر: تصميم الباحث.

يُظهر ما تقدم أن تصميم العمارة الواحية- مثلما تصميم المدن، والقصور، والقصبات- «يعكس القيم، والمعتقدات، والمعايير الثقافية» (Danesi, 2004, p. 236)؛ فلا إمكان لوجود أي شيء في النشاط المعماري من تصميم وتشيد وبناء وزخرفة غير مُسوَّغٍ نفعياً وجمالياً ودلالياً. وهو ما يدل على أن النسق الهندسي ليس ذلك «الإدراك المباشر» المؤلف لدينا، لكن نسق «الإدراك الخفي» (Lagopolos & Boklund-Lagopolou, 2018, p. 477)؛ والسبب أن العمارة ظاهرة سميائية تواصلية تُصعد النفعي والبدهي والجمالي، لتُبطن أنساق القيم والمعارف والسلوك.

إن كل شيء داخل العمارة علامة قادرة على الإيحاء المتعدد وتوصيل المعاني: الباب، والواجهة المعمارية، والسقف، والنوافذ، ومواد البناء المستعملة، والارتفاع أو الانخفاض، واتجاهات الأبواب والنوافذ، إلخ. وتبنى الرسالة المعمارية من خلال تفاعل هذه الأنساق السميائية الفرعية كافة. وتوضيحاً لذلك، تعد واجهة العمارة الطينية «نصاً ثقافياً» (Cultu-ral Text) قابلاً للقراءة؛ فهو يُدرّس في النظرية السميائية بصفته علامة أو نسقا من العلامات يُنتج المعنى وينقله، وهو في الوقت نفسه يتخذ وسيطاً للتواصل (Stamatovic, 2013, p. 69). ويوفر باب العمارة الطينية خدمة الدخول والخروج من المبنى، ويؤمّن من اعتداءات الغير، ويحمي خصوصيات قاطنيه، ويعزله مناخياً عن الخارج (الحرارة، والرياح). إذ يساعدنا مستوى التقرير المعماري على التعرف على مكونات الباب، ووصفها، وتسميتها، ومقارنتها، وتحديد أبعادها التاريخية، ورصد قيمها الجمالية والفنية. وعلى هذا، يتشكل هذا النص المعماري من قطعتين خشبيتين أفقيتين، وقطعتين عموديتين تُكوّنان «حدّاً فنياً»، أو «إطاراً فنياً» يرسم مجال «التمثيل» بدقة. ويُصطلح على القطعة الأفقية السفلى التي مصدرها شجرة النخيل: العتبة، التي قد تكون «قطعة من الحجر، أو الخشب، أو المعدن يكون تحت الباب (مختار عمر، ٢٠٠٨، ص. ١٤٥٣). وتُزيّن هذه الواجهة المعمارية خمس مصفوفات مسمارية أفقية عريضة الرأس، تضمن تماسك ألواح الخشبية العمودية العريضة، وتُسَرُّ متأملي الواجهة؛ فالانتظام والترتيب الجيدان هما ما يُؤدّد إحساساً جمالياً عند المتلقي. وقد وُضع في الجانب الأيمن من الباب قفل حديدي لحماية لممتلكات ساكنيه عند السفر، أو التنقل خارج القصر أو داخله.

الثقافة والمجتمع والفن والتاريخ. ويمكن توضيح هذه العملية كما يلي: تنتقل في اللغة من الدليل المادي (الكلمة) إلى المدلول (المعنى)، مفهوم الكلمة. لكننا نقوم بالعكس في التصميم المعماري؛ إذ تنتقل من المفهوم المجرد الذي هو المعنى الموجود مُسبقاً والمخطّط له في الفضاء الذي سيتم بناؤه، إلى البناء المادي الذي سيصبح علامة أو دليلاً لاحقاً، أي تمثيلاً لتفكيرنا المجرد؛ لأن خيال المُصمّم في المعمار يسبق الوجود الفعلي للعمارة. ويُشكّل العقد الاجتماعي لأي فترة تاريخية السنن الثقافية الرئيسة لتأويل القيم والأفكار التي يحتملها المعمار بصفته علامة، ونصاً فنياً دالاً يُقدّم تعبيراً بصرياً للأفكار التي تعني شيئاً ما بالنسبة للإنسان (Terzoglou, 2018, pp. 120-121).

وعليه، فقد رمّز الإنسان فكرة السكن والحماية والاستقرار في عمارة طينية جسدت مرفقه الاجتماعي حيث يجد أمنه وغذاه، ويُعبّر بواسطة مواد ومكوناته وتصميمه عن قيمه وتقاليد هويته (تاوشخت، ٢٠٠٨، ص. ٣٩٤-٣٩٥). وهو عمارة مدنية تشكل النمط المعماري الرئيس للسكن بواجهة تافيلالت الذي يوفر لهم المأوى والحماية من ظروف الطبيعة، ويلبّي لهم حاجاتهم الاجتماعية (بوعصب، ٢٠١٧، ص. ٢٣٧). وقد انطلق المعماري التقليدي من فكرة مُحتملة مصدرها العرف والتوافق الاجتماعيان جسدت صورة مفهومية للعمارة في الذهن، فأعطاهم تحققاً خارجياً في «الهنا» (المكان) و«الآن» (الزمان) حيث التجربة الصافية والواقع الفعلي، لِيُمثّل أمامنا هذه العمارة بصفته علامة تجرّدت من واقعها المادي والمحسوس لتستوطن الذهن بوصفها فكراً وقانوناً يُمكننا من التعرف عليها مستقبلاً. ذلك أن كل نسق دلالي يتطلب شكلاً خارجياً يدل عليه؛ فلا إمكان لتحقيقه في الواقع خارج بناءات ونماذج شكلية، «فما ندركه عن الدلالة هو شكل وليس مادة. وهكذا، فإن إدراك أي مضمون يقتضي تحويله إلى شكل، وهذا التحول يمر عبر الكشف عن الوحدات الدلالية التي تخبر عن المادة المضمونية، وهي المسؤولة أيضاً عن إسقاط السياقات المحتملة» (بنجراد، ٢٠١٩، ص. ٢٠).



الشكل ١: المعمار: من المفهوم إلى العلامة، المصدر: الباحث.

توحي العمارة الطينية برسائل إضافية غير نهائية لا يمكن فصلها عن هوية فضائها السميائي، وقيمه، وذاكرته الجمعية؛ فهي علامة تدل على موضوعات ديناميكية مثل: الوحدة، والتماسك، والاجتماع، والتعايش، والتكامل، والتساكن، والانسجام، إلخ. وهي أبعاد دلالية أعمق مما يتيح مستوى التقرير المعماري، أو الوظيفة النفعية. ومن ثم، فإن العمارة «نسق عاكس» (Reflective System)؛ فهو يعكس البنيات الاجتماعية والثقافية والتاريخية والقيمية والدينية، ويُفسرها ويؤلّوها في الآن ذاته. ويمكن توضيح علاقة العمارة بهذه البنيات الذهنية من خلال انعكاسها على مستوى الإنجاز المعماري، وتحكمها- أيضاً- في ممارستها، وهو ما يُؤدّد تنوعاً وتعدداً في الأشكال المعمارية بصفته «كلاماً معمارياً» يختلف من فضاء معماري إلى آخر، ومن مهندس معماري إلى آخر، دون أن نفعل ذلك مرتين بالكيفية ذاتها؛ بسبب تباين المعايير الثقافية التي تستوطن الذهن الإنساني على شكل قواعد ومعارف باطنية مُنظمة سهلة التزين والاسترجاع والاستعمال، تتحكم في نشاطنا المعماري بصورة خاصة، وتؤجّه سلوكياتنا وأنشطتنا وأذواقنا بصورة عامة بصفته تعليمات وبرامج وضوابط.



الصورة ١: العمارة الطينية علامة على الاتحاد والتعايش والاجتماع، المصدر: تصوير الباحث، ٢٠١٨.



- المعمار أحد اللغات الثقافية الثانوية التي يمكنها توصيل المعلومات بواسطة مفرداتها المعمارية الوظيفية المختلفة.
- العمارة شكل من أشكال التواصل الإنساني الثقافي الذي يُبلغ رسائل عميقة تتوارى خلف الواجهات النفعية، والخصائص الجمالية، والوجود البدهي.
- العمارة ظاهرة ثقافية ناطقة ومعبرة عن الهوية والذاكرة الجمعية والحضارة والقيم؛ فهي تتكلم معماريا بواسطة لغة معمارية تختلف مكوناتها وخصائصها وكيفيات انتظامها وتركيبها من فضاء ثقافي إلى آخر.
- العمارة بواحة تافيلالت تعبير رمزي أعمق من وجودها المباشر، ووظائفها النفعية، وخصائصها الجمالية.
- العمارة الطينية علامة مركبة من مجموعة من العلامات المعمارية الفرعية التي تشتغل بشكل ديناميكي وموحد ومنسجم من أجل بناء معنى مكتمل، وتوصيل رسالة متكاملة.
- العمارة الواحية نسق سميائي تواصلية مركب الوحدات ومعقد البناء؛ ذلك أن كل شيء في الظاهرة المعمارية شكل تعبير: الزخرفة، والألوان، والتصميم، والواجهة المعمارية، والنوافذ، والغرف، وما إلى ذلك مما يمكن أن يُخاطب المتلقي.



الصورة ٢: الواجهة المعمارية بصفتها نصا ثقافيا، المصدر: تصوير الباحث، ٢٠٢٢.

لقد مكنتنا التحليل السيمولساني من تحليل نماذج من الوحدات التعبيرية التي تُكوّن لغة العمارة الطينية بواحة تافيلالت، وتأويل رسائل خطابها المعماري التي لا يمكن عزلها عن سياق الكون السيميائي المعنى، وتاريخه، وقيمه، وجغرافيته، وذاكرته. ومن ثم، يمكن عد العمارة الطينية سجلاً مُوثَّقاً، «ذاكرة». وإن استمررت تناقلها وتداولها من جيل إلى آخر مغزاه الإسهام في ربط صلات تاريخية بين الماضي والحاضر والمستقبل. وبالمقابل، فإن كل انهيار أو اندثار لهذا الإبداع الإنساني أو جزء منه معناه حذف جزء مهم من هويتنا وذاكرتنا، ومن ثم فلن يكون بمقدور الأجيال القادمة الحصول على وثائق مادية تاريخية داعمة على التذكر الثقافي الجمعي. وإذا كانت العمارة الطينية بواحة تافيلالت واقعة ثقافية واجتماعية وتاريخية ناطقة ومعبرة عن هوية قاطنيها، فإن ما نلحظه اليوم بفضاء الواحة من تراكم سريع لـ: «العمارة الإسمنتية»، و«العمارة السياحية»، و«العمارة الإشهارية»، أصاب الفضاء المعماري بـ: «هجنة معمارية»، و«تلوث عمراني بصري»، يتضاءل معه رابط الانتماء. إن هذه الدراسة راهنت على تنبيه المتلقي إلى لغة العمارة وخطابها الذي تبعثه يومياً بقصد تغيير إدراكنا لتلقيها، وهو ما يفتح آفاقاً جديدة لدراسة العمارة الطينية من منظور مقاربات مختلفة: نفسية، واجتماعية، وهندسية، وغيرها، كقيلة بتقديم فهم أفضل ومغاير لنشاط العمارة.

تكتسب مفردات هذا النص المعماري قيمة تعبيرية وحاملة دلالية هي من صلب الحياة الاجتماعية المعنية، ويؤدي تغيير موقعها التركيبي أو سياقها التداولي إلى توليد دلالي غير نهائي، وهذا معناه أن دلالاتها وحداناً ثقافية وليدة بيئتها الحاضرة لها إنتاجاً وتداولاً. وعلى هذا الأساس، يضيء انعدام اللون جماليةً تُؤدّ ألفة مع الفضاء الواحي الصحراوي، ويوحى ببساطة العيش والسكن بالقصر، وعدم التكلّف في المعمار. ومن ثم، صار انعدام اللون غطاء ثقافياً لرؤية مخصصة حول العالم. وذلك جزء من دلالات مواد البناء المستعملة، وقلة الزخرفة؛ إذ تشير إلى عفوية الحياة داخل القصر، وكأنّ الإنسان الواحي يُفضّل رؤية الأشياء على حقيقتها لا يُغلفها شيء، ولا يحجبها حجاب. ذلك أن الصراحة، والوضوح، والثقة، والبساطة، معايير مهمة لعيش الحياة القروية، والاندماج فيها. لذلك، يحتمل انعدام اللون، وندرة الزخارف في واجهة العمارة الطينية دلالات متعددة مثل: الصفاء، والنقاء، والجوهر، والأصل، والحقيقة. كما تتصل العتبة بمجموعة من الطقوس والمعتقدات التي تختلف من كون ثقافي إلى آخر- ترديد البسملة، أو تلاوة سورة الفاتحة، أو تقديم الرجل اليمنى، إلخ- التي تستقر في أذهاننا وتوجّه تصرفاتنا اليومية، لكننا لا ننتبه إلى سلطتها بحكم ألفتنا لها. وتقع العتبة عند مداخل الغرف، أو المنازل، أو القصور، ويرتبط تخطيطها بمجموعة من الطقوس (الأعراس مثلاً)، لكن تدبرها وتأملها يفضي إلى عدّ هذه الوحدة المعمارية الوظيفية «حاجزاً ثقافياً» يؤدي دور الحارس؛ فهي حد فاصل وواصل في الآن ذاته؛ يفصل داخل العمارة عن خارجها ويعزلهما عن بعض، أي يفرّق بين «ملكي»/ «ملكنا» و«ملك الآخر»، أو بين «فضائنا»/ «فضاء النحن» و«فضاء الآخرين»، وهي في الآن نفسه تصل الداخل بالخارج.

## خاتمة

تمكنت هذه المقالة من تحليل نمط من أنماط العلاقات التي تربط بين الأنساق السيميائية الثقافية المكوّنة للتجربة الإنسانية؛ ويتعلق الأمر بمناقشة ارتباطات النسق اللساني والنسق المعماري استناداً إلى علاقات: المماثلة، والتوليد، والتأويل. وقد ساعدنا اعتماد مفاهيم وأدوات لسانية، وسيميائية ثقافية، وأنثروبولوجية تأويلية متكاملة لباحثين أمثال: «فيرديناند دي سوسير»، و«شارل سندررس بورس»، و«رولان بارت»، و«أمبرتو إيكو»، و«إدوارد تي هول»، و«إميل بنفنيست»، و«يوري لوتمان»، وغيرهم، على مناقشة أن الثقافة بعامة والمعمار تحديداً موضوع سميائي تواصلية منخرط في سيرورة إنتاج المعاني وتوصيل المعلومات والرسائل داخل سيرورة الفضاء الإنساني السيميائي.

بناء على ما تقدم، يمكن استخلاص النتائج التالية:

- الثقافة نسق سميائي عام يتشكل من أنساق علامات فرعية وظيفية متباينة هي مكوناتها المادية وغير المادية، واللفظية وغير اللفظية.
- الثقافة أنساق دلالية وموضوعات تواصلية قادرة على إنتاج خطابات دالة على هوية فضاءها السيميائي وقيمه وذاكرته.
- اللغة تصور سميائي مُوسّع يشمل أيّ نسق سميائي لساني وثقافي وفني قادر على إحداث تواصل بين باعث ومتلقي على الأقل.

- Grice, G. (January 2010/ 2011). Words and Architecture. *Perspectives*. Ontario Association of Architects. Toronto: Publishing Spring, Summer, Fall, Winter.
- Hall, T. E. (1976). *Beyond Culture*. New York- United States of America: Double Day.
- Lazutina, V. T. et al., (2016). Semiotics of Art: Language of Architecture as a Complex System of Signs. *International Journal of Environmental and Science Education*, Vol.11, No.17, pp. 9991- 9998.
- Lorusso, A. M. (2015). *Cultural Semiotics: For a Cultural Perspective in Semiotics*. Series: Semiotics and Popular Culture. New York: Palgrave Macmillan.
- Lotman, J. (1977). *The Structure of The Artistic Text*. Translated From The Russian by: Ronald Vroon. NO. 7. ANN ARBOR. University of Michigan.
- Monticelle, D. (2016). Critique of Ideology or/ and Analysis of Culture? Barthes and Lotman on Secondary Semiotic Systems. *Sign Systems Studies*, Issue: No. 3, pp. 432- 451, accessed 20/01/2017, <http://dx.doi.org/10.126997/SSS.2016.44.3.07>.
- Sebeok, A. T. (2001). *Signs: An Introduction to Semiotics*. Second Edition. Toronto- Buffalo- London: University of Toronto Press.
- Sebeok, A. T. & Danesi, M. (2000). *The Forms of Meaning: Modeling Systems Theory and Semiotic Analysis*. Berlin & New York: Mouton de Gruyter.
- Semenenko, A. (2012). *The Texture of Culture: An Introduction to Yuri Lotman's Theory*. Series: Semiotics and Popular Culture. New York- United States: Palgrave Macmillan.
- Stamatovic, S. V. (July/ 2013). Architectural Communication: Intra and Extra Activity of Architecture. *Spatium International Review*, No. 29, pp. 68- 74.
- Terzoglou, N. (2018). Architecture as Meaningful Language: Space, Place and Narrativity. *Linguistics and Literature Studies*, Vol. 6, No. 3, pp. 120-132, accessed 20/03/2018, <http://www.hrpub.org>.
- Torop, P. (2015). Cultural Semiotics, In: *The Routledge Handbook of Language and Culture*. Edited by: Farzad Sharifian. London and New York: Routledge.

- بارت، رولان. (١٩٩٣). *المغامرة السيميائية*. ترجمة: عبد الرحيم حزل. ط ١. مراكش- المغرب: دار تينمل للطباعة والنشر.
- بريمي، عبد الله. (٢٠١٨). *السيميائيات الثقافية: مفاهيمها وآليات اشتغالها، المدخل إلى نظرية يوري لوتمان السيميائية*. ط ١. عمان- الأردن: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.
- بنجراد، سعيد. (٢٠١٩). *السيميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها*. ط ٢. الرباط- المملكة المغربية: دار الأمان للطباعة والنشر.
- بوعصب، امبارك. (٢٠١٧). *القصور والقصبات بمنطقة تافيلالت: دراسة عمرائية ومعمارية*. ط ١. فاس- المغرب: المركز المغربي للدراسات التاريخية.
- تاوشخت، لحسن. (٢٠٠٨). *عمران سجلماسة: دراسة تاريخية وأثرية*. ط ١. ج ٢. الدار البيضاء- المغرب: مطبعة النجاح الجديدة.
- كوبلى، بول. وجانز، ليتسا. (٢٠٠٥). *أقدم لك... علم العلامات*. ترجمة: جمال الجزيري. مراجعة وإشراف وتقديم: إمام عبد الفتاح إمام. ط ١. ع. ٥٤٩. القاهرة: المشروع القومي للترجمة.
- لوتمان، يوري. (١٩٨٩). *قضايا علم الجمال السينمائي: مدخل إلى سيميائية الفيلم*. ترجمة: نبيل الدبس. مراجعة: قيس الزبيدي. ط ١. دمشق- سوريا: إصدار النادي السينمائي. مطبعة عكرمة.
- لوتمان، يوري. (١٩٩٥). *تحليل النص الشعري: بنية القصيدة*. ترجمة وتقديم وتعليق: محمد فتوح أحمد. (د.ط). القاهرة: دار المعارف.
- مجموعة من المؤلفين. (١٩٩٧). *سيميائية براغ للمسرح: دراسات سيميائية*. ترجمة وتقديم: أدمير كوريه. دراسات نقدية عالمية (٣١). دمشق: منشورات وزارة الثقافة السورية.
- مختار عمر، أحمد. (٢٠٠٨). *معجم اللغة العربية المعاصر*. ط ١. المجلد ١. القاهرة: عالم الكتب.
- مقبول، إدريس. (٢٠١٦). *المدينة العربية الحديثة: قراءة سوسيولسانية في أعراض مرض التمدن*. مجلة *عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية*، المجلد ٤، العدد ١٦، ص ص. ٤٧-٧٦.
- نجمي، حسن. (٢٠٠٠). *شعرية الفضاء: المتخيل والهوية في الرواية العربية*. ط ١. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.

- Alexander, C. (1977). *A Pattern Language: Towns- Buildings- Construction*. New York- United States of America: Oxford University Press.
- Baird, G. (1998). "La Dimension Amoureuse" in *Architecture (1969)*. In: *Architecture Theory Since 1968*. Edited by K. Michael Hays. A Columbia book of Architecture. New York: the Trustees of Columbia University in The City of New York and Massachusetts of Technology.
- Barthes, R. (1967). Semiology and the Urban. *Structuralism*, pp. 166- 172.
- Benveniste, E. (1974). *Problèmes de Linguistique Générale*. II. Paris: Ed. Gallimard.
- Danesi, M. (2004). *Signs and Meanings: A basic Textbook in Semiotics and Communication Theory*. Volume 1. Series Studies in Linguistic Cultural Anthropology. 3 Edition. Toronto: Canadian Scholar's Press Inc.
- Fisher, S. (2018). *Philosophy of Architecture*. Center for The Study of Language and Information. First Published Wed 9, (2015). Stanford: Stanford University, accessed 02/03/2018, <https://plato.stanford.edu/entries/architecture/>.





جامعة القدس  
AL-QUDS UNIVERSITY

## Al-Quds Journal for Academic Research Humanities and Social Sciences

Vol.1, Issue 2, May 2023



### Address

Inquiries and questions could be addressed to the Deanship of Scientific Research, Al-Quds University, P.O.Box 20002, Main Campus, Abu Dis, Jerusalem, Palestine  
Tel: +972-2-2791293  
Fax: +972-2-2791293  
Email: [research@admin.alquds.edu](mailto:research@admin.alquds.edu)

### Imprint

Al-Quds Journal for Academic Research is published by Al-Quds University, the Arab university in Jerusalem, Palestine. The Journal is open access and available at the following website:  
<https://aquja.alquds.edu/index.php/arts>  
Journal email: [aqujor@alquds.edu](mailto:aqujor@alquds.edu)

### Al-Quds Journal for Academic Research

A peer reviewed journal that seeks to publish original research in various fields of social sciences and humanities, including arts and media, economics and education in order to keep Palestinian community with up-to-date research conducted by Palestinian academics and researchers worldwide.